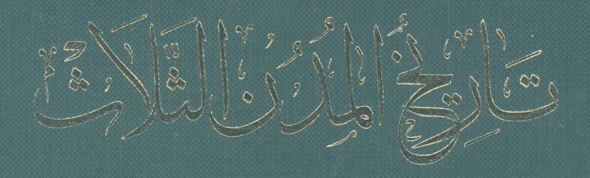
الشيخ

عبد الرحمن الجيلالي



الجزائر - المدية - مليانة

في موسمها الألفي

360 - 1370 هـ

970 - 1971 م



تاريخ المدن الثلاث

الجزائر - لمدية - مليانة

بمناسبة عيدها الألفي

تاريخ المدن الثلاث

الجزائر - لمدية - مليانة

بمناسبة عيدها الألفي

إعداد ودراسة وتمهيد وتعليق

عبد الرحمن الجيلالي





شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

E-Mail Dar el Oumma @ mail.com

الطبعة الأولى

2007

إيداع قانوني: 2465 / 2007

ردمك: 4 217 67 9961 978

تمهيد

لقد كان لي الشرف حينما دعيت من طرف هيئة إدارة (جريدة الشعب الثقافية) الجزائرية لأسهم في تحرير العدد الخاص بالعيد العاشر لاستقلال الجزائر وكذلك بمناسبة عيد العاصمة الألفي، وذلك بكتابة دراسة تاريخية عن مدينة الجزائر، وإن كانت الجزائر هي أقدم من هذه الألف سنة التي يحتفل بمرورها على هذه البلدة الطيبة في هذا العام ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م، وإنما هذه الألف سنة في الواقع تعبر عن بداية حقبة بارزة وظاهرة مبشِّرة ولها مع ذلك وزنها ومعناها العميق أيضًا وإنما البداية كما هو معلوم سبقتها بكثير... وإلى حد ما فإن ذلك صحيح.

ومهما كان الأمر فتراني لبيت الدعوة مسرورًا شاكرًا لإخواني الأوفياء حسن ظنهم بهذا العاجز؛ ونظرًا لأهمية الموضوع بادرت إلى الشروع فعلاً بوضع دراسة تاريخية متواضعة ترمي إلى جمع شتيت الفوائد ومنثور المسائل المتعلقة بماضي هذه المدينة عبر القرون، وعندما أخذت في تبييضها عاقتني من الزمن عوائق فلم تمكن لي فسحة من الوقت تسمح لي بإنجازها وتقديمها إلى النشر جاهزة لتحضر في الوقت المقرر لطبع هذا العدد الخاص ونشره وتوزيعه.

وصدر العدد الخاص يوم الجمعة ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ الموافق ليوم عيد الاستقلال ٥ جويلية ١٩٧٢م حافلاً بالموضوعات الشيقة والمقالات القيمة دون أن يكون فيه للكلام على ألفية الجزائر أي أثر.

وبقي الإخوان الكرام في انتظار المقال حتى أذن الله بإنجازه فأمكنتهم منه فنشروه-حياهم الله- في العدد الثالث للسنة الأولى من (الشعب الثقافي)

الصادر بتاريخ يوم الخميس ٩جمادى الثانية ١٣٩٢هـ الموافق ٢٠جويلية ١٩٧٢م تحت عنوان: مدينة الجزائر عبر التاريخ.

وبعد صدور هذا المقال واطلاع القراء عليه رغب إلي نفر من الأصدقاء- جمع بيني وبينهم الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بقصر الصنوبر بالعاصمة تحت رعاية وإشراف وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية بتاريخ ١٣جمادى الثانية إلى فاتح رجب ١٣٩٢هـ/ ٢٤ يوليو إلى ١٠ أغسطس ١٩٧٢م- وكلهم يقترح علي التوسع في هذا البحث ودرس (الجزائر) من نواحيها المختلفة بوصفها مدينة فأتعرض لتخطيطها وهندستها وذكر معالمها وبيوت العبادة منها ودورها وأشكال منازلها، وصناعاتها، وحركتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وذكر تقاليد أهلها وعدد سكانها ومن تعاقب عليها من الحكام وعلاقتها- هي خاصة- بالخارج ونظمها ومجرى الحياة العامة بها إلخ على أن يكون ذلك متماشيًا مع ما درج من العصور إلى العصر الحديث لينشر ذلك في جزء مستقل ويدرس تخليدًا لعظمة هذه الذكرى المزدوجة: ذكرى العيد الألفي والذكرى العاشرة للاستقلال.

فأكبرت اقتراحهم هذا وأجللته بقدر ما أكبرتهم هم في نفسي وأجللتهم وعظم علي الموضوع، وهالني الأمر وثقلت علي المسئولية، وارتبك علي الموقف، فتوقفت طويلاً مترويًا ومتربصًا، وأخيرًا اتضح لي أن عملاً كهذا ليس هو من عمل الأفراد وإنما هو عمل تقوم به الندوات والهيئات والجماعات من أرباب الخبرة والاختصاص في كل ناحية وكل فرع من نواحي هذا البحث الطويل الذيل وفروعه المتشعبة، كما أنه ليس من السهل جمع مواده وتنسيقها في أقرب وقت، بل هو عمل يستغرق من الزمن ما تنقضي معه هذه السنة، والحال أنه لم يبق منها إلا أيام قلائل لا تغني شيئًا ويمضي معها ما شاء الله من الزمن

فإن رحى الدهر لا تنتظرني ودولاب دوران الفلك لا يمهلني وتفوت الفرصة وينقضي الأوان دون أن نكون قد حصلنا على إسهام فعال ملموس ملتحم التحامًا كاملاً بما نسعد به في هذه الآونة من هذه الأيام الخالدة التي نحياها سعداء مستبشرين ببزوغ هلال عيد مزدوج-عيد الجزائر الألفي- مقترنًا بذكرى العيد العاشر للاستقلال (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

ولهذا ارتأيت أن أبادر أولاً إلى جمع ما وصلت إليه يدي من أهم وأخصب ما خطته أقلام نخبة العلماء من الأساتذة المعاصرين حول هذه الذكرى الغراء، وحبره الكتاب العرب المعنيُّون بشئون التاريخ وحقوقه في دراستهم النفسية وبحوثهم الممتعة المنشورة على صفحات المجلات العلمية وما ألقوه بأنفسهم في هذه المناسبة على منابر الندوات والملتقيات الثقافية بالإضافة إلى ما نشر لي على صفحات (الشعب الثقافية) فأنشر ذلك كله في مجموع كهذا يكون للباحث بعد ذلك كمقدمة وتمهيد أو كرصيد تاريخي يستعين به الدارس-سواء كنت أنا أو غيري- على وضع دراسة موسعة وبحث مسهب الشرح في هذا الموضوع.

وطبقًا لما جرى عليه التاريخ حسب ما قصه علينا ابن خلدون من جعل هذه المدن الثلاث-الجزائر والمدية ومليانة- هي من مآثر ومنشآت بلكين بن زيري أمير صنهاجة ونائب الخلافة الفاطمية بالمغرب، مع غض النظر عن قول البكري وهو متقدم على ابن خلدون بأربعة قرون.

حيث نجده في مسالكه يقول عن مليانة: إنه جددها زيري بن مناد وأسكنها ولده بلكين... ص٧٩. ط. الجزائر سنة ١٨٥٧م، ولم يقل اختطها كما قال ابن خلدون، أو بناها كما عند ابن الخطيب، فإنه نهض أهل هذه البلاد المذكورة بما يقضي به الواجب الوطني عليهم فأقاموا مهرجانات شعبية احتفالاً

بالعيد الألفي الذي عم الجميع، وكان في ذلك اندفاع قوي وتحمس شديد نحو الرغبة في العلم بعث ببعضهم إلى الانكباب على البحث والتنقيب عن تاريخ هذه البلاد فأظهروا لنا عصارة أفكارهم فيما ألقوه من بحوث ومحاضرات في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد أخيرًا بالعاصمة في التاريخ المومأ إليه، فألحقت ذلك كله بهذا المجموع الوجيز تعميمًا للفائدة وحرصًا على جمع ما تشتت من هذه الدراسات القيمة حتى لا يظل عملنا هذا مبتورًا، ولا نُتهم أو نرمى بالتهاون وترك الحقل بورًا.

ولا ريب أن ما كتب أو قيل بمناسبة هذه الذكرى الفخمة العظيمة سوف ينير في نفوس الأجيال الحاضرة العظات والعبر كما أنه سوف يحيي فيهم الآمال بمستقبل زاهر أفضل وأمجد يضف إلى الماضي ويزيد.

ألا ما أجمل شعبًا خلد ماضيه.. يحفل بآثاره وتراثه ومأثوراته، ويحتفي بالحاضر في سبيل بناء مستقبل زاهر وزاخر بأزهى وأفخر ما تباهي به الشعوب لتحيا حياة سعيدة في سلام وأمن ولتحيا الجزائر..

[illegible] - الجزائر

١ /٧/ ١٣٩٢هـ ١/١١/ ١٩٧٢م

عبد الرحمن الجيلالي

رسم الجزائر في العصور المتتابعة

① مدينة الفينيقيين

② مدينة الرومان

③ مدينة بني مزغنة

④ مدينة الترك

البحر الابيض المتوسط

عبد الرحمن الجيلالي

مدينة الجزائر عبر التاريخ[1]

كثيرًا ما أوحى اسم هذه المدينة أفكارا وأراء كثيرة مضطربة لدى المعنيين بتاريخ هذه البلدة، ولا سيما عند سكانها، حتى إننا نسمع منهم أحيانًا حديثًا يشبه في سياقه الهراء والثرثرة.

ولقد ذهب أهل التاريخ وعلماء الآثار في اسمها أو حول تسميتها-أولا فيما قبل الإسلام- إلى مذاهب شتى، على أن الرأي الذي أرست عنده سفينة البحث العلمي واطمأنت له أفكار العلماء نوعًا ما من الاطمئنان هو ما نقرره فيما يلي:

إن كلمة (الجزائر)-كما هو الواقع- اسم لمدينة على ساحل البحر من أرض الشمال الإفريقي على خط عرض ٤٧شمالاً وخط الطول ٤٤شرقًا، وذلك بالنسبة إلى خط الطول لمدينة (باريس) وكانت قبل ذلك في عهدها السحيق قطعة أرض لا شأن لها وتسمى بلغة القوم (أرغل) ومعناه المكان المستور العميق، ثم إنه لم يعلم أكثر من ذلك إلى نحو ما قبل اليوم بثلاثة آلاف سنة، وهو العصر الذي وطئت فيه أقدام الفينيقيين أرض هذا الوطن (٨٨٠ق.م) وأسسوا مراسيهم فظهر هذا المكان تحت اسم (أيكوسيم).

---

(١) عن جريدة (الشعب الثقافي) الجزائر- العدد ٣- السنة الأولى، ٩جمادى الثانية ١٣٩٢هـ ٢٠ جويلية ١٩٧٢م.

وقد ذهب العلماء في تفسيرهم لهذه التسمية إلى مذاهب ثلاث.

فمنهم من قال: إن معناه هو ما يؤديه اللفظ العربي كلمة (جزائر) أي: جمع جزيرة.

ومنهم من قال: نعم فيه معنى الجزيرة ولكن بإضافة معنى آخر له وهو الشوك، أي جزيرة الشوك، بناء على ما وجد على هذه البقعة يومئذ أو ما جاورها من الصخور الكبيرة من النبات الكثيف الذي يشبه في مظهره الشوك أو هو الشوك بنفسه.

وفيهم من أدى به اجتهاده وفهمه اللغوي إلى تحليل هذه الكلمة (إيكوسيم) فادعى أنها مركبة من جزئين اثنين (أي) ومعناه جزيرة، و(كوسيوم) ومعناه شوك، أو طيور غير طاهرة كما يقولون.

وفيهم من جعل هذا اللفظ عبارة عن إشارة إلى عدد (٢٠) معتمدًا في تفسيره هذا على تلك الأقصوصة التي رواها لنا الإخباريون عن الكتاب اللتيني (سولان)-سولينيوس- الذي عاش عام ٢٥٠م، وهي وإن كانت تظهر عليها مسحة الأقصوصة أو الأسطورة فإننا نوردها على علاتها ونذكرها كما ذكرها غيرنا من كل من أرخ لهذه المدينة.

إذ قالوا: بأنه عندما مر هرقل الليبي في هذه المنطقة مع رفاقه العشرين وكانوا تجارًا تركوه هناك وانعزلوا عنه لارتياد موضع لتجارتهم بهذا المكان، وأقاموا فيه أسوارًا حيث استقروا بينها، وأطلقوا على هذا المكان اسم يدل على عددهم العشرين وهو (أيكوسي) وقد فعلوا ذلك تخوفًا من استبداد أحدهم بهذا المكان فيفرض عليه اسمًا خاصًّا يميزه عن رفاقه ويجعله المنتصر عليهم أو

الرائد لهم ولما كان عددهم -كما روي- عشرين شخصًا أطلقوا على هذا المكان كلمة تؤدي معنى هذا العدد فاختاروا له هذه الكلمة وهي (إيكوسي)، فكان من السهل على أرباب اللغة فهم هذا اللفظ فطبقوه على القصة وأصبح المكان معروفًا باسم أيكوسي أي: مدينة العشرين.

ثم أنه لم استولى الرومانيون على هذا الوطن (١٤٦ ق.م- ٤٣١م) قاموا ولا شك بأفعال وأعمال كثيرة في هذا المكان وصار تابعًا لولاية موريطانيا القيصرية فحرفوا اسمه إلى الصيغة التي اشتهرت بعد ذلك على ألسنة القالة والكتاب، فقالوا: (أيكوسيوم) على أن هذا الاسم مشتق من لفظ أيكوسي.

وكان فيما حقق لنا هذه التسمية وأكدها هو ما حققته الكشوف والبحوث الأركيلوجية الأثرية يوم أن طلعت علينا الحفريات التي وقعت بحي دار العمالة الجزائرية قديمًا بالقرب من حي باب الواد أثناء عمليات التهديم من الكشف عن جرة مملوءة بمسكوكات وهي تشتمل على ١٥٨ قطعة نحاسية و١٥٤ قطعة من الرصاص مكتوبة بالخط البونيقي من اليمين إلى اليسار وكلها تحمل هذا اللفظ (أيكوسيم) وبذلك أصبح من المحقق لدينا الاعتقاد بأن الفينيقيين احتلوا هذا المكان أو قل على الأقل امتلكوه أو امتلكوا ما بساحل هذا المكان وشواطئه القريبة من هذه الجزر وأنهم هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم (أيكوسيم) الدال على معنى (الجزر) ولا سيما وأنه تقرر تاريخيًا بأن الفينيقيين هم الذين عنوا أولاً بتخطيط مراسي هذا الشمال الإفريقي وغيره من سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وأما وجه تسمية هذه المدينة بمدنية الجزر أو الجزائر فهو لما امتازت به بين المدن المجاورة لها من ظهور مجموعة من الصخور المنبسطة الشبيهة بالجزر

الصغيرة على سطح البحر، منتشرة بالقرب من هذه المدينة وكان عدد هذه الصخور كثيرًا لا يظهر على وجه الماء منها سوى أربعة. وهي أضخمها.

أولها: الصخرة التي ذكرها البكري وسماها (سطفلة)، وقال: (بأنها تواجه المدينة من الشرق إلى الغرب)، وذكرها ابن حوقل، فقال عنها: (إنها على رمية سهم من المدينة تحاذيها، وأن أهل الجزائر إذا نزل بهم العدو لجئوا إليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه أو يخافونه وهي أكبر الصخور).

والثانية: هي صخرة الشمال التي تقوم عليها ألان القشلة العسكرية.

والثالثة: هي ما بين هاتين الصخرتين وعليها كان يقوم الحصن المسمى (بنيونش) الذي بناه بيدرو نافارو الأسباني سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م ثم حطمه الأتراك على يد خير الدين باربروس سنة ٩٣٦هـ- ١٥٣٠م وأقاموا مكانه البرج الحالي المعروف اليوم باسم (برج الفنار).

والرابعة: هي خلف هذه الصخور الثلاثة والتي كانت مركزًا للمدفعية التركية لحماية المدينة ثم عملوا على ضم هذه الصخور الأربعة إلى بعضها فأصبحت كالجزيرة الواحدة أوصلها خير الدين برصيف يتصل بالمدينة طوله ٢٢٠ مترًا وعرضه ٢٥ مترًا وعلوه ٤ أمتار وأصبحت الجزر مرتبطة بالبلد كما نشاهدها الآن واشتهرت المدينة أو البلد إذ ذاك بعد حذف المضاف باسم (الجزائر).

والملاحظ أن هناك من الجغرافيين العرب كالمقدسي المتوفى سنة ٣٧٥هـ- ٩٨٥م والأسطخري المتوفى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م ذكرا هذه المدينة بصيغة الإفراد وكلاهما سماها (جزيرة).

قال المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٤٦، و٣٧٥، ط. ليدن ١٩٠٦م في سياق حديثه عن هذه المدينة: (وجزيرة بني زغناية على ساحل البحر... إلخ) وبنو زغناية هؤلاء هم بنو مزغني من قبيلة صنهاجة البربرية وما زالت بقاياهم معروفة باسمها الأصلي مندرجة في قبيلة بني سليمان الشراقة على الضفة اليمنى لوادي يسر وعلى بعد ٣٠ كيلو متر إلى الجنوب الشرقي من قرية الأربعاء وورد في بعض النسخ المخطوطة اسم هذه القبيلة بصورة (زغناي ومزغناي ومزغنة ومزغني وزغني).

وقال الأسطخري في كتابه مسالك الممالك صفحة ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٦ ط. ليدن ١٩٢٧م: (وجزيرة بني مزغنا مدينة عامرة يحف بها طوائف من البربر) إلخ.

وأكثرهم ذكرها بصيغة الجمع كابن حوقل، والبكري، والشريف الأدريسي، وابن خلدون، وابن عذارى، وياقوت الحموي، وأبي الفدا، كما ذكرها أيضًا صاحب الاستبصار وغيره فكلهم سماها (جزائر بني مزغنة) أو (الجزائر).

وهذا يرجع فيما يبدو إلى ما تجلى لهؤلاء المؤلفين من وضعية تلك الصخور بالنسبة إلى ما عظم منها وطفحت صفحتها على سطح الماء وما استتر منها عن الانتظار وصغر، ولا شك أن الصخرة المومى إليها من قبل-وهي المسماة باسطفلة- كانت هي أعظم الصخور في شبه جزيرة، فمن نظر إلى هذه قال: (جزيرة بني مزغنة) ومن نظر إلى المجموعة الصخرية كلها قال: (جزائر بني مزغنة) أو (الجزائر).

وأما النقوش التي نشاهدها مضروبة على وجه العملة التركية الجزائرية فإنها كلها تحمل صيغة الجمع (جزائر) بدون أداة التعريف ولا إضافة هكذا (ضرب في جزائر) على أن هذه المدينة كانت تعرف عند الأتراك باسم جزائر الغرب في مقابلة ما تعارف بين علماء الجغرافيا من جزائر الأرخبيل أو جزائر اليونان القريبة من بلاد الأتراك.

وإذا نظرنا إلى وضعية هذا المكان واختطاطه في العصر الذي كان يسمى فيه باسم (أيكوسي)-أو الجزائر- وجدناه لا يتجاوز بقعة أو قل شريطًا من الأرض ممتدًا على ساحل البحر لا يزيد عن مركز بحري أسس لتجارة القرطاجنيين مع الأهالي، فهو عبارة عن محطة مساحتها نحو كيلو مترًا واحدًا تقريبًا وبحيث لا يتعدى عرض الموقع أكثر من جادة (فاتح نوفمبر) اليوم.

ولما جاء دور الرومان بعدهم امتد عرض المدينة قليلاً إلى ناحية ما نسميه اليوم بنهج باب عزون وشارع باب الواد، ثم لا نعلم عنا بعد ذلك شيئًا إلا أنها كانت محلة لاتينية أيام الإمبراطور الروماني فيسباسيان (٦٩ ق.م- ٧٩م).

وأنها وقعت تحت وصاية (يوبا الثاني) ملك موريطانيا الذي كان يقطن مدينة شرشال سنة (٢٥ ق.م- ٢٣م).

وأن فيرموس أمير البربر استولى عليها سنة ٣٧١م أو ٣٧٢م بعد أن ثار على روما إلا أنه لم ينجح في الاستيلاء على (تيبازا) بسبب مقاومة سكانها، وقد اكتفى بأن أصبح سيد (أيكوسيوم) على أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما اضطر إلى الجلاء عنها في العام التالي.

ثم أصبحت مقر أسقفية يجلس على كرسيها مع غيرها من البلاد الأسقف فيكتور الذي اشترك في المجمع المنعقد في قرطاجنة عام ٤٨٤م بأمر من الملك الفاندالي هنريك كما أننا نعلم ما لحق هذه البلدة- أيكوزيوم- كما يسميها الرومان (من التحطيم الشامل مع القضاء على أهلها في الحرب الأهلية التي شنها الأهالي ضد الطغيان الفاندالي ما بين سنة ٤٨٠ و٤٨٣م.

أو ما ذكره في وصفها البكري في ص٦٦ ط. الجزائر ١٨٥٧م، فقال: (مدينة الجزائر بني مزغني هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار الأول وآزاج- أي: عقود وأقبية طويلة- محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وحصن دار الملعب فيها قد فُرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور...).

وجاء اكتشاف عام ١٩٥٠م مؤكدًا لصحة وصف هذا الكاتب، فقد وجد المنقبون-في نفس الحي الذي وجدت فيه القطع الفينيقية- قطع عمود، يعتقد الخبراء أن طوله كان يبلغ ٨ أو ٩ أمتار، وأنه كان يشكل مع مجموعة أخرى من العواميد أو الأعمدة هيكلاً ضخمًا، وقد عثر إلى جانب ذلك على بضع حجارة منحوتة يعود تاريخها إلى العهد الروماني وذلك بالإضافة إلى ما كان قد اكتشف عام ١٨٤٤م على عمق عشرة أمتار تحت الأرض بالقرب من قصر الحكومة الحالي من صهاريج رومانية وبقايا الحمامات.

وذكرها قبله ابن حوقل فقال عنها: (إنها مدينة عليها سور على سيف البحر).

وكتب عنها صاحب الاستبصار عام ٥٨٧ هـ- ١١٩١م. ص٢٢، ٢٣، ط. فيينا ١٨٥٢ يقول: (جزائر بني مزغنة مدينة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي قديمة البناء أثرية، فيها آثار عجيبة تدل على أنها كانت مملكة في سابق الأمم، وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملففة مثل الفسيفساء، فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة وأبدع عمل، وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقي اليوم منها جدار هو قبلة الشريعة للعيدين وهو كثير النقوش والصور).

فهذا ما نعلمه عن نشأة هذه المدينة فيما يتصل بتاريخها القديم، ثم غيمت سحابة كثيفة على تاريخ هذا المكان بحيث لم يرد ذكر اسم (أيكوزيوم) في كتب التاريخ إلا فيما بعد القرن الخامس الميلادي، أي: إلى ما بعد الفتح العربي الإسلامي حيث نرى اسم هذه المدينة (الجزائر) جاء مقرونًا باسم مدينة بني مزغنى تلك العشيرة البربرية الصنهاجية التي سكنت أو أقامت بجوار هذا المكان حوالي القرن الثاني أو الثالث للهجرة كما عرفنا عن طريق ابن عذاري أيضًا اسم صاحبها في سنة ٣٣٧هـ- ٩٤٩م.

فقال: (إنه في ١٥ رمضان سنة ٣٣٧ قد وصل إلى الخليفة الناصر -وهو في قصر الزهراء قرب قرطبة- منصور، وأبو العيش بن أبي العافية، ومعهما حمزة بن إبراهيم صاحب جزائر بني مزغنى) البيان المغربي ج٢، ص٢٣١ ط. ليدن ١٨٤٨م- ١٨٥١م.

فهذا كما ترى هو أقدم نص تاريخي في العهد الإسلامي ذكرت فهي مدينة الجزائر مع اسم صاحبها يومئذ حمزة بن إبراهيم وهو من فروع أسرة الدولة الإدريسية التي حكمت المغرب من أواخر القرن الثاني إلى أواسط القرن الرابع الهجريين.

ثم جاء ابن خلدون فحدثنا عن اختطاط أو قل تجديد اختطاط مدينة الجزائر المسلمة هذه، فذكر لنا أن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي هو الذي اختطها بأمر أبيه وعلى عهده (كتاب العبر ج٦ ص١٥٤، ط. بولاق ١٢٨٤).

ونحن نعلم أن أباه-زيري- هو الذي شيد مدينة أشير الكائنة بجبل الكاف الأخضر بالجنوب الشرقي من مدينة البرواقية قرب (ثلاثئ الدوائر) من ولاية تيطري، وجلس على عرشها سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، ومكث في الحكم ستًّا وعشرين سنة كما حكى ذلك ابن خلكان ج١ ص٢٤٧، ط. بولاق ١٢٩٩هـ، ومات في رمضان سنة ٣٦٠هـ جوان ٩٧١م وكان أن نصَّب بنفسه ولده هذا من قبل على مدينة الجزائر. ثم تولى بلكين أمر أفريقيا بعد وفاة والده بعهد من المعز الفاطمي حينما انتقل من المهدية إلى القاهرة (٣٦١هـ- ٩٧٢م).

وبما أن ابن خلدون لم يحدد لنا بالضبط تاريخ سنة هذا الاختطاط حيث قال في سياق حديثه عن زيري ما نصه: (ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر) ج٦ ص١٥٤ ط. بولاق ١٢٨٤هـ.

وكذلك نجد هذا الخبر بهذه الصورة فاشيا على لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦هـ- ١٣٧٤م) في كتابه أعمال الأعلام ص٦٢ ط. الدار البيضاء ١٩٦٤م حيث يقول: (وبنى ابنه بلكين بأمره مليانة ومدينة الجزائر والمدية).

فلا شك إذًا أن يكون ذلك وقع ما بين سنة ٣٢٤هـ- ٩٣٦م، وهي السنة التي تأمر فيها زيري على أشير، وسنة ٣٦٠هـ-٩٧١م التي توفي فيها، وعلى هذا التقدير تكون الجزائر وقد مضى على اختطاطها منذ عهد بالكين على يده ما يربو على الألف سنة بسنوات أو سنين، ولو فرضنا أنه قام بعمله هذا في السنة الأخيرة من حياة والده لكان الأمر كذلك يفوق العدد ألف سنة بنيِّف وثلاثين سنة قمرية أو بسنة واحد شمسية فالألفية حاصلة على كل حال.

وأما ما كانت عليه حال الحياة العامة بين الناس بهذه المدينة في ذلك العصر فهذا ما نحيل الكلمة فيه للإجابة عنه إلى من عاصرهم من ذوي الخبرة العلمية الصحيحة وأهل الاطلاع الواسع من المعتنين بشئون الشعوب من علماء الجغرافيا والتاريخ.

ولا أرى في هؤلاء رجلاً أعلم وأوثق وأقرب إلى ذلك العصر من ابن حوقل، فلقد خرج من بغداد سنة ٣٣١هـ-٩٤٢م بقصد الاطلاع على أحوال العالم والارتزاق بالتجارة والمعاملة؛ فإنه قال: فيما كتبه عن الزائر في تأليفه المسالك والممالك ص٤٢ و٥١ و٥٢ ط. ليدن ١٨٧٣م: (وجزائر بني مزغني مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة، وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز إلى القيروان وغيرها.

وقال الأسطخري المتوفى سنة ٣٤٦هـ-٩٥٧م: (وجزيرة بني مزغنا مدينة عامرة يحف بها طوائف من البربر...) مسالك الممالك ص٣٧، ٣٨، ط. ليدن ١٩٢٧م.

ومثلها في ذلك المقدسي فإنه من أهل أواسط القرن الرابع أيضًا ٣٥٧هـ-٩٨٥م، فإنه قال في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٨ ليدن ١٩٠٦م: (وجزيرة بني زغناية-مزغنة- على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس، ولهم عيون).

ولقد بلغك ما تقدم ذكره عن البكري الذي وضع كتابه المسالك والممالك سنة ٤٦٠هـ-١٠٦٧م فلا داعي إلى التكرار.

وجاء في دور الإدريسي وهو وإن لم يكن من أهل القرن الرابع إلا أنه جغرافي ثقة قريب العهد ممن ذكرناهم من أمثاله العلماء، فلقد توفي سنة ٥٤٨هـ- ١١٥٣م وله كتاب جليل في الجغرافية اعتمده العلماء، أسماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ط. باريل ١٨٦٤م، صور لنا فيه الحياة الجزائرية العامة في القرون الوسطى، فقال:

(ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون، النحل كثيرًا فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير، وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة).

وزار العبدري الجزائر سنة ٦٨٨هـ-١٢٨٩م فوصفها في رحلته ص٢٣ ط. قسنطينة بدون تاريخ فقال: ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر ويقف على جمالها خاطر الخاطر قد حازت مزيتي البر والبحر وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق وأبواب محكمة العمل يسرح الطرف فيها حتى يمل).

ووصفها ابن خلدون حسب ما كانت عليه هي ومدينة المدية ومليانة في عصره (٨٣٢-٨٠٨هـ ١٣٣٢-١٤٠٦م) فقال: (وهذه المدن الثلاثة في هذا العهد أعظم مدن المغرب الأوسط) وهو يعني بالمغرب الأوسط القطر الجزائري والواقع أن رقعة المدينة لم تكن فسيحة متسعة اتساع العواصم الكبرى المنبسطة أرضها مثل تونس أو مراكش، وإنما هي كانت بلدة صغيرة على سيف البحر متصلة بالجبل.

ولذلك نرى المراكشي في كتابه المعجب الذي فرغ من تصنيفه سنة ٦٢١هـ- ١٢٢٤م، ص٢٥٧ ط. ليدن ١٨٨١م يصفها بالصغر حيث قال: (ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة قريب من أربع مراحل) فهي كانت كما ذكرنا لا تتجاوز مساحة عرضها من البحر إلى ناحية جامع ابن فارس اليوم القائم بحي القصبة.

ولم نتمكن من ضبط مساحة مدينة الجزائر وتصور وضعيتها وشكلها المعماري إلا في أيام الأتراك فإنها كانت تمتد من الداخل على سفح الجبل حسب ما كتب عنها الرحالون الإفرنج ومن قصدها وزارها من السواحل والتجارة من كل مكان، إذ نرى البيوت المطلية بالجير الأبيض قائمة على الجبل كما يسميه الأهلون إلى اليوم وهو أعلى أجزاء التل ملتصقة ببعضها متراصة وتبرز طبقاتها العليا واحدة فوق الأخرى حتى تلتقي عند القمة وتعتبر الجهة السفلى من المدينة وهو الجزء الذي يخترقه شارع باب عزون وشارع باب الواد هي الجهة المختارة لسكنى ذوي اليسار والجاه من الرؤساء وكبار رجال الدولة والحكم فيها، وكانت المساكن الفخمة والقصور الضخمة من نوع المنازل والدور القريبة والمتصلة بجامع كشاوة.

ولقد وصف لنا هايدو المدينة وصفًا مسهبًا وشبه محيطها بقوس ذي وتر حيث كانت المدينة تمتد على المنحدرات الصخرية من القصبة إلى شاطئ البحر، فالقوس هو الجدران والوتر هو البحر وكان محيط المدينة إذا قيس من خارج أسوارها حوالي ١٠.١٧٠ قدم، والقدم عبارة عن ٣٠ سينيمترًا.

وكان ارتفاع السور يتراوح ما بين ٣٦ و ٤٢ قدمًا يحيط به خندق وتحميه أبراج، ولم يبق منه اليوم إلا جزء حقير من طلل بناحية باب الجديد بأعلى حي القصبة، وكان لهذا السور خمسة أبواب، باب البحر، وباب الجزيرة، إلى جانب المرفأ، وباب عزون في الجانب الجنوبي إلى المدينة، وباب الواد في الجانب الشمالي، وباب الجديد في الناحية الجنوبية الغربية ويخرج منه إلى الطريق المؤدي إلى برج الطاووس المسمى بالتركية (سلطان قلعة) وهو المعروف أيضًا ببرج مولاي حسن المشيد سنة ٩٤٨هـ- ١٥٤١م.

أما قصر القصبة فقد بني في أعلى موضع بالمدينة وحل منذ سنة ٩٦٣هـ- ١٥٥٦م محل القلعة البربرية القديمة التي كانت تشغل موضعًا أقل منها ارتفاعًا، وأصبحت القصبة مقر الديات من عام ١٢٣١هـ- ١٨١٦م إلى آخر العهد التركي ١٢٤٦هـ- ١٨٣٠م كما أن المدينة كانت تضم عددًا لا بأس به من الحصون والقلاع وبطاريات المدافع، فكان يحمي واجهة المدينة من ناحية البحر البرج الجديد وبرج باب الواد وبرج الإنجليز وبرج باب عزون.

وقدر هايدو الذي ظهر كتابه عام ١٠٢١هـ- ١٦١٢م عدد المنازل بها باثني عشر ألف منزل، وقدر الآب دان عدد المنازل سنة ١٠٤٣هـ- ١٦٣٤م بخمسة عشر ألف منزل.

والحق أن دور العبادة كانت كثيرة في مدينة الجزائر القديمة فقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه كان بها في أواخر العصر التركي ١٧٦ معهدًا، وذلك ما بين مسجد وضريح وزاوية فكان بها قبيل الاحتلال الفرنسي ١٣ مسجدًا جامعًا، و ١٠٩ مسجدًا للصلوات الخمس، و٣٢ ضريحًا وخمس زوايا كما أنه كان بها معابد صغيرة لأهل الكتاب من نصارى ويهود، ثم إنه لحق المدينة بعد الاحتلال من التغيير والتبديل والتحوير والتحويل ما أزال عنها شكلها الذي كانت تمتاز به وما فاقت به غيرها من مظهر جميل لا يشاركها فيها غيرها من البلاد، فأصبحت بسبب انفساح مساحتها وامتداد أراضيها وكثرة مبانيها-أشبه بعواصم الغرب الكبرى اليوم، ولم يحدث هذا التحويل دون أن يصحبه انقلاب عميق الأثر في المظهر العام لهذه المدينة.

أما عدد السكان بها إذ ذاك، فهو مما اختلف في تقديره المؤرخون والكتاب الذين كتبوا عن هذه المدينة وهو يتأرجح ما بين الستين ألف نسمة كما عند هايدو، ومائة ألف نسمة كما عند الآب دان، وهناك من بلغ بهم إلى ١٦٠٠٠٠ نسمة.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية تلخيص هام للأطوار التاريخية والأحداث التي تعاقبت على هذه المدينة منذ الفتح الإسلامي إلى عهد الاحتلال الفرنسي ومفاده:

إن لمدينة الجزائر اتصال وثيق بتاريخ المغرب الأوسط وذلك لأن هذه المدينة قد خضعت في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والسادس الهجريين (١٢١١م) إلى سلطان الفاتحين والمطالبين بالملك الذين تنازعوا هذه البلاد فيما بينهم، وقد كانت جزءًا من مملكة بني زيري وبني حماد ثم استولى عليها

المرابطون ٤٧٤هـ- ١٠٨١م ومن مآثرهم الخالدة بها هذا الجامع الأعظم الذي بناه يوسف بن تاشفين أعوام الستين وأربعمائة هجرية، وقد دانت من بعدهم لسلطان الموحدين ٥٤٥هـ- ١١٥٢م.

ولما حاول بنو غانية أن يعيدوا ملك المرابطين في أفريقيا استولى علي بن غانية على مدينة الجزائر عام ٥٥١هـ- ١١٨٥م ولكنه لم يحتفظ بها طويلاً فقد ثار الأهلون في وجهه وقدموا طاعتهم إلى منصور الموحدين، ولكن يحيى بن غانية استطاع بالرغم من هذا أن يحتل المدينة عام ٦٢٣هـ-١٢٢٦م ثم استعادها المأمون الموحدي عام ٦٢٨هـ- ١٢٣٠م في عام ٦٣٢هـ- ١٢٣٤م / ١٢٣٥م خضعت لسلطان أبي زكريا أحد الحكام الحفصيين.

وما وافق حلول سنة ٦٦٤هـ-١٢٥٥/ ١٢٥٦م حتى كان أهل الجزائر قد طردوا عامل سلطان تونس الحفصي وأنشئوا ضربًا من الحكم الجمهوري وظلوا مستقلين إلى عام ٦٧٦هـ- ١٢٧٧م وفي هذه السنة استطاع عامل بجاية الحفصي أن يخمد نار الثورة بعد أن فشل في ذلك مرتين من قبل.

ولما أسس أبو زكريا الحفصي دولة مستقلة في بجاية اعترف أهل الجزائر بسلطان هذا الأمير (٦٨٤هـ-١٢٨٥م) ولكنه مع ذلك لم يخلصوا له الإخلاص كله فقد اغتصب السلطة رجل يدعى ابن علان (٧٠٦هـ-١٣٠٧م) وطرد عمال سلطان بجاية وصمد أربعة عشر سنة للحملات التي وجهت إليه حتى هزمه في نهاية الأمر أبو حمو الأول صاحب تلمسان فقد حاصر المدينة واضطرها إلى التسليم وضمها إلى ملكه (٧١٢هـ/ ١٣١٢-١٣١٣م).

ولقد استطاع المرينيون في الفترة الواقعة بين سنة (٧٤٨-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) التي قام فيها أبو الحسن بأعمال جليلة في هذه المدينة، وكذلك في عامي (٧٦١-٧٩٥هـ/ ١٣٦٠-١٣٩٣م) أن يستولوا مرارًا على المدينة وذلك في أثناء حروبهم مع بني عبد الواد ملوك تلمسان الزيانيين.

أما أبو حمو الثاني فقد استعادها مرتين ولكنه لم يوطد أقدامه فيها بسبب الاضطراب الذي نشأ في البلاد عن إكراه الأهالي على دفع الضرائب المفروضة عليهم وأفاد ذلك الثعالبة وهم قبيلة من عرب متيجة فاستولوا على المدينة (٧٦٧هـ- ١٣٦٦م) وأخضعوها لسلطانهم فعلاً، واضطر سالم بن إبراهيم أحد أمرائهم إلى النزول عن مدينة الجزائر وأقسم يمين الولاء إلى الزيانيين ثم إلى الحفصيين ثم إلى المرينيين وكان يحنث في يمينه كل مرة حتى قتله أبو حمو الثاني سنة ٧٧٩هـ- ١٣٧٨م، وفي عام ٨٤١هـ- ١٤٣٨م ثار أبو زيان محمد المطالب بالعرش في وجه صاحب تلمسان، واستولى على مدينة الجزائر بعد حصار طويل واتخذها قصبة دول تضم متيجة والمدية وتنس، ولكن شدته في الحكم أثارت عليه أهل الجزائر فقتلوه غيلة في شهر ربيع الثاني- سبتمبر من سنته- وظلت الجزائر من ذلك الوقت إلى استيلاء الأتراك عليها سنة ٩٢٠هـ- ١٥١٤م أشبه بجمهورية بلدية صغيرة يقوم عليها جماعة من أعيان المدينة من بني التومي تحت حماية الثعالبة.

ومن مآثر ملوك تلمسان الزيانيين بها: منار الجامع الأعظم (٧٢٣هـ- ١٣٢٣م) ولقد اتصلت أساطيل تجار بعض دول البحر الأبيض المتوسط مثل أساطيل البندقية وفلورانسا بهذه المدينة في القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي.

وفيما بين أواخر وأوائل القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي تعرضت الجزائر كسائر مدن الساحل الإفريقي لكثير من المتاعب والمصاعب وقد صمم الملوك الكثالكة أن يخضعوا لسلطانهم جميع بلاد الشاطئ الشمالي لأفريقيا، فعمل الأسبان على الاستيلاء على مدينة وهران، واحتلال بجاية سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م-١٥١٠م.

وفي سنة ٩١٦هـ-١٥١١م وقع أهل الجزائر معاهدة مع فرديناند ملك أسبانيا، سمحت للأسبان ببناء قلعة على أهم الجزر المواجهة للمدينة، فأنشأ بدرونافارو قلعة البينو فوق الجزيرة- الصخرة- المواجهة للمدينة وذلك لمراقبة أهل الجزائر ورد غاراتهم البحرية عن السواحل الأسبانية.

وحمى الأتراك هذه المدينة لنزولهم فيها سنة ٩٢٠هـ- ١٥١٤م، وعبثا حاول الأسبان انتزاع المدينة من يد الأتراك فأخفقت الحملتان اللتان قادهما الدوق ديجودا فيرا- والدوق يوجودا مانكادا ٩٢٥هـ- ١٥١٩م، وعندئذ صمم خير الدين القضاء على الاحتلال الأسباني بهذا الساحل الجزائري فهاجم قلعة البينو وحطمها ٩٣٦هـ- ١٥٣٠م، وأخذت بعض أنقاضها لبناء جسر يصل بين الجزر الصغيرة القائمة عند مرسى السفن في الميناء وبين المدينة.

ولا يزال يسمى هذا الجسر -أو قل الرصيف- إلى الآن باسم (رصيف خير الدين) وأضيفت إليه فيما بعد ربوة قائمة، فحمى الرصيف والربوة الميناء من الرياح الشمالية، والشمالية الغربية، وجعلاها مرفأ صالحًا للسفن في فصل الشتاء فأصبحت لا تخشى العواصف ولا غزوات النصارى، ونصبت المدافع في مواجهة البحر وأقيم سور حول المدينة من ناحية الأرض فأصبحت المدينة بذلك أمنع من عقاب الجو.

وجاءت حملة شرلوكان العنيفة بقيادته هو بنفسه، فاندحرت أمام الجزائر (جمادى الثانية ٩٤٨هـ -أكتوبر ١٥٤١م) كما أنها لم توفق الحملة الجريئة التي شنها الملاح الإسباني (دون جوان جاسكون) في عام ٩٧٤هـ- ١٥٦٧م، وقد ضرب الإنجليز المدينة في أعوام (١٠٣٢، ١٠٦٥، ١٠٨٣هـ) (١٦٢٢، ١٦٥٥م)، ثم ضربها الدانماركيون سنة ١١٨٤هـ- ١٧٧٠م ولكن ذلك لم يجد نفعًا.

كما وقع مثل ذلك من فرنسا أيضًا فضربت وحدات الأسطول الفرنسي الحاجزَ البحري في عام (١٠٧١، ١٠٧٦ هـ) (١٦٦١، ١٦٦٥م) بغير طائل وقاد دوكانزن حملتين بحريتين على مدينة الجزائر في عامي (١٠٩٣، ١٠٩٤هـ) (١٦٨٢، ١٦٨٣م) وأدى ذلك إلى تدمير خمسين منزلاً وقتل ٥٠٠ من السكان وأصيبت المدينة بأضرار مادية جسيمة.

ثم كانت حملة ثالثة أرسلت في عام ١٠٩٩هـ- ١٦٨٨م بقيادة دستار كانت أعظم من الحملتين خطرًا على أهل الجزائر مما أدى ذلك إلى طلب الصلح من أهلها.

وشنت أسبانية حملتها العارمة على الجزائر سنة ١١٨٧هـ- ١٧٧٣م بقيادة أمير البحر دون بدرو جاستليقو مع القائد وريلي ونزلت القوات الإسبانية إلى البر عند مصب نهر الحراش في السابع من شهر جمادى الأولى ١١٨٩هـ- ٨ جوان ١٧٧٥م فهزمت وفقدت من رجالها ٢٨٠٠ مقاتل ثم خابت إسبانيا أيضًا في الحملة التي قادها أمير البحر الأسباني دون أنجلوا بيرسلوا ضد الجزائر وضربها بالمدافع ١١٩٧هـ- ١٦٨٣م، ولكنها باءت بالفشل.

ثم بعد سنة ١٢٣٠هـ- ١٨١٥م ظهرت الدول الأوربية بمظهر الخصم الألد للدولة الجزائرية واعتزمت كل العزم على أن تقضي نهائيًّا عليها بدعوى محو القرصنة- وهم فيها سواء- فجاءت حملة اللورد أكسيموث ١٢٣١هـ- ١٨١٦م يعاونه أمير البحر الهولندي كابلين ودخل إلى ميناء الجزائر تحت حماية الراية البيضاء وأطلق النار على المدينة غدرًا فقتل ٥٠٠ نسمة وجرح ألفًا من سكانها وحطمت مدفعية السواحل، بيد أن الجزائيين هبوا للدفاع عن أنفسهم في صيف هذه السنة فأوقعوا بأسطول الحلفاء خسارة بلغت ٨٨٣ رجلاً، وحدثت غارة بحرية أخرى بقيادة أمير البحر نيل (ذو القعدة ١٢٤٠هـ- جوان ١٨٢٥م) ولكن المدينة لم تُصب من جرائها بضرر كبير.

وأخيرًا لجأت فرنسا إلى الخطط التي وضعها القائد بوتان من سلاح المهندسين العسكريين وكان نابليون قد أرسل هذا الضابط في عام ١٢٢٣هـ- ١٨٠٨م لاختبار الحصون الدفاعية في الجزائر فاقترح هذا أن يكون الهجوم على المدينة من البر وأن يوجه أولاً إلى حصن الطاووس المعروف ببرج مولاي حسن أو برج بوليلة وهو الحصن الذي يشرف على المدينة ويسيطر عليها وهو المعروف أيضًا بحصن الإمبراطور.

وقد أعادت هيئة أركان الحرب الفرنسية النظر في هذه الخطة وأكملتها ووافقت عليها الحكومة وعملت على تنفيذها، وفي ٢٢ ذي الحجة ١٢٤٥هـ- ١٤ جوان ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية عند سيدي فرج على بعد ١٤ ميلاً غرب الجزائر فهزمت جيش الداي فوق هضبة (سطا والي)[1] ثم تقدمت

---

(١) اسم ضاحية من ضواحي الجزائر قرب سيدي فرج، وكلمة (سطا) فارسية محرفة عن لفظ أستاذ وتكتب أيضًا: اسطا، واسطى، واصطى، واصطا، وانصرفت كلقب إلى صحاب الحرف ومعناها عندهم: السيد الماهر أو المشهور بعلمه، وأما الجزء الثاني (والي) فهو طبعًا اسم علم أو لقب.

الحملة أمام حصن الإمبراطور وأطلقت المدافع نيرانها على هذا الحصن في فجر اليوم الرابع عشر من المحرم سنة ١٢٤٦هـ- ٤ جويلية ١٨٣٠م وفي الساعة العاشرة من ذلك اليوم نفسه احتلته جنود فرنسا بعد أن دمرت بعض أجزائه، وغادرته حاميته وفي اليوم التالي وقَّع الداي شروط التسليم التي وضعها القائد الفرنسي العام (دي بورمون) ودخل القائد المدينة على الفور.

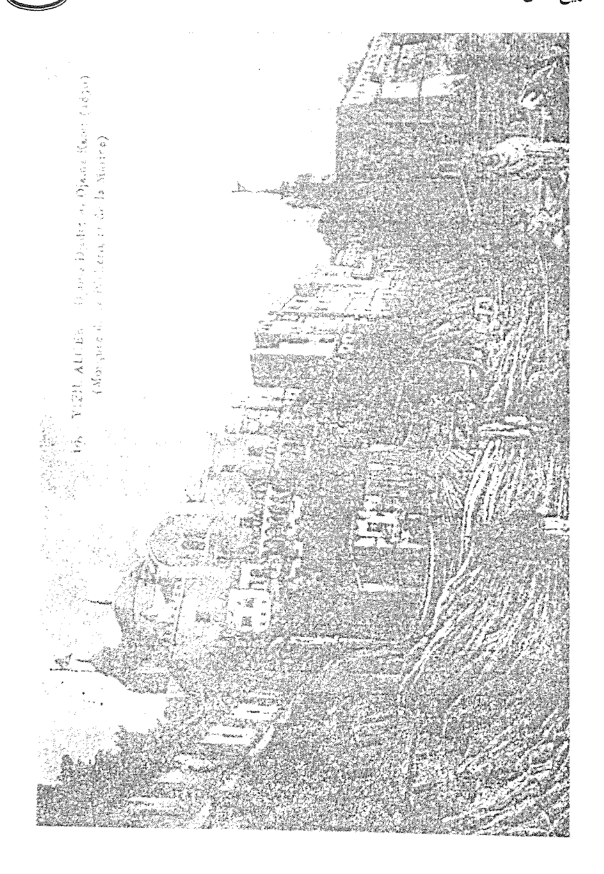
وما أبعد شبه اليوم بالبارحة، فإنه بعد مضي قرن وثلث قرن على الاحتلال الفرنسي غادر الفرنسيون المدينة مرغمين في مثل هذا اليوم والشهر من سنة ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م فرحم الشهداء، ولتحيا الجزائر.

عبد الرحمن الجيلالي

الجامع الكبير

بمدينة الجزائر- معماريًّا وتاريخيًّا

إنما كان إلحاقنا لهذا البحث الدراسي بهذا المجمع التاريخي- وقد كنا نشرناه من قبل بالعدد الثامن من السنة الثانية لمجلة (الأصالة) الصادر في ربيع الثاني جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ماي- جوان ١٩٧٢م ذلك لكونه يتعلق بالبحث في أقدم أثر إسلامي عريق وأفخم بناء معماري عتيق عرفته مدينة الجزائر منذ نشأتها إلى اليوم.



إن من روائع الفن الإسلامي الذي خلفته لنا الأجيال المسلمة السالفة وتركته للأعقاب كنموذج مشرق ناطق بتقدم الحضارة الإسلامية في سالف عصروها الزاهرة وكدليل ساطع دال على انتشار المدنية الإسلامية في الأقطار والأمصار شرقًا وغربًا- هذه المساجد الجامعة العظيمة متفرقة ومجتمعة على وجه المعموره هنا وهناك كنجوم السماء، تلمع أنوارها وتشع أضواؤها حتى لا يضل ركب الإنسانية الزاحف نحو الرقي الروحي والتقدم الحيوي، فمنها أشرق نور الإيمان، وتجلى العلم بجلاله لطالبه من غير احتكار ولا تضييق ولا تقتير، وعليها وقد أفرغت في قالب الجمال يظهر رونق الفن وبديع الصنعة.

ولا غرو فإن المسجد فهو مهد الإسلام ورابطة الوحدة الإسلامية بين سائر الشعوب ومثوى العلماء ومنطلق الفاتحين والمركز الأساسي الأصيل الذي اتخذه المسلمون دار ندوتهم وشوراهم، يتبادلون فيه الرأي لحل مشاكلهم والنظر في مصالحهم، ومنه تخرج على يد رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم خلفاؤه الراشدون وجم غفير من أبطال الإسلام وفطاحل العلماء وكبار الساسة والقادة، وفي رحابه يجتمع سائر المسلمين مرات في اليوم لتوثيق روابط الألفة والمحبة بينهم، يرفرف عليهم علم الحرية والإخاء والمساواة.

ولقد كانت الجزائر -ولا سيما منها العاصمة- من المراكز الإسلامية التي كتب لها قصب السبق في ميدان تشييد هذه المراكز الإسلامية والثكنات الحصينة، فالتاريخ يشهد لنا بأنه كان يوجد بهذه العاصمة قبل استيلاء الأجنبي الغادر عليها ما يزيد على نيف وعشرين ومائة معهد إسلامي، أي: ما بين مسجد جامع ومصلى للصلوات الخمس وزاوية للدراسة والصلاة معا ومدرسة للتعليم الثانوي والعالي، وكتاب للصبيان وقبة لضريح، ومنهم من زاد على هذا العدد فبلغ إلى ١٦٦ مؤسسة إسلامية وهي عنده على هذا

التفصيل:

١٠٩ مسجدًا للصلوات الخمس
١٣ مسجدًا جامعًا
٣٢ ضريحًا
١٢ زاوية

وفي طليعتها هذا المسجد الأعظم -الجامع الكبير- الذي كان ولا يزال قائمًا ماثلًا أمامنا كالطود الشامخ يحمل مشعل المجد وآية الخلد كأنه علم في رأسه نار.

هذا الجامع هو أحد المساجد الأثرية الثلاثة التي تنتمي في تاريخها إلى أزهى وأعز عصور الإسلام الذهبية الزاهرة فخورة بانتسابها إلى دولة هي من كبريات دول المغرب العربي المسلم وأسعدها.

وتلك المساجد الثلاث هي ما بالجزائر وتلمسان وندرومة، أما تلك الدولة فهي دولة المرابطين الفخمة التي نشأت عندنا في القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي ونشرت أعلامها على معظم هذا الشمال الأفريقي وعلى أرض الأندلس أيضًا.

امتدت مملكتها من أرض السينيغال جنوبًا إلى نهر أيبريا- أو الأيبر شمالاً، ومن البحر الأطلانطي غربًا إلى إقليم بجاية من أرض الجزائر شرقًا، وكانت العاصمة هي ما أسسته يد هذه الدولة بنفسها من تلك المدينة الجميلة مراكش.

اشتهر ملوك هذه الدولة الملقبون بـ (أمراء المسلمين) بالاستقامة والعدل والأخذ بيد العلماء، ولم يجرِ في تراب مملكتهم رسم مكس ولا معونة ولا

خراج، لا في بادية ولا في حاضرة، وكان أيامهم -كما حدثتنا مصادر التاريخ- أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن فأحبهم الناس.

ولا سيما ذلك أيام عاهلهم الأكبر، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، الذائع الصيت فقد أجمع المؤرخون على فضله وشجاعته وتقواه، حتى إنهم قالوا: لم يكن في عصره نفاق ولا ظلم وكانت المرأة في زمنه تسير وحدها حاملة الذهب فتجول أقطار أفريقيا والمغرب لا تجد من يعترض سبيلها أو من يسمها بسوء.

ومن أظهر خصائص هذا العاهل الكبير أنه ما خاض قط حربًا من حروبه ضد خصومه إلا وخرج منها منتصرًا ظافرًا حتى إنه لم يعرف له في ذلك نظير في تاريخ المغرب، ويكفيك منه انتصاره في تلك الحرب الضروس التي عرفت بموقعة شهيرة التي وقعت بأرض الأندلس (٤٩٧هـ- ١٠٨٦م) وناهيك به فضلاً وشرفًا وفخرًا أن حجة الإسلام الإمام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما بلغته أخبار هذا الأمير أزمع على الرحيل من المشرق ليغتنم صحبة هذا العاهل بالمغرب وفعلاً شد عزمه وربط رحله وأخذ في السير من مقره حتى مدينة الإسكندرية وشرع في التجهز استعدادًا للانتقال نهائيًا إلى أرض المغرب، فلم يرعه إلا وخبر نعيه يعم الآفاق وكان ذلك سنة (٥٠٠هـ- ١١٠٧م) فعدل عن الرحلة.

فإلى هذا العاهل الكبير- يوسف بن تاشفين- يرجع الفضل في تشييد هذه المؤسسة الكبرى في الإسلام: الجامع الكبير بالجزائر، بناه كما يقول الزياني: يوسف بن تاشفين أعوام الستين وأربعمائة للهجرة- الموافقة لأواسط القرن الحادي عشر الميلادي، أي أن لهذا المسجد منذ إنشائه إلى اليوم ما يناهز الألف

سنة، كما نجد خبره أيضًا في مؤلفات القرن الخامس الهجري مثل كتاب المسالك الذي صنفه صاحبه البكري سنة ٤٦٠هـ - ١٠٦٨م فتراه يقول عن مدينة الجزائر: ولها أسواق ومسجد جامع.

فالمساجد الثلاثة التي أشرنا إليها هي التي نجدها اليوم وحدها حافظت لنا على نموذج فن المعمار المرابطي في تاريخ العمارة الإسلامية بهذه الديار، إذ نراها متشابهة في شكلها وطرازها ولا تختلف عن بعضها إلا من حيث السعة والمساحة فقط، فأكبرها جامع تلمسان ويليه جامع الجزائر ثم جامع ندرومة، ورغم التغيير والزيادة التي زادها الموحدون وأحدثوها في ندرومة فتراه أقرب شبهًا بجامع الجزائر.

وللجزائر اليوم أن تفتخر على سواها من البلاد الإسلامية -ولا سيما بلاد المغرب- بكونها امتازت عنها بالحفاظ على هذه المجموعة الأثرية الثمينة الفريدة التي وصلتنا على هيئتها الأصلية، والتي لم يبقَ لهذه الدولة في غير أرض الجزائر أثر معتبر هام يمكِّن علماء الآثار من تصحيح دراستهم المعمارية واستكمال معلوماتهم وبحوثهم الأثرية مستوفاة كاملة إلا هذه المعالم الثلاثة التي لا توجد إلا في أرض الجزائر، اللهم إلا إذا استثنينا الجزء الشمالي الذي يشمل المحراب من جامع القرويين بمدينة فاس فإنه تم على عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣١هـ - ١١٣٧م ولكنه أثر ضئيل.

ويكفينا في الاستدلال على رقي فن الإنشاء والتعمير بالجزائر في ذلك العصر الغابر وجود مسجد الجزائر هذا القائم في غاية الإحكام والتمكين، وقد أشرف على ألف سنة وهو لا يزال على حاله غضًّا طريًّا كأن يد الصانع لم تفرغ من تشييده إلا منذ الساعة.

نعم، إن المتأمل بعين الناقد البصير إذا رأى هذه المساجد وهي تخضع بصفة عامة إلى النمط المرابطي قال: بأنها ليس لها من الرشاقة والأناقة حظ عظيم؛ فتقول:س بلى، فإن لذلك سببًا وهذا السبب يعود إلى الحالة الأولى التي كان عليها أمراء هذه الدولة من الميل إلى البساطة في حياتهم العامة والخاصة من الإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وعدم التكلف.

ثم إنه أيضًا لم يكن لهذه الدولة في أول أمرها اتصال مباشر بفنون الشرق ولا لها اطلاع على الهندسة المعمارية فيما قام به الأمويون بالأندلس، أو العباسيون بالمشرق مثلاً، فاتسمت لذلك آثارها بفن جديد وطابع خاص يمتاز عن غيره بالضخامة والفخامة ثم لما اتصلوا بالأندلس واطلعوا على آثار الحضارة الشرقية التي تركها هناك الأمويون أخذ فن المرابطين يومئذ يتطور متأثرًا بمظهر ما عليه جامع قرطبة أو الزهراء مثلاً، فكان منها ما نشاهده اليوم من زخرف محراب جامع تلمسان وقبته العجيبة وبعض تيجان الأعمدة الحاملة لعقوده وأقواسه المفلوقة.

ولقد كان لاستحالة أو لتعذر الحصول على أعمدة كبيرة لتشييد مآثر هذه الدولة بحسب ما يتجلى لنا من مساجدها اختير لذلك دعائم مبنية بالحجارة قاعدتها مطولة أو مصلبة تعلوها أقواس تشبه حدوة الفرس دون أن تربطها أوتار، تحمل سقفًا مسنمة وهذا هو السبب فيما نشاهده من أثر الضخامة التي تقوم عليها عمارة المرابطين في مساجدهم.

والجامع الكبير هذا هو في جملته وتفصيله مربع الشكل يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وقبلته بالجنوب الشرقي وهو قائم على شاطئ متصل بالبحر.

ولقد أدركت جدتي لأمي رحمها الله وقد عمرت طويلاً تقص علينا حياتها في صباها حينما كانت ترافق جدها الشيخ مصطفى القاديري مفتي المالكية بالجزائر (١٢٥٩هـ- ١٨٤٣م) فيذهب بها إلى مقصورته بالجامع المذكور، قالت: بأنها كانت تشرف بنفسها من نافذة هناك واقعة على البحر، ولدينا صور أخذت لهذا المسجد سنة ١٢٤٦هـ- ١٨٣٠م تصحح لنا ذلك.

ويحد هذا المسجد اليوم شمالاً النهج المسمى بنهج البحرية، وجنوبًا الشارع الكبير ذو الطنف أو الشاذروان المشرف على المرسى، وغربًا الطريق المتصل بالغرفة التجارية وشرقًا الطريق الذي ما بين نهج البحرية والشارع الموازي جدار لقبلة المسجد، وهو يشتمل على أحد عشر بلاطًا- صفًّا- معاكسًا للقبلة، بالإضافة إلى الخمس رواقات التي تحيط به من غالب جوانبه، ما عدا الجهة الشمالية الشرقية، ومساحته تستغرق نحو الألفي مترًا مربعًا.

وطوله يزيد قليلاً على عرضه أو عمقه بثمان مترات، فالطول هو عبارة عن ٤٨ مترًا، أما العرض فهو لا يزيد عن ٤٠ مترًا، وإذا قسمنا ضلعه الشمالية الغربية منه وجدنا بها ٤٠ مترا، ومثلها كذلك كل من جهتيه الشرقية الشمالية وما يقابلها من الناحية الغربية الجنوبية.

وقد كان جداره الجنوبي الغربي قبل- متصلاً بحديقة فسيحة تسمى بالجنينة، كما أنه كان بشماله الشرقي مصلى للجنائز وهو منتقض اليوم، وبقرب الجنينة ساحة أخرى كانت تستعمل كواجهة حربية للدفاع عن العاصمة، وضع أربعة مدافع من أكبر عيار كان يستعمل يومئذ في السلاح التركي، ثم أزيلت هذه المدافع من هناك بعد الحملة الإنكليزية التي قادها اللورد أيكسموث ضد الجزائر سنة ١٢٣١هـ- ١٨١٦م، وفي بقية أجزاء هذه الساحة أقيم ما نشاهده

اليوم خارج جدار المسجد الغربي الشمالي من المقاصر، ومنها مقصورة المفتي، أما ما كان مستعملاً من تلك المقاصير كمحكمة شرعية للمالكية فإنما هو من زيادات سنة ١٢٦٦هـ- ١٨٥٠م (ربيع الأول- فيفريي) وأول قاضٍ جلس بهذه المحكمة للحكم هو الشيخ حُميدة العمالي المتوفى سنة ١٢٩٠هـ- ١٨٧٣م، ويوم أن بنيت هذه المحكمة نظم الشعراء في مدحها أبياتًا، ومنها هذه الأبيات للشيخ محمد بن عبد الرحمن الأمين المتوفى سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩-١٨٩٠م، قال:

أحسن بمحكمة قد راق منظرها أبـدت محاسـنها شـكرًا لباريهـا
يحـق حـسن الثنـا للآمـرين بهـا مع الـذين سـعوا كـذاك بانيهـا
للحكـم قـد نـصبت أركانهـا لـشرعة المـصطفى الله يبقيهـا
لا تعجبن أمـا يكفيـك نـسبتها لمالـك شـيدت لـه نواحيهـا
وحالها نطقت في الحين مفـصحة بالبـشر ضـاحكة تزهـو لرائيهـا
يا قصدًا ربعها لا تخشَ مـضيعة الله للحق يهـدي كـل مـن فيهـا

ودعائم المسجد تقوم على الحجارة والآجر المملوء، تغطيه طبقة من الجبس والجير، ويبلغ عدد هذه الدعائم ٧٢ سارية كلها قائمة الزوايا، وفيها المصلبة، تبعد كل واحدة عن أختها بما قدره ٣.٤٠م وهي مثل دعائم جامع تلمسان الكبير تحمل عقودًا- أو قل أقواسًا- أربعة متداخلة ومتقابلة اثنان منها مكسرة الأقواس في شكل حدوة الفرس المدببة واثنان مسننة متعددة الفصوص بحيث تبلغ فصوصها إلى اثني عشر فصًا، وكان أول من استعمل هذا النمط من الأقواس المفصصة المفلوقة بالمغرب هم المرابطون كما هو الحال بجامع تلمسان الذي يرجع تاريخه إلى عصرهم.

ويدخل تحت هذه العقود أحد عشر بلاطًا مديدًا يمتد من الشمال إلى الجنوب في اتجاه معاكس لجدار القبلة، كما هو عليه حال جامع قرطبة والقيروان وتلمسان، ويخالفها في ذلك جامع القرويين بفاس، فإن بلاطاته تمتد موازية لجدار القبلة، وهذه ميزة خاصة يمتاز بها هذا الجامع من بين سائر المساجد الأثرية الموجودة بهذاالشمال الإفريقي.

ثم إننا إذا قسمنا عرض ما بين سواري البلاط الأوسط من الجامع الكبير هذا وجدناه يزيد على بقية البلاط الأخرى بـ ١.٦٠ كما هو الشأن في مديد الصف الأول منه، ومثله في ذلك جامع تلمسان، ونرى هذا الشكل يختص بالمساجد الأميرية الجامعة.

ويذكر أهل الجغرافية والتاريخ من متقدمي علماء العرب وتبعهم في ذلك المتأخرون من الإفرنج أن بعض الأجزاء الشمالية من جدار المسجد الشمالي الغربي هو من بقايا أطلال هيكل أو معبد كان قائمًا هناك للرومان، مستدلين على ذلك بما يوجد بهذا الجدار من الخارج من تلك القطعة الحجرية المنقوش بحروف لاتينية: vsrvfvagilis تؤدي هذا اللفظ (روفوس أجيلوس) ولا تزال هذه القطعة موجودة ظاهرة جلية متماسكة ملتحمة بأجزاء الحائط من الخارج.

يقول البكري في مسالكه: (وكانت بمدينة بني مزغنة- يعني: الجزائر- كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين، مفصص كثير النقوش).

ويذكر المؤرخ الفرنسي (كلان) أنهم ظفروا بأجزاء من الحجارة وقطع من الصوان هي بقايا متممة لنص ما جاء في حجر المسجد، وجدت هذه الأجزاء بناحية جامع كتشاوه من العاصمة بنهج (بروس) المعروفة سابقًا باسم باب

السوق، أو سوق الجمعة بالقرب من قصر أحمد داي، ومن مركز الشرطة ومضمونها ينص على أنه كان بهذا المكان معبد أو هيكل شيده المسمى (لوسيوس بن أجيلوس) من ماله الخاص الذي تحصل عليه مما ناله من التشريفات البلدية من مواطنيه، وجعله وقفًا.

ونعود إلى المسجد فنقول: إن هذا الطراز الذي نشاهد عليه المسجد اليوم هو مركز على فن المعمار الأموي بالأندلس أو نقول هو في هندسته وتخطيطه هذا يرجع إلى الطابع الأسباني المغربي كما تظهر عليه مسحة من جامع قرطبة فسماؤه مغطاة بسقف- هي على عدد بلاطاته الإحدى عشر وهي من الخشب الرفيع ومغطاة بقرميد مسنم ذي أربع منحدرات والمثلثي الشكلي، ما عدا فناء المسجد وهو مربع وتبلغ مساحته نحو ٢٠٠ مترا فهو مكشوف غير مغطى ويشبه في وضعيته جامع القيروان بصفة مصغرة.

ولقد حصل هذا التشابه بين هذه المساجد المذكورة بسبب التمازج الذي وقع بين سكان المغرب والأندلس حينما اتحدت هذه الأقطار سياسيًا وأدبيًا واجتماعيًا على عهد تينك الدولتين العظيمين: دولة المرابطين ودولة الموحدين عند ما استولتا على هذا الوطن في القرن الخامس والسادس.

ثم إن ما نرى عليه واجهة المحراب اليوم ما عدا الأسطوانتين القائمتين إلى جانبي المحراب من الرخام المواهب فإن كل ما نراه حولها من الزليج الزائف وهذه الطوابع المزخرفة من الجبس الفارغ كل ذلك حدث أخيرًا وأقحم في هذه العمارة إقحامًا من غير ما دعت الضرورة ولا الحاجة إليه بالمرة، فانطمست علينا بذلك أهم معالم المحراب التاريخية وزال عنه جلاله وبهاؤه وخسر بذلك المسجد في نفسه جزءًا عظيمًا من تاريخه، كما خسر بذلك فن المعمار الإسلامي خسارة علمية فنية ضخمة...

وإن كان الذين فعلوا ذلك يرونه في نظرهم حسنًا فنحن لا نرى ذلك حسنًا، وما هو في الحقيقة والواقع بحسن، ولا هو في نظر ورأي علماء التاريخ والآثار بالشيء المستحسن وحتى فيما ذهب إليه علماء الشريعة من فقهاء المالكية فإنه عندهم عمل غير مرضي، ولا ينبغي أن ننسى أن الجامع بني على عهد دول كانت تحترم مذهبها المالكي وعليه تجري جميع أعمالها ولا سيما وأن هذه الناحية من المساجد لم تكن في حاجة إلى إصلاح أو ترميم أو تحوير أو تغيير أو تبديل.

ولعمرك إنه منذ وقع بهذا المحراب هذا التحوير وهو إلى حد الآن لا يزال رافعًا عقيرته يصرخ قائلاً بلسان حاله: يا قوم، ما هذا الظلم... إنكم ظلمتموني، حيث ألبستموني لباسًا يتنافى وجلال وضعيتي الأثرية التاريخية فكيف يكون شأني أمام رواد العلم وطلاب المعرفة وعلماء التاريخ؟

فكيف يتهيأ لي الوقوف منسجمًا إلى جنب هذا المسجد العتيق الموقر حينما يقف أمامي مستنطو الآثار والأحجار، والباحثون عن تراث الحضارة الإسلامية عبر التاريخ؟

وكيف تسنى لي الإشهاد لأزكي دعوى هذا المسجد في بلوغه سنٌ مشارفة الألف سنة وأنا في هذا المظهر المزري بقيمتي ومنزلتي التاريخية- مظهر (الزازو...)؟

وكيف حتى أستطيع أن أتصدر هذا المسجد الجامع الدهري؟ أليس لي ولكم في هذا فضيحة وسخافة؟

أليس في هذا الصنيع تلبيس للحقائق وتلبيس وتشيويه؟ والحالة أنني لم أكن من قبل عاريًا حتى تكسوني، ولا جائعًا فتطعموني.

فإن قيل: أليس لهذا المحراب تاريخًا متأخرًا ومتأخرًا جدًّا عن تاريخ تشييد المسجد، وأنه هو وما حوله أو فوقه من القبة المثمنة الأضلاع يرجع تاريخه إلى العهد التركي؟ قلنا: نعم، ذلك صحيح غير أن هذا العهد الذي اعتبرتموه متأخرًا فله من الزمن قرابة ثلاثة قرون، وهذا يكفي في اصطلاح علماء الآثار لكي تشمله قوانين المحافظة على الآثار وتنطبق عليها شرائعها الدولية.

إذ من المتفق عليه في القانون الدولي للآثار أن كل ما صنعته أو صورته أو شيدته أو أوجدته يد الإنسان قبل مائتي سنة يعد أثرًا تاريخيًّا يجب احترامه والحفاظ عليه، بل هناك من الدول من اعتبر أن كل ما سبق القرن الثامن عشر هو مما يطلق عليه اسم الأثر التاريخي وتجري عليه أحكام الآثار وقوانينها المتفق عليها دوليًّا، وبما أن ترميم هذا المحراب وقع في أوائل القرن السابع عشر ونحن اليوم في أواخر القرن العشرين فهو قطعًا أثر تاريخي ولا ريب.

ولترميمه هذا قصة تاريخية هي في نفسها مفيدة تُهم المؤرخ الجزائري بالخصوص، وذلك أنه لما كانت حملة الأسطول الفرنسي على هذه المدينة سنة ١٠٩٤هـ- ١٦٨٣م وكان يقودها (دوكيزن) فأرست تجاه العاصمة ورمتها بقنابلها فسقط منها على المسجد عدة قنابل تسببت في انهيار جدار القبلة بما حواه من المحراب وما اتصل به، وحينئذ نقلت مكتبة الجامع الثرية، فحولت إلى قلعة سلطان سي أو قلعة سي المعروفة ببرج مولاي حسن وكان لوفرة عدد الكتب استغرق نقلها على الدواب مدة ثلاثة أيام بأكملها.

ومن المؤسف أن أكثر هذه النفائس من الكتب قد ضاع ولم يبق منها يوم نزول الفرنسيين بالجزائر سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م سوى نحو الخمسمائة مجلد، وأما اليوم فلا تسأل! فإن هذه الأسفار أصبحت أصفارًا مرصوفة عن الشمال..

ويومئذ تحتم وجوب القيام بإصلاح المحراب وترميم المسجد وهذا أمر ضروري وطبيعي في وقته واستمرت وضعية الجامع على هذا الشكل طيلة ثلاثة قرون مضت لم يتغير فيه شيء -والحمد لله- إلى هذه المدة المتأخرة فجاء من حاول طمس معالمه بهذه القشور من طوابع الجبس المزيفة والزليج المتنافر الحديث الصنع فانمحى عن المحراب رونقه واضمحلت بذلك قيمته الأثرية وتجافى عنه جلال التاريخ وهيبته، وأصبح يحاكي ما استحدث من محاريب المساجد العصرية، فأين المحافظة على التراث يا حماة الحي؟ فإن عملاً كهذا ليُعد طمسًا للتاريخ وتلاعبًا بالآثار فوا أسفاه.

وإذا التفتنا إلى زاوية المسجد الشمالية وجدنا بها أمامنا بناية قائمة عظيمة، تلك هي مئذنة المسجد نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقي، وهي في نفسها مربعة الشكل حسب الطراز الذي جرى عليه المهندسون من مشيدي المساجد بالمغرب والأندلس، ويقرر علماء الآثار أن هذا الشكل من الطراز المربع الذي تقوم عليه المآذن بالمغرب إنما هو مستعار عن الأبراج الأربعة التي كانت قائمة في معبد دمشق قبل أن يُبنى المسجد الأموي بداخله، ولم يبق من هذه الأبراج إلا وحد في الزاوية الجنوبية الغربية وهو مستعمل للأذان.

هذا ولم يكن بمساجد المغرب العربي الكبير طيلة عبر القرون الثلاثة الأولى من الهجرة مآذن سوى مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان فهي أقدم صومعة فيما بقي من المآذن الأثرية، لا في المغرب فحسب بل وحتى في العالم الإسلامي إطلاقًا.

والمظنون: أن مؤسسها هو حسان بن النعمان والي إفريقية من قبل الأمويين (٧٢- ٨٦هـ) (٦٩٢- ٧٠٥م) ويقال: إنها بنيت على عهد هشام بن عبد الملك.

وتاريخ إنشاء المآذن في الإسلام يرجع إلى عهد ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر (٤٧هـ-٦٦٧م) حيث إنه أمر بابتناء منار المسجد العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، فهو أول من أقام للأذان منارًا وابتناه بالمسجد...

وأما المحراب فهو متأخر بعشرات السنين عن تأسيس المئذنة إذ يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فهو أول من أحدث المحراب عند ما أعاد بناء المسجد النبوي بالمدينة المنورة سنة ٨٨هـ- ٧٠٦م.

وترتفع صومعة جامعنا الكبير عن مستوى الأرض إلى علو ١٥ مترا وتنتهي بقبة صغيرة عليها تفافيح ثلاثة من نحاس معصبة شرفاتها العليا بإحاطتها بأربع وعشرين كتفا مثل ما يحيط بأعالي أسوار المسجد، ومزخرفة واجهاتها الأربع من الخارج برسم أقواس ثلاثة على طريق النقش مضرسة مصنوعة باللبن، تتوسطها نافذة للإضاءة من الجهتين؛ أحداهما بالشمال الغربي، والأخرى بالجنوب الشمالي، وهناك فتح يتوسطها بالجنوب الغربي على شكل باب أو مجاز يؤدي إلى سطح المسجد.

وهذه المئذنة متأخرة عن تاريخ تأسيس المجسد بقرنين ونصف، إذ يرجع عهد بنائها إلى أوائل القرن الثامن الهجري أيام الملوك الزيانيين من بني عبد الواد بتلمسان وذلك ما يشهد به النقش المزبور على رخامة بيضاء مثبتة على الجدار القائم عن يمين الآخذ في الصعود إلى المئذنة متصلاً ببابها، وإليك نص النقش المذكور وهو بخط أندلسي مغربي بارز:

(بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، لما تمم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار الجزائر في مدة أولها يوم الأحد السابع عشر من

ذي القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها وكمالها في غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة، نادى المنار المذكور بلسان حاله الحالي:أي منار حاله في الحسن كحالي:

أقــام أمــير المــسلمين تفافحــا	كــساني بهــا حــسنا وتمــم بنيــاني
وقــابلني بــدر الــسماء وقــال لي	عليك سلامي أيها القمــر الثــاني
فــلا منظــر يــسبي النفــوس	ألا فــانظروا حـــسني وبهجــة
فـــزاد إلهـــي رفعـــة لمتممـــي	كـما زاد في شـأني ورفـع أركـاني
ولا زال نــصر الله حــول لوائــه	رفيقًــا لــه تــال وحــسنًا لــه ثــاني

وكثيرًا ما نرى من يشتبه عليه الأول وهلة اسم مؤسس هذا النهار أبي تاشفين الزياني بمؤسس المسجد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ومنهم العلامة الشيخ أبو رأس في كتابه الحلل السندسية، فإنه جعل نفس المسجد من مآثر أبي تاشفين الزياني نفسه فقال في سياق كلامه عن دولة بني زيان: (وأما الجزائر فدخلت في ملكهم أولا، وأن أبا تاشفين منهم لما أباد الثعالبة بنى الجامع الأعظم بالجزائر ونقش اسمه في صومعته).

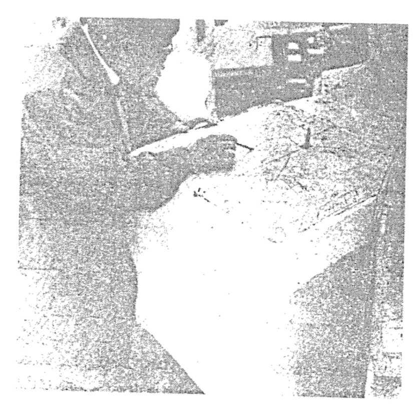
وهذا خطأٌ بيِّن، فشتان ما بين أبي تاشفين وابن تاشفين.

فالأول: وهو مؤسس المنار اسمه أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى، خامس سلاطين بني عبد الواد الملوك الزيانيين بتلمسان، ونودي عليه سلطانًا في الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ٧١٨هـ- ٢٣ جويلية ١٣١٨م، وتوفي سنة ٧٣٧هـ- ١٣٣٧م.

وأما الثاني: وهو مؤسس الجامع الكبير فاسمه يوسف بن تاشفين عاهل دولة المرابطين المتوفى سنة ٥٠٠هـ- ١١٠٦م، وذلك عاصمته تلمسان وهذا عاصمته مراكش، وكان الباعث لهذا الاشتباه هو وجود اسم تاشفين في كلا اسمي الأميرين، وكلاهما كانت له يد في إقامة هذه المؤسسة الجزائرية العظيمة.

ولقد لفتت مساجد المرابطين اهتمام ملوك بني عبد الواد الزيانيين وأذكت مشارعهم وعلى الأخص منها المآذن، فشاركوهم في تشييدها والتنويه بعمارتها، فنرى كلام من المئذنتين القائمتين إلى اليوم بتلمسان وبالجزائر هما من صنع الزيانيين، فمئذنة جامع تلمسان هي من مآثر السلطان يغمراسن بن زيان أول ملوك بني عبد الواد (٦٣٣، ٦٨١هـ) (١٢٣٦- ١٢٨٣م) ومئذنة الجزائر هي من عمل حفيده أبي تاشفين.

كما أننا نجد على سطح المنار مزولة- ساعة شمسية- من رخام أبيض مربعة الشكل تعرف بها الأوقات الزمنية وتضبط بها الأوقات الشرعية بطريق وقع ظل الخيط المرتبط بالقائم على حافة المزولة المنحط ظله على الدرج المنقوشة على سطح المزولة، ولا نشك في أن هذه المزولة وضعت هناك مبنية ببناء الصومعة، وذلك حسبما يرشد إليه تصميم البناء وتخطيط شكل المزولة ووضعيتها في مكانها المختص بها والمهيأ لها من أول يوم، ورغم إهمال استعمال هذه المزولة اليوم فهي لا تزال صالحة للعمل بها والاستفادة منها لوضوح رسومها وبروز نقوشها ولا ينقصها شيء سوى نصب العمود القائم الذي يربط فيه الخيط المتصل بأرضية المزولة، وهذا عمل بسيط لا يستلزم كبير عناء، ويكفي فيه أن يصدر الإذن بالعمل بها ممن بيدهم الأمر بوزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، فتتم الفائدة.



ومن المؤسف أن يبقى عمل فني أثري علمي نافع كهذا مهملاً متروكًا فلا يؤبه به ولا يلتفت إليه، فأين المحافظة على تراث الأجداد، ولا سيما في المجال العلمي والميدان الحضاري والتاريخي (والديني أولاً وبالذات).

وتحمل هذه المزولة كتابة منقوشة بالخط المغربي الأندلسي تشتمل على اسم واضعها وتاريخه ولكنها بسبب تعرضها الطويل لحوادث الطبيعة وتقلبات الجو وتداول تغير أحوال الطقس عليها من حر وقر انمحت تلك النقوش وتعذر على القارئ قراءة ما فيها، وهذا لا يمنع من إمكان استعمالها في ضبط الأوقات الشرعية ومعرفة حصة الليل والنهار وتحديد حركة الشمس في غاية ارتفاعها وشروقها، وغروبها وهي صالحة للعمل بها طيلة السنة على اختلاف الشهور والفصول فلا ينبغي أن تكون مهجورة.

ولقد عرف التاريخ العمل بهذه المزاول الشمسية منذ أحقاب فأثبت لنا وجود مثل هذه الآلة الزوالية منذ عهد الحضارة المصرية القديمة وأقدم مزولة

عثر عليها بأرض مصر يرجع تاريخها إلى سنة ١٥٠٠ ق.م والقول الفصل في اختراع المزولة هو أثر علمي بابلي.

وأما ما يحيط بالمنار من زخرفة الزليج الأزرق والأبيض كالعصابة فهو مما أدخل عليه حديثًا، أي: منذ عهد أوائل الاحتلال فقط، إذ يعود وضعه هناك إلى جماعة من فرقة جيش (الجيني) من الجند الفرنسي الذي كان يحتل مخابئ ودهاليز الجامع فهؤلاء هم الذين اشتغلوا بتعصيب المنار بهذا الزليج سنة ١٢٧٢هـ- ١٨٥٦م.

كما أنه يوجد بداخل المنار هذا حجرتان مستطيلتان أولاهما بقرب مدخل المنار عن الشمال والثانية في آخر لوية من حلزون الدرج قبل الأخذ في الصعود على السلم الأخير للتوصل إلى سطح المنار، ولا شك أن لهاتين الحجرتين من وظيفة تقومان بها أقلها وقاية المؤذنين من أذى الحر والقر وأضرار الرياح والأمطار الغزيرة أيام اشتداد الطبيعة كما أنهما في آن واحد تصلحان للانقطاع فيهما للعبادة والتبتل أو للدرس والتأمل.

وإذا ما شئنا التعمق في استكمال دراسة فن المعمار عند المرابطين في تشييد الصوامع والمآذن أو المنارات فلننتقل إلى أرض الأندلس لندرس ما تركته لنا نكبات الدهر وصروفه هناك من ذلك البرج الوحيد الذي بقي قائمًا بغرناطة وهو المعروف باسم (سان خوسي) وهو منار مسجد كان معروفًا باسم (جامع المرابطين) والجامع هذا محطم اليوم وبنيت مكانه كنيسة، ولم يبق منه إلا هذا البرج المستعمل اليوم للأجراس، فإن صحت نسبته إلى المرابطين فهو آخر منار بقي على وجه الأرض منسوبًا إلى هذه الدولة؟... وهو مربع الشكل طول ضلعه ٣.٨٥ ويدور درجه حول محور سمكة ٠.٤١م ونظام البناء فيه يقوم على نوع من القطع الحجرية المهذبة ملتصقة فيما بينها بالجص، ونصفه الأعلى

منسوج بالآجر وينفذ من طاقات صغيرة ضوء خفيف، وتنفتح نحو الجنوب نافذة كبرى في صورة عقد على شكل حدوة الفرس مع امتداد يتجاوز نصف القطر... وهذا في الحقيقة وحده غير كاف لإعطاء فكرة في الموضوع.

ومن طريف التحف الفنية التي نجدها موضوعة على نشز مرتفع بسطح هذه المئذنة ذلك النبراس الفخم الجميل الصنع والوضع، المستعمل للإعلام بدخول أوقات الصلاة الليلية وفي ليالي رمضان ليرى ضوءه مؤذنو مساجد العاصمة من أعلى الصوامع فيشرعوا في الأذان، وذلك لأن لهذا الجامع فضل على غيره من حيث وجود آلة المزولة به وعليها المعول في ضبط الأوقات الشرعية؛ فلذلك يعتمده مؤذنو المساجد كعلامة أو إشارة تصدر من مؤقت الجامع أو باش مؤقت ليتحققوا من دخول الوقت.

لقد كان مكان هذا النبراس منذ العهد التركي موجودًا بأعلى المنار بميناء العاصمة القديم حيث مركز الأميرالية والإدارة البحرية يستعمل لهداية السفن في ظلمات الليل والبحر إلى موقع المدينة ومكان المرفأ، ثم استغني عنه إذ ذاك بصنع ما هو أضخم وأفخم، وحينئذ جيء به إلى مكانه هذا الموجود به الآن، وهو مصنوع من نحاس أحمر وبرنز ولطول العهد تغير لونه إلا ما يقرب السواد.

وكيفما دخلنا إلى هذا المسجد ومن أي باب من أبوابه أتيناه قابلنا فناؤه وهو مربع تقريبًا تشتمل مساحته على نحو ٢٠٠ مترًا وبه قبتان تظلان ميضاءتين للوضوء، إحداهما عن يمين باب الفوارة-النافورة- والثانية عن الشمال، وهما وإن كانتا متاشبهتين في شكلهما ومظهرهما فهما في الحقيقة والواقع مختلفتان تمامًا من حيث التاريخ والصنع والمادة التي يقوم عليها حوض الوضوء وما أحاط به.

فالأصلية القديمة هي التي عن يمين الباب، وحوضها هو قطعة واحدة من خالص الرخام الأبيض وقاعته مزخرفة بنقوش منحوتة فيها، ويرجع عهدها إلى العهد التركي حسبما تهدي إليه قواعد الفن.

وأما الأخرى فهي مستحدثة أخيرًا فقط، قلد في وضعها وشكلها النافورة الأولى، وتاريخها لا يزيد عن بضع سنوات مضت ومادة حوضها من الأسمنت، زيدت للحاجة إليها كما زيدت في هذه الأيام الحنفيات الموجودة عند مدخل باب الجنينة.

وعلى ذكرنا لباب الفوارة الذي هو أحد أبواب الجامع نقول: بأنه كان لهذا المسجد يوم تأسيسه ستة أبواب رئيسية مصارعها من الخشب الرفيع، أربعة منها بشماله الغربي واثنان بشماله الشرقي وعليها طاق من الرخام الأبيض ولكل منها اسم يعرف به.

فأولها بالنسبة للقادم من ساحة الشهداء وهي الناحية الجنوبية الغربية للمسجد يعرف (بباب الجنينة) وهو أشهر الأبواب اليوم وأكثرها استعمالاً.

ويليه باب (البواقل) ولفظة بواقل هي جمع (بوقال) مؤنثه (بوقالة) آنية تصنع من فخار للشرب وأصل الكلمة لاتيني استعمله العجم والأتراك، وشاع استعماله في اللغة العامية بالجزائر، وسبب إضافة هذا الباب إلى البواقل هو ما كان به مصطفًا من أواني الشرب العمومية.

ثم يلي هذا الباب (باب الفوارة- النافورة) وهذا الباب يزيد على غيره من بقية أبواب المسجد بمصراعين كبيرين من الداخل، وهما من الخشب المنقوش المزخرف بخطوط مشتبكة، من نوع التشبيكات السداسية والثمانية، والأشكال

الهندسية المتعددة الأضلاع مما نجد مثله بمصراعي جامع العباد المريني يستعمل ولا يفتح، مكتوب على طاقة في أعلاه بالخط النسخي المريني بهذا المسجد، كما أشار إليه ابن مرزوق الخطيب في مسنده ومما يؤكد لنا هذا المعنى شدة الشبه بين هذين المصراعين ومصراعي النحاس اللذين هما موجودان بمسجد العباد الذي هو من مآثر السلطان.

كما أننا نجد ما بين باب البواقل وباب الفوارة بابًا آخر منسدًّا بمصراعيه لا يستعمل ولا يفتح، مكتوب على طاقة في أعلاه بالخط النسخي المشتبك هذه الآية الكريمة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧].

ثم يلي هذا الباب (باب الصومعة) وهو قريب من المئذنة.

وبالناحية الشمالية الشرقية نجد (باب الطحطاحة) أي: البطحاء (وباب الجنائز) وكلاهما منسد اليوم واستعملوا باب الفوارة مكان باب الجنائز.

وفي مكان باب الجنائز أقيمت مقصورة للباش حزاب-رئيس القراء- ويقابل هذين البابين من الناحية الجنوبية الغربية مدخلان يؤديان إلى الصحن المحيط بالمسجد من الجنوب الغربي مدخلان يؤديان إلى الصحن المحيط بالمسجد من الجنوب الغربي إلى الشرق ومثلهما مدخلان آخران في جدار القبة، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال وقد زيد اليوم بينهما مجاز ثالث قرب مقصورة الخطيب، ينفذ إلى الشارع الكبير، وكلها تؤدي إلى الصحن المذكور.

وهذا الصحن موضوع فوق أقبية كانت تستعمل في مصالح البحرية لحماية المدينة بحرًا فحطمت من أثر ما تسلط على الجزائر وما واجهته من حروب بحرية، فبهذا الاعتبار نستطيع أن نطلق على هذه المؤسسة الإسلامية الكبيرة اسم الرباط، فهو في آن واحد مسجد جامع ورباط.

ثم إن هذا الشباك الموجود اليوم من فوق السور الموازي لهذا الصحن الخارجي عن مدار القبلة ليس هو بالأصيل، وإنما اتخذ زينة لهذه الواجهة يوم زيارة رئيس الجمهوريةالفرنسية (لوبي) للجزائر في أبريل سنة ١٩٠٣م-١٣٢١هـ ومثله في ذلك ما نجده بالواجهة الشمالية الغربية من ذلك الرواق الجميل ذي الستة عشر قوسًا مرفوعة فوق سواري غليظة من الرخام الأبيض المزخرف فإنه أيضًا مستحدث في أواسط القرن الثالث عشر الهجري (١٢٥٢هـ- ١٨٣٧م).

أي: عندما حطم جامع السيدة وهو بجواره جيء بهذه السواري ومعها كذلك الحوض المرمرمي الأسود الذي يتوسطها فوضعت بهذا المكان وفرشت أرضيته بالفسيفساء، وقد كان هذا الحوض كما أدركناه مشتملاً على ثلاثة أحواض فسقط منها أعلاها وأهمل شأنه فأتلفت قطعه وذهبت أدراج الرياح حيث لم يكن هناك من يأبه له أو يعتني بشأنه.

دشن هذا الرواق في ديسمبر ١٨٣٧م وكان ذلك بمحضر البرانس الفرنسي (دونومور) وجيء يوم تدشينه بمجموعة من مسكوكات متنوعة لهذه الدولة من ذهب وفضة وبرونز من ضرب سنة ١٨٣٦م وأضيف إليها صورة الملك (لويس الأول) وحرر في ذلك عرض حال أو محضر مفصل باللغتين العربية والفرنسية وجعل الكل في جرة دفنت تحت سارية من بين هذه السواري القائمة وبقيت مجهولة إلى اليوم، ونذكر من بين أنقاض جامع السيدة هذا المنبر الرخامي الجميل القائم اليوم بالجامع الجديد ومنبره الأصلي هو المستعمل إلى اليوم كسلم يصعد عليه إلى سدة القراء والمرتلين بوسط المسجد.

على أن هناك من يذكر وأنه قد سبق لهذه الواجهة الشمالية الغربية من الجامع الكبير أن لحقتها ترميمات وإصلاحات متعددة بسبب ما تسلط على المسجد من وقع قنابل الأعداء عندما كثر غزو الأجانب واعتداؤهم على الجزائر، ولا سيما سنة ١٦٨٢، ١٦٨٨، ١٧٣٢م.

ومما يشتمل عليه هذا المسجد من عناصر العمارة الإسلامية عنصر آخر مميز للفن الإسلامي، ألا وهو بناية القبة.

فالقبة عرفها المسلمون منذ أن أقام عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بالقدس الشريف (٧٢هـ- ٦٩١م) وكانت معروفة من قبل عند البيزانطيين والرومان، وفي مسجدنا هذا نجد ستة قبب؛ أربعة بداخله، واثنتان بخارجه.

أولها قبة المحراب المثمنة الأضلاع ومثلها قبة مقصورة المؤذنين، وهما لا شك من العهد التركي ذلك لأنقبة المرابطين الموجودة بجامع تلمسان تخالفهما تمامًا؛ فلذلك أنا لا أتردد في إقصائها عن الطراز المرابطي وكذلك قبة النافورة أو الفوارة القديمة التي بفناء المسجد فهي كذلك لا تعاصر المسجد، أما الأخرى التي بجانبها فقد قدمنا الكلام عنها وأنها أحدثت أخيرًا فقط، وأما ما بخارجه فقبة مقصورة المفتي وقبة المحكمة وأقدمهما قبة المقصورة وهي تركية أيضًا أما الأخرى فحديثة كما ذكرناه.

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما خلف جدار القبة وراء المحراب من تلك الحجرة المستطيلة الشكل ذات البابين أو المدخلين: باب داخل المسجد عن شمال المحراب ومنه يدخل الخطيب يوم الجمعة وفي العيدين جعل تفاديا من تخطي الرقاب، وباب خارجي يؤدي إلى الصحن المحيط بالجامع، وإذا نظرنا إلى تصميم هذه الحجرة وجدناه أصيلاً في تشييد الجامع وبناية هيكله منذ تأسيسه،

فسقف الحجرة منبسط من خشب يعلوه سطح من الجص على غزار سقف منازل دور حي القصبة بأعلى المدينة وكذلك جميع جوانب الحجرة.

وبناء مثل هذه الحجر الملاصقة لجدار قبلة المسجد ليس بالأمر الجديد في تاريخ عمارة المساجد وبخاصة مساجد صدر الإسلام، فهذه دار الإمارة التي بناها سعد بن أبي وقاص بجامع الكوفة ١٧هـ فإنه بناها خلف جدار القبلة ملاصقة للمسجد.

وكذلك ما صنعه زياد بمسجد البصرة ٥٣هـ، ومنه ما أمر به معاوية بن أبي سفيان من اتخاذ المقاصر بالمساجد لما طعنه البرك بن عبد الله بسيفه، وهذا ما كان قد أمر به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه من قبل، خشية أن يقع له مثل ما وقع للخليفة قبله.

هذا وإننا مع هذه البسطة التي قدمناها عن تاريخ الجامع الكبير من ناحية المعمار والتاريخ فإننا مع ذلك مدينون إلى ما يحتوي عليه من الأثاث الرفيع وأهم ما هناك كله منبره، فهو ياقوتته الوهاجة والزمردة اليتيمية في هذا الجامع ذلك المنبر الفخم المسدول عليه حجاب حجرته الخاصة به الكائنة عن يمين المحراب.

إن هذا المنبر اليوم يعد ذخيرة من أنفس الذخائر التي تركها لنا الأجداد وتحفة جليلة مقدسة ورثناها عن الآباء، فهو أقدم منابر الإسلام باستثناء منبر جامع القيروان ولا يعلم له نظير سوى ما بجامع القرويين بفاس وما أشبهه من منبر جامع الكتبيين بمراكش، ولا يعاصره إلا هذه الأجزاء المتفرقة من منبر جامع ندرومة الموجود بعضها اليوم بالمتحف الوطني للآثار بالعاصمة، ويرجع تاريخ منبر الجامع الكبير هذا إلى أوائل القرن الخامس الهجري حسب ما هو

مزبور بالنقش البارز وبالخط الكوفي المتشابك على خشبتي جانبي مدخله وبأعلاه أيضًا ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم
تم هذا المنبر يوم فاتح رجب
من سنة (سبع وأربعمائة)
(عمل محمد)

وكان لطول العهد وتراكم الأصباغ عليه واختلاف مواد الصبغة وتنوع ألوانها مع عدم الاعتناء التام وقلة المبالاة بشأنه أن لحق بهذا النقش بعض الغموض على كثير من علماء الآثار وغيرهم في قراءة كلمة (سبع) الواردة في النص، فمنهم من قرأها سبع بالباء الموحدة بعد السين، ومنهم من قرأها بالتاء المثناة من فوق قبل السين، ومنهم من قرأها تسعين أو سبعين وكيفما كان الأمر فلا يخرج تاريخ المنبر هذا عن القرن الخامس الهجري، سواء أكان ذلك في أوائل القرن أم في أواخره، وجزم العلامة الأثري (مانوويل جوميث مورينو) بأنه سنة تسعين ١٠٩٧م وجعله من مآثر يوسف بن تاشفين نفسه حيث قال: (وأول عمل فني قام به يوسف بن تاشفين فيما نعلم منبر المسجد الجامع بالجزائر...) نرجو ممن بيدهم الأمر أن يعتنوا بهذه الدرة الثمينة حتى لا يلقاها أذى أو يتسرع إليها البلى.

والمنبر هذا مصنوع من خشب الأرز الصلب وأجزاؤه تناهز ١٢٠ قطعة وبسبب التآكل والفناء لم يبق منها إلا نحو ٤٨ قطعة أصيلة موضوعة في إطار ما بين مربع ومثلث ومنحرف وكل ما عداها فهو مما استحدث في ترميمه، وكما توجد بعض القطع منه بالمتحف الوطني للآثار بالعاصمة وقوام زخرفتها

ترجع إلى نوع (الأرابيسك) أي: حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة مزينة بخرص من الزهيرات وأشجار منحوتة تمثل نبات أوراق الكرم والأقنثا وتزاويق ملونة في أسلوب مغربي أندلسي محض لا شائبة فيه لفن أجنبي أو حضارة أخرى أجنبية عنه أبدًا، وهو ما يذكرنا بها عليه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وما نجده أيضًا في قصبة ملقة من أرض الأندلس، وكل هذه الحشوات وكلها مغروزة في المنبر ومنقوشة بكيفية بنائية تخالها ركيزة للمنبر، وهو بمظهره وفي زخرفته هذه يمثل لنا الفترة الانتقاليةالتي تربط المشرق بالمغرب.

وتتميًا للفائدة واستكمالاً لتاريخ هذا المسجد نذكر على سبيل الإجمال ما كان به من السدنة والموظفين، فلقد كان يبلغ عددهم سبعة وستين موظفًا وهم كما يلي: مفتي وإمامان، وتسعة عشر مدرسًا، وثمانية عشر مؤذنًا وثمانية حزابين-قراء- وأربعة رجال الحضور- لسرد صحيح البخاري- وثلاثة وكلاء نظرًا لما كان له من الأوقاف والأحباس الكثيرة، وثمانية منظفين،وثلاثة موقدي المصابيح وواحد لحمل عصا الخطيب.

وبهذا المسجد كان ينعقد المجلس الشرعي الأعلى للنظر في النوازل والأحكام الشرعية التي تجري بين يدي القضاة وإعادة النظر فيها، وأعضاؤه سبعة: رئيس، وهو المفتي الحنفي وكانت الرئاسة لهذا باعتباره أنه يمثل مذهب الحكومة التركية، والمفتي المالكي، والقاضيان الحنفي والمالكي وباش عادل، وعدل كاتب، ورجل آخر يمثل السلطة الحاكمة.

ولقد حمل هذا المسجد رسالة الإسلام قرابة ألف سنة فتخرج منه جمهور من العلماء والأدباء وأنصار دين الله وحماة الحق وذادته، حملوا مشعل الثقافة

الإسلامية بهذه الديار، وكانوا بذلك خير سلف لهذا الخلف، وما أجدر بهذا الخلف أن يعمل على ضوء قول القائل:

نبنـــي كـــما كانـــت أوائلنـــا   تبني (ونصنع فوق مـا صـنعوا)

عبد الرحمن الجيلالي

مراجع البحث:

١- تاريخ الجزائر العام ج١، عبد الرحمن الجيلالي الجزائر ١٩٧١م.

٢- الترجمانة الكبرى للزياني، ط. المغرب الأقصى، ١٩٦٧م.

٣- تعريف الخلف، لأبي القاسم الحفناوي، ج٢، ط. الجزائر ١٣٢٤هـ.

٤- المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، ط. الجزائر ١٨٥٧م.

٥- الفن الإسلامي في أسبانيا، (معرب) مانويل جوميث مورينو ط. القاهرة.

- La revue Africaine - Tome 10- 1866- P. 221, 286, 371

- Tome 19- Année - 1875- P. 522.

- G. Marçis: Manuel d 'Art Musulman - 1- P. 306, PARIS 1926.

- H. Klein – Feuillet d'El-Djezair – P. 25 – Alger 1912.

م. ابن أبي شنب

الجزائر[1]

الجزائر مدينة معروفة مشهورة وهي مبنية على خرب مدينة فينيقية، ثم رومانية اسمها أيقوسيم (ICOSIUM) وقد ذكر أبو عبيد البكري بقايا آثارها كما سيأتي:

قال ابن خلدون في العبر (ط. بولاق ج٦، ص١٥٤ و ط. الجزائر ١٢٦٣هـ- ١٨٤٧م ص١٩٧) ثم اختط ابنه بلكين بأمره (أي: بأمر أبيه زيري بن مناد الصنهاجي المتوفى في رمضان سنة ٣٦٠هـ) وعلى عهده مدينة الجزائر المنسبة لبني مزغنة بساحل البحر.

وذكر ابن غذاري في كتاب البيان، المغرب (ط. ليدن ١٨٤٨- ١٨٥١ ج٢ ص٣٣١): أنه في ١٥ رمضان سنة ٣٣٧ قد وصل إلى الخليفة الناصر وهو بقصر الزهراء بقرب قرطبة منصور وأبو العيش ابنا أبي العافية ومعهما حمزة بن إبراهيم صاحب جزائر بني مزغني.

وذكر جزائر بني مزغنى ووصفها ابن حوقل وهو من علماء القرن الرابع في كتاب المسالك والمالك (ط. ليدن ١٨٧٣م ص٤٢، ٥١، ٥٢).

---

(١) نشر هذا البحث -أولا- بمجلة المجمع العلمي العربي الصادرة بدمشق في رمضان ١٣٤٧هـ -١٩٢٩م ونقلته عنها مجلة الشهاب القسنطينية جـ٨ -م٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ -سبتمبر ١٩٢٩.

وقال المقدسي المتوفى سنة ٣٧٥هـ في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ط. ليدن ١٩٠٦م ص٢٨): وجزيرة بني زغناية، وتعقبه طابعه في حاشيته أن هذا السلام ورد في النسخ المخطوطات بصورة مزغنان ومزغناي ومزغنة ومزغني وزغناي وزغناية وزغني، وقال لفظ (مز) معناها بنو.

وقال المقدسي أيضًا (في ص٢١٧، ٢٢٨): وجزيرة بني زغناية على ساحل البحر وفي صفحة (٢٤٦): جزيرة زغناي.

وقال الأسطخري وهو من علماء القرن الرابع في كتاب مسالك الممالك (ط. ليدن ١٩٢٧م ص٣٧، ٣٨): وجزيرة بني مزغنا مدينة عامرة يحف بها طوائف من البربر وذكرها أيضًا في ص٣٩، ٤٦.

وقال أبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ في المسالك والممالك (ط. الجزائر ١٩١١ ص٦٥، ٦٦): مدينة جزائر بني مزغني هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار الأول وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصورة ومرساها مأمون وله عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من أفريقية والأندلس وغيرهما.

وقال أيضًا (في ص٨٢): مرسى الجزائر وتعرف بجزائر بني مزغني وقد تقدم ذكر مدينتها وهو مرسى مأمون مشتى بين جزيرة سطفلة من الشرق إلى الغرب وبين البر.

وقال الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٤٨ في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: (ط. ليدن ١٨٦٤ ص٥٦): وجزائر بني مزغنا و(ص ٨٩) الجزائر لبني مزغنا ومدينة الجزائر على ضفة البحر، وذكرها أيضًا في ص١٠١.

وذكرها ابن بشكوال في كتاب الصلة (ط. مجريط ١٨٨٣ ص٤٦٥ عدد ١٠١٩) في ترجمة قاسم بن موسى الضني (بالنون) أن مولده في جزائر بني زغني.

وقال ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجم البلدان (ط. مصر ١٣٢٤هـ ج٣ ص٩٣): الجزائر جمع جزيرة، اسم علم لمدين على ضفة البحر بين أفريقية والمغرب، بينها وبين بجاية أربعة أيام من خواص بلاد بني حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي، وتعرف بجزائر بني مزغناي، وربما قيل لها: جزيرة بني مزغناي، ثم أورد كلام أبي عبيد البكري.

وقال أبو الفداء المتوفى سنة ٧٢٢ في كتاب تقويم البلدان (ط. باريس ١٨٤٠ ص٢٧) يصف بحر الروم ثم يأخذ مشرقًا بميلة إلى الشمال حتى يصير عند الجزائر فرضة بجاية.

وقال أيضًا (ص١٢٥): قال الأدريسي: ومدينة جزائر بني مزغنان على ضفة البحر... ومن الجزائر إلى مرسي الدجاج ٣٨ ميلاً.

وقال (ص١٢٦): وفي شرقي مستغانم مدينة يقال لها: جزائر بني مزغنان فرضة مشهورة من عمل بجاية، وقال (ص١٣٧): وغربي بجاية، جزائر بني مزغنان وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية وجزائر بني مزغنان، حيث الطول س ح، والعرض لح ل، والجزائر معروفة ومزغنان بفتح الميم وسكون

الزاي وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهما ألف، الأولى مشددة عن الشيخ شعيب. اهـ.

هل بقي شك بعد هذه النصوص في أن الجزائر جمع جزيرة؟

هذا وأن بني مزغني المنسوب إليهم قبيلة من قبائل البربر لا زالت إلى يومنا هذا بقية منها متوطنة بأرض واقعة شرقي مدينة الجزائر وتبعد عنها بنحو ٨٠ كيلو مترا، وهذا الوطن متأخم طريق السكة الحديدية الممتدة بين الجزائر وقسطنطينة.

وأما حذف المضاف إليه وتحلية المضاف بأداة التعريف فهذا أمر مشهور في لغة العرب، أما يقال البيت والمراد بيت الله الحرام، والمدينة، والمقصود مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى هذا المنحى ابن مالك في ألفيته:

وقد يصير علما بالغلبة ... مضاف أومصحوب آل كالعقبة

واستشهد على ذلك بقول ضابيء البرجمي:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فأني وقيار بها لغريب

قد مر في النقول المذكورة آنفًا أن بعضهم يقول جزيرة، وبعضهم جزائر، وذلك أن عند إتيان الأتراك إلى هذه المدينة كانت جزيرة كبيرة وثلاث جزيرات صغار متجاورة أمام المرسى القديم، وكان بني الأسبانيون حصنًا كبيرًا وسموه: البنيونش.

ولما استولى خير الدين باشا أخو عروج في ٢٨ رمضان سنة ٩٣٦هـ هدمه وردم ما بين الأربع الجزيرات والبر، فكان رصيف طوله ٢٢٠ متر وعرضه ٢٥

مترًا وعلوه أربعة أمتار، وكانت هذه الجزيرات تتصل بها سلسلة صخور لا تظهر على وجه الماء إلا إذا كان البحر رهوًا، وزيادة على ذلك كانت جزيرة صغيرة بعيدة ومنفردة عن تلك الجزيرات والصحور قد رأيتها، ولكن سطحت الآن وردم ما بينها وبين رصيف الميناء الحالي.

وأما برج الفنار المثمن الشكل فبناه حسن باشا ابن خير الدين باشا، ولا يزال على حاله إلى يومنا هذا.

وفي ظني أن جزيرة سطفلة التي ذكرها البكري هي الجزيرة الكبيرة التي بني فيها البنيونش.

وأما إطلاق لفظة الجزائر على القطر فمن باب استعمال الخاص وإرادة العام، وأظن أن الأتراك هم الذين استعملوا هذا أولاً بقولهم (جزائر أوجاغي) وأما في القديم فلا أعرف إلا قولهم: المغرب الأوسط وحدوده هي حدود القطر الجزائري تقريبًا.

وأما ما شوهد من كتابة (ضرب في جزئر) على(سكة) فحذف أداةالتعريف يحتمل:

١- أن يكون لصعوبة نقشها.

٢- أو للاعتماد على عدم وجود أداة في اللغة التركية مثل (الـ) وإنما يستعملون أسماء الإشارة مثل (بو، وثو، أو أول).

٣- أو اعتباطًا كما حذفت في العيوق في قولهم: هذا عيوق طالعًا، وقد أشار إلى ذلك ابن مالك في ألفيته بقوله:

وحذف أل ذي أن تناد أو تضف أوجب وفي غيرهما قد تنحذف

واستشهد بقول الشاعر:

إذا دبران منك يومًا لقيته أؤمل أن ألقاك غدوًا بأسعد

وأما قول القائل مستنتجًا من (ضرب في جزائر): أن الترك كانوا ينفون إلى بلاد الجزائر بعض من يغضبون عليهم أو يرتكبون جرائر، فأطلقوا على ما يظهر اسم (جزائر)[1] بمعنى (أرض الجزاء) على هذه الديار... إلخ.

أقول سبحان الله وأستغفر الله، هذا العالم العربي الجزائري أظنه من (أصحاب القهوة المرة) بفتح الميم وترقيق الراء كما يقولون هنا.

وكيف يصح هذا القول وصفحات التاريخ شاهدة والأقوال الصحيحة متواترة متواردة، نعم كان في الأتراك أو المنسوبين إليهم الذين أتوا إلى هذاالوطن من بين من تخير العطون أوتحرى الظعن الصالح والطالح والولي والحميم والداني الذميم والعالم الجليل والبطل النبيل، فمدن الجميع هذا الوطن، وأنقذه من الوهن وأسس الإدارات وأمن الطرقات وبنى القناطر وحمى المسافر، وشهد له بالتنظيم الأعداء، وسطروه في تواريخهم آباء وأبناء، وإنما أخنى عليهم الذي أخنى على لبد، ولم يبق على أحد.

ولما كنت لا أعرف لغة الأتراك حرت في هذا الارتباك، فهل يصح ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ في هذه اللغة تركيب كلمة من لفظة (جزاء) ولفظة (ير) أو (يير) بمعنى أرض قياسًا على (مبارك ير) أي: أرض مباركة.

---

(١) يعني: أن أصلعًا (جزا) جزاء (ير) أرض بالتركية.

وهل (جزائر) بمعنى أرض الجزاء أو أرض النفي مستعمل في المحاورات والخطابات والكتابات عند الخاصة والعامة؟ فإن أجب بنعم، فيكون من باب التوارد مع بعده عن التاريخ، والله ولي التوفيق.

محمد بن أبي شنب

نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر[١]

جغرافيتها

الجزائر مدينة عظيمة على ضفة البحر المتوسط في الجانب الغربي من الجون المسمى باسمها وهي واقعة في الدرجة ٣٦ و٤٧ دقيقة و٢٠ ثانية من العرض الشمالي و٤٤ دقيقة و١٠ ثوان من طول باريس الشرقي.

هذه المدينة بمنية في سفح جبل أبي زريعة ممتدة على ساحل البحر محفوفة من جهة البر ببساتين يانعة، ورياض ساطعة، في وسطها قصور أنيقة وصروح عتيقة، وإذا أتيتها من البحر كأنها جناح برنس أبيض قد نشر على بساط أخضر.

ثم تشاهد بناء متراكمًا في منحدر يقابل المشرق وفي أسفله برج الفنار وفي أعلاه قاعة مبنية تسمى القصبة، وإذا قربت من المرسى تعاين موازيا للبحر شارعًا واسعًا فوق الرصيف واسطوانات عديدة طبقة فوق طبقة عليها طلعات إلى فسحة الدولة، كان ذلك أساس أو تبليطة للبلد وهذا المنظر العجيب لا ثاني له على وجه الثاد[٢].

---

(١) نشر هذا البحث أولاً في القسم التاريخي من التقويم الجزائري لسنة ١٣٣٠هـ- ١٩١٢م، وهو مدرج في كتابنا (ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب) ط الجزائر ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م.

(٢) الثرى.

والمدينة في وقتنا هذا تنقسم طبيعيًا إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم القصبة ويسمى عند الوطنيين بالجبل وهو أعلى المدينة، وبه دور المسلمين وأزقته منحدرة ضيقة غير مستقيمة ذات درجات أو دركات لا يستطيع الراكب سلوكها.

٢- حارة الفر نج وهي وقاعة بين الجبل والمرسى، يقسمها طولاً من الشمال إلى الجنوب شارعان واسعان متوازيان قليلاً، محفوفة بأبنية جميلة ذات أروقة بهية وفي وسط هذه الحارة الفسحة المشهورة عند الوطنيين بفسحة الفرس(ساحة الشهداء اليوم) لوجود تمثال (الدوق دورليان) أحد قواد الجيش الفرنسي الذي استولى على هذا الوطن الجزائري، وكان هذا القائد من دار الملك بفرنسا.

٣- قسم مصطفى وعند الوطنيين مصطفى باشا، سمي باسم أحد البشوات المتقدمين في مدة الأتراك قد كان شاد قصرًا ملوكيًا لا زال إلى يومنا هذا وهو الذي يسكنه سمو والي الجزائرية العام في أيام الصيف، وأكثر دور هذا القسم وسط بساتين يحتلها الأغنياء من الإفرنج القاطنين، ومن الأجانب الذين يأتون في فصل الشتاء فرارًا من برد بلادهم الشديدة.

وأما أهميتها السياسية فإنها عاصمة البلاد المنسوبة إليها، ومقر وليها العام؛ ومجلس الدولة والمجلس الأعلى ومجتمع النيابات المالية، ومقام قائد الجيش التاسع عشر ورؤساء الإدارات الشرعية وغيرها من الإدارات الدولية المختلفة الأصول والفروع ما بين عسكرية وبحرية ومدنية.

وأما ما يخص المسلمين ففيها أربعة مساجد: خطبة المسجد الأعظم وبه يخطب مفتي السادات المالكية، والمسجد الجديد وبه يخطب مفتي السادات الحنفية وهذان المسجدان في حارة الفرنج بقرب من (فسحة الفرس) ساحة الشهداء من جهة الشمال، وجامع سفير للسادات الحنفية وسط الجبل، ومسجد سيدي رمضان كذلك في الجبل وهو أقدم الأربعة ثم ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي وهو في شمال البلد، وبينه وبين الشارع الذي يقسم حارة الفرنج طولاً بستان مارنقو وهو من أبهى وأبهج منظرًا مما في الجزائر.

وما عدا الكتاتيب، فلأبناء الوطنيين المسلمين مدرسة دولية واقعة حذاء ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي سميت (المدرسة الثعالبية) يدخلها بعد مبارات كل من حاز إجازة المدارس الابتدائية الفرنسية وكان له إلمام باللغة العربية، وسنه بين ١٥ و٢٠ سنة، والمجاز بحسب إجازته، يسوغ له أن يدخل في المحاكم الشرعية الإسلامية، وبعض وظائف إدارة الداخلية، ولا سيما الترجمة لدى حكام البلدان الممتزجة.

وأما تجارة الوطنيين وصنائعهم فهي قليلة جدًا تكاد لا تذكر بالنسبة للتي يتعاطاها الفرنج واليهود، فليس لهم معامل شهيرة ولا مراكب بحرية، لا قليلة ولا كثيرة، قصاراهم صناعة الأحذية، والأنسجة الحريرية الوطنية، ولا يوجد في القطر الجزائري مع طوله وعرضه إلا مطبعة عربية في هذا البلد صاحبها ومستخدموها وطنيون[1].

---

(١) كل ما ذكر في هذه الفقرة الثالثة مما أورده الكاتب من تفصيل في شأن الحياة العامة بعاصمة الجزائر، إنما ذكره بحسب ما كان عليه الأمر على عهده رحمه الله، وقد صدر المقال سنة ١٣٣٠هـ- ١٩١٢م، وهي أيام استفحل فيها طغيان الاستعمار على البلاد، أما اليوم وقد انقضى ذلك العصر البائد وتخلصت الجزائر من سيطرته فكل شيء تغير وتطور إلى ما تقربه العيون وتنشرح له الصدور، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا.

تاريخها

بنى الجزائر أصحاب هرقل الليبي، وكانوا عشرين نفرًا، ومن حديثهم أنهم غادروا جيش هذا القائد ورحلوا إلى الموضع الذي سمي فيما بعد إقسيوم (بكسر الهمزة وضم القاف وسكون السين بعده ياء مثناة تحت مضمومة ثم واو ساكنة وميم؛ أي: مدينة العشرين) باسم عدد الأصحاب وهو إيقوسي (أي: عشرون) ولما أتى الرومان صحفوا هذه اللفظة اليونانية وسبكوها في قالب لاتيني.

ولما استولى الرومانيون على هذا القطر صارت مدينة إقسيوم تابعة لعمالة مورتانية (بكسر الراء) القيصرية، ولا زالت إلى يومنا بعض الآثار الرومانية، ومما يستدل على كبر هذه المدينة في زمان الرومان ما قاله أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والمهالك الذي أتمه قرب سنة ٤٦٠هـ أنها: (قديمة البنيان فيها آثار للأول وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون وكانت بمدينة بني مزغنا كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشر ق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين، مفصص، كثير النقش والصور).

وعند انقراض مملكة الرومان باستيلاء الوندلس أو الأندلس،، اقتطعها رئيس منهم ثم خربها ودمرها، وبعد حين أرجعت إلى ما كانت عليه من النمو والعمران، وكان المستولي عليها عند قدوم العرب، قبيلة بني مزغناي أو مزغنا (بفتح الميم فيها وسكون الزاي وفتح الغين المعجمة وتشديد النون بعدها ألف) وبنو مزغنا فخذ من صنهاجة.

وإننا نجهل متى فتح المسلمون هذه المدينة، ومتى أسلم أهلها إلا أننا نعلم أنها كانت شبه خراب عندما اختطها بلقين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي نحو سنة ٣٦٧هـ وكانت من خواص بلاد بني حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي، وهذا التاريخ ينقضه ما أورده صاحب كتاب بيان المغرب أنه في ١٥ محرم سنة ٣٣٧هـ اجتمع الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد الخليفة الأموي في مدينة قرطبة وفي قصره الزهراء، بأناس من جملتهم حمزة بن إبراهيم صاحب جزائر بني مزغنا.

وأضافها إلى ملكهم بنو حماد أصحاب القلعة المشهورة في وقت المعز بن باديس، ولا زالت تحت يدهم مدة محسن بن المعز والناصر بن علناس الذي اختط بجاية وفي سنة ٤٠٩ بنى الجامع الأعظم بالجزائر[١].

قال أبو القاسم ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك الذي ألفه أيام زيري بن مناد وقد دخل الجزائر وأخذ أحوالها عمن نشأ بها حول سنة ٣٣٧هـ: (وجزائر بني مزغنا مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة، وشربهم منها، بها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقرة والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم، والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز إلى القيروان وغيرها، ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجئوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن).

وفي سنة ٤٧٤ حاصر يوسف بن تاشفين الجزائر ولكن لم يحصل على طائل، وبعد بضع سنين ذهب تاشفين بن تينعمر بأمر من يوسف بن تاشفين إلى

---

(١) راجع بحثنا (الجامع الكبير معماريًا وتاريخيًا) في هذا الكتاب.

الجزائر وفتحها بعد قتال شديد، ثم رجعت هذه البلدة إلى بني حماد، ولم تزل في قبضتهم إلى أن ولي يحيى بن العزيز سنة ٥١٥هـ، وولي هو عليها أخاه القائد بن العزيز بن المنصور.

ولما انقرضت الدولة الصنهاجية وهرب الحسن آخر ملوكها والتجأ إلى أخيه القائد بن العزيز، قصد الموحدون الجزائر فبارحها القائد وبايع أهلها الحسن المذكور مقرين على كل حال بالسيادة لعبد المؤمن الموحدي.

وفي سنة ٥٨١هـ ملكها علي بن غانية وبعد مدة قليلة بايع أهلها المنصور، وفي سنة ٦٢٣ ملكها يحيى بن غانية.

وفي سنة ٦٢٨هـ ارتجعها المأمون ثم استولى عليها سنة ٦٣٢هـ أبو زكرياء صاحب إفريقيا، وتداولها ملوك هذه الدولة إلى سنة ٦٦٤، وفيها أخرج الجزائريون والى البلد من قبل صاحب تونس وبقوا مستقلين إلى سنة ٦٧٦.

وفي سنة ٦٨٤ بايعوا أبا زكرياء الحفصى صاحب بجاية، وفي سنة ٧٠٧ استولى عليها ابن علان وأطرد منها والي سلطان بجاية وتحصن بها مدة ١٤ سنة محاربًا كل من قصده واستولى عليها ملك تلمسان أبو حمو موسى بن عثمان العبد الوادي سنة ٧١١.

وفي سنة ٧٢٤ بني أبو تاشفين منارة الجامع الأعظم بها، وفي سنة ٧٤٨ ملكها أبو الحسن الحفصي ثم فتحها أبو عنان المريني سنة ٧٥٣، ثم ملكها أبو فارس الحفصي.

وهنا يجب أن نذكر ما وصفها به في القرن الخامس أبو عبيد البكري المذكور آنفًا قال: (هي مدينة جليلة... لها أسواق ومسجد جامع... ومرساها مأمون، له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من أفريقية والأندلس وغيرهما) اهـ.

وقال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق التي ألفها في أواخر شوال سنة ٥٤٨: (مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة، وتجارتها مربحة، وأسواقها قائمة، وصناعتها نافقة) اهـ.

ثم فتحها مرتين أبو حمو الثاني ملك تلمسان ثم رجعت إلى أبي زيان ملك بجاية، ثم إلى عبد العزيز المريني، وفي هذه المدة صارت قريبة من الاستقلال بسبب انفراد بني التومي بها، وهم فرقة من الثعالبة أصحاب (متيجة) الذين كانوا طردوا الصنهاجيين وألجئوهم إلى الجبال، ولا سيما سالم بن إبراهيم شيخهم، فإنه انفرد وحده بحكم الجزائر، وكان تارة يبايع بني زيان وتارة بني مرين، ويخدع كل مرة من كان بايعه إلى أن قتله أبو حمو الثاني سنة ٧٨٠.

وكادت الجزائر سنة ٨٤٢ تكون قاعدة ملك بني زيان، وسبب ذلك أن أبا زيان محمد خرج على عمه سلطان تلمسان واستولى على الجزائر وبايعه الناس، وتلقب بالمستعين بالله لولا أنه قتل في تلك السنة في شهر جمادى الثانية.

ومن هذا التاريخ إلى استيلاء الأتراك وفي أثناء هذه المدة الآخرة صار الجزائريون يعملون الأجفان للغزو بحرا، وكان ذلك أحد الأسباب التي دعت الأسبانيين إلى بناء حصن منيع في جزيرة صغيرة أمام الجزائر، وبقربها لرد الغزاة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات في سواحل بلاد الأصبان، ويسبون ويأسرون ويحرقون كل ما قدروا عليه.

وكان بناء هذا الصحن في أيام فرديناند الخامس ملك الأصبان وقد كلف بهذا العمل بدرو النافاري.

وفي شوال سنة ٩١٩ أرسل الجزائريون وفدا تحت رياسة شيخ بلدهم سالم التومي إلى بجاية لأجل عقد معاهدة بينهم وبين بدروا النافاري وقد كان استولى على بجاية وكان من جملة الشروط أنهم اعترفوا بالطاعة لملك الأسبان، والتزموا بإطلاق جميع الأسارى النصارى وباحترام المعاهدين له.

وفي السنة التي بعدها أوفد الجزائريون سالمًا التومي مصحوبًا بجماعة من أعيان البلد بهدايا نفيسة لملك الأصبان تأكيدًا للمعاهدة المتقدمة، ولكن فرديناند ألزمهم زيادة على ما مر بدفع غرامة كبير في كل سنة وبالاستيلاء على إحدى الجزر الواقعة قرب مرسى المدينة ببناء حصن فيها قيل له: (بنيونش الجزائر) يقيم فيه مائتان من العسكر لقمع غزاة البحر من الجزائريين وكان ذلك الحصن كالشوكة في قلب أهل الجزائر إلى أن جاء بابا عروج وأخوه خير الدين ودولة آل عثمان.

وأما حال الجزائر في هذه المدة، فقد قال الرحالة أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري في رحلته: (ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف لحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حوت قريتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل، يسرح الطرف فيها حتى يمل، ولكنها أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله ملحوب[1]، فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربه، وأديب يؤنس غربه، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق) اهـ.

---

(١) موضع في جزيرة العرب.

عبد القادر حليمي
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر (١)

إن الموضوع الذي بنيت عليه مدينة الجزائر القديمة قبل الاحتلال الفرنسي ينقسم على أساس التضاريس إلى منبسط ضيق على نحر البحر، وإلى ربوة يزيد ارتفاعها عن المائة متر تشرف على البحر.

أما المنبسط فهو الموضوع الأول الذي خطط فيه الفينيقيون الأولون المدينة العتيقة أو إيكوسيم التي اندثرت وعفا رسمها إلى الأبد.

وربما كانت تمتد إيكوسيم الفينيقية حتى الجزر القديمة، ولا ندري عن أنهجها وتخطيطها إلا الشيء القليل الذي يزداد غموضًا كلما تعمقنا في التاريخ.

أما الربوة فهي التي بنى فوقها الأتراك ومن قبلهم العرب حي القصبة، وتتألف الربوة من تكوينات الشيست اللماع، كانت تنحدر منها مسيلات وجداويل وشعاب عديدة نحو شارع باب عزون وباب الواد أو المنبسط، أهمها شعبة تنطلق من قمة ربوة القصبة وتمر بالقرب من نهج ميدي Médée

---

(١) عن مجلة الأصالة بالجزائر، العدد ٦ السنة الأولى، ذو الحجة ١٣٩١هـ جانفي ١٩٧٢م.

لتخرج في باب عزون، وبذلك تمثل هذه الشعبة الحد الطبيعي الغربي والجنوبي للمدينة، ثم شعبة تنطلق من قمة القصبة أيضًا لكنها تنحرف إلى الشمال لتمر بالقرب من نهج القصبة لتخرج في باب الواد، وبذلك تمثل الحد الطبيعي الشمالي للمدينة.

والشعبتان المذكورتان أعطتا لمدينة الجزائر القديمة شكل المثلث المتساوي الأضلاع، قاعدته تسير وخط الشاطئ، وقمته تنطبق على قمة القصبة أو تنطبق على النقطة التي كانت تنطلق منها الشعبتان.

وكانت مياه الأمطار تتبع في جريانها تلك الشعاب وكذلك المسيلات على أن نسبة الأمطار كانت تتسرب خلال الشقوق والفوارق لصخور الشيست على الربوة قبل وصولها إلى البحر، فتتحول بذلك إلى مجارٍ باطنية وإلى عروق مائية باطنية لا تلبث أن تظهر من جديد في شكل عيون عند مجاري البطون الدنيا للشعاب، أو عند ساحة الشهداء بالخصوص مثل عين السلطان قرب الجامع الكبير وعين العطش، وعين السباط في منخفض نهج البحر الأحمر، وعين الشيخ حسين في منخفض نهج الباب الجديد، والعين الجديدة في منخفض نهج ريقار، وعين العلج في نهج حيدرة، وهي عيون قد استفاد منها السكان القدماء من أهالي وفينيقيين قبل نشأة السواقي.

وقد مرت مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بأنواع مختلفة من التخطيطات منها التخطيط الشرطنجي الذي يرجع إلى العهد الرماني، ويتميز بشوارعه وأنهجه المستقيمة والمتبعة في اتجاهاتها لخطوط التسوية مثل شارع الكاردو، وشارع الديكيمانوس، ويظهر أن الشارع الأول أو الشارع الرئيسي (كاردو) كان ينطبق في امتداده من الشمال إلى الجنوب على شارع باب عزون،

أما الشارع الثاني (ديكيمانوس) فكان يمتد من الشرق إلى الغرب وينطبق تمامًا على نهج لامارين الحالي، وتتصل بالشارع الأول والشارع الثاني أنهج مستقيمة في كل الاتجاهات تنتهي عند الأسوار.

ولقد سن الرومان لهذه الأنهج والشوارع قوانين صارمة منها معاقبة الذين يرمون الأوساخ بها، وكلفوا موظفين لإصلاحها وترميمها ومنع السكان من نشر الملابس فوق الشبابيك المقابلة لها.

والتخطيط الثاني هو التخطيط الإختباطي الذي حدث للمدينة فيما بعد العهد الروماني فوق الربوة إلى الأعلى من خط كنتور باب عزون -باب الوادي- فيه تسلقت المباني، وتدخلت الانحدارات في امتداد الأنهج وتصنيف المنازل، واتبعت الأنهج في امتدادها بطون الشعاب مرة، والأذرع مرة أخرى، ذلك أن هذا التخطيط الاختباطي لم يكن خاضعًا لبرنامج معين أو لتسطير مسبق، بل إن العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا في بناء المنازل ومد الأنهج دون مراعاة للمستقبل وما يفرضه النمو العمراني؛ لذلك ساد التشابه في التخطيط لهذه الفترة بين القرى الجبلية في جبال الأطلس، وبين حي القصبة في مدينة الجزائر؛ أي أن التخطيط كان قرويًا بريًا أوجبليًا معقدًا أكثر منه مدنيًا وحضاريًا منظمًا.

فالأنهج اتبعت في سيرها للمرحلة الأولى لما بعد العهد الروماني خطوط الأرداف أولاً ؛أي: أصبحت تتقاطع وخطوط الكنتور بدلاً من سيرها مع خطوط الكنتور. وفي المرحلة الثاني أو في العهد التركي عندما اشتد نمو السكان وعاقت الأسوار اتساع وانتشار المباني التي زخرفت الأنهج من الأرداف إلى بطون المسيلات وأصبحت أسرة المسيلات والشعاب تصرف مياه الأمطار إلى

جانب فضلات المنازل، فهي قنوات طبيعية مزدوجة الصرف، ثم خزنت قنوات لصرف أوساخ المنازل لتنتهي دائمًا في الشعاب.

ولما زاد عد سكان المدينة ظهرت مشكلة السكن، فرفعت لذلك المنازل حتى في بطون الشعاب والمسيلات، وعندئذ اضطر السكان إلى إطالة وتمديد قنوات الأوساخ المخزونة، وإنشاء مجارٍ باطنية للفضلات تسير والانحدار العام للمنطقة، وتتبع في اتجاهاتها انحناءات الشعاب لتصب في البحر، وكذلك الأنهج أخذت تلتوي بالتواء الشعاب، وهذا ما يفسر لنا كثرة الدروب والأنهج الملتوية لمدينة الجزائر في العهد التركي.

وحي القصبة في الوقت الحالي، وكذلك حي باب الجزيرة قبل الحرب العالمية الثانية، وهي حرب خربت هذا الحي، ثم أعيد بناؤه من جديد لكن على الطراز الحديث من شوارع مستقيمة وواسعة، ولم يبق من حي باب الجزيرة القديم في الوقت الحالي إلا خرقة صغيرة محصورة ومنعزلة على الشاطئ، ويلاحظ على دروب القصبة أن الكثير منها واقع فوق قنوات قديمة لصرف الأوساخ وأنها كانت مرصوفة بالحجارة الجيرية الزرقاء حتى مطلع الاحتلال الفرنسي، ثم أعيد ترصيفها بالحجارة وبناء الأدراج بها فيما بعد ١٨٣٤م، وهي الأدراج التي تكثر في دروب القصبة في الوقت الحالي حتى يمكن أن نطلق عليها حي الأدراج والسلاليم.

وعلى أساس التخطيطات المختلفة التي مرت بها مدينة الجزائر من العهد الفينيقي إلى سنة ١٨٣٠م يمكن تحديد اتساعها في العصور المختلفة. ومن المسلم به أن المدينة أعيد ترميمها وتجديدها وتوسيعها عدة مرات، فأعاد العرب بناءها أولاً في الموضع الذي اختاره لها الفينيقيون والرومان من قبلهم لأسباب:

- منها أن الموضع توجد به شوارع وأنهج قديمة لا تحتاج إلى تخطيط جديد، بل يكفي استصلاحها وترميمها لتؤدي وظيفتها على أكمل وجه، ثم إن الموضع تتوفر به مواد البناء من حجارة كانت لأسوار ومنازل رومانية، فاستعملها العرب في بناء منازلهم ورفع أسوار المدينة من جديد.

- ومنها أن الموضع جيد للتجارة وقريب من البحر، وهو النقطة الأولى للمواصلات بين البر والبحر، تتوفر به مياه الشرب، والخضر من بساتين وحدائق القصبة.

ولقد أدى ازدهار تجارة جزائر بني مزغنة إلى زيادة عدد سكانها، وحينئذ أخذ الشعور يزداد نحو توسيعها، وكانت الأسواق العتيقة المحيطة بها تحول دون ذلك فاتجه السكان أولاً، نحو أعلى الربوة الواقعة إلى الجنوب الغربي من خط كنتور شارع باب عزون -باب الواد- وأخذت المباني والديار تحل محل الحدائق والبساتين.

ويظهر أن أول موضع اتجه نحو العمران في العهد الإسلامي الأول هو الموضع الذي يوجد به جامع سيدي رمضان، حيث توجد به عين السباط وتقل به الانحدارات وهو موضع ملائم تمامًا لامتداد العمران ويساعد عليه.

وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد زادت هجرة الأندلسيين من أسبانيا نحو جزائر بني مزغنة، وبذلك زادت ضرورة التوسع العمراني مرة أخرى وزادت حاجة الحضر إلى المساكن، واختار الأندلسيون المواضع العالية من القصبة التي يظهر منها البحر جيدًا؛ وبذلك اشتد ازدحام المباني فوق الأرداف ومتون الروابي وبطون المسيلات، ورفعت المنازل فوق السفوح وفي مواضع الحدائق.

ولا شك أن منازل متون الروابي ظلت تحتل الميزة المطلوبة، والقيمة المرتفعة لدى السكان، نظرًا لموقعها المشمس والجميل، إذ من شبابيكها المطلة على البحر يمكن الأشراف على مساحة واسعة من البحر والبر ورؤية القادمين من بعيد.

وبعد سنة ١٥١٦م بدأت الجزائر تستقبل أفواجًا من المهاجرين زيادة عن أفواج الأندلسيين؛ إذ جاءها هذه المرة عروج وخير الدين، ومعه عدد من الأتراك وعدد آخر من سكان شرق الجزائر الذين آزروه وناصروه في شرق البلاد، ومنهم سكان مدينة تكسانا Texana من جيجل الذين أوكل إليهم الأتراك تموين الانكشارية طيلة العهد التركي بالجزائر.

أما الأندلسيون فقد بلغ عدد منازلهم سنة ١٦٠٩م حوالي ٣٠٠ منزل، ونتج عن هذه الهجرات الضغط السكاني مرة أخرى على المباني الواقعة داخل أسوار المدينة، وهي أسوار كانت ضرورية لحماية المدينة من حقد العدو المسيحي الذي هاجت عصبيته في هذه الفترة بالذات.

وحينئذ تعارضت مصلحة الحماية ومصلحة التوسع لمدينة الجزائر التي انتقل عدد سكانها من ٢٠ ألف نسمة، سنة ١٤٥٠م إلى ٣٠ ألف نسمة سنة ١٥١٨م، ثم ٦٠ ألف سنة ١٥٨٠م ثم ١٠٠ ألف سنة ١٦٣٤م ثم إلى أكثر من ١٠٠ ألف نسمة سنة ١٧٥٥، وبدأ عروج سنة ١٥١٦ مشروع توسيع المدينة الذي استمر طيلة ٨٥ سنة فيها مدت المباني نحو الجهات العليا من القصبة، وهي الجهات التي ما زالت تحمل أسماء أثرية للأتراك مثل نهج المماليك ونهج الانكشارية.

ورأي المخططون الأتراك ضرورة تشييد أسوار المدينة مرة أخرى وإطالتها نحو الجهات الجنوبية الغربية بالخصوص بدلاً من الجهات الشرقية التي يحميها

البحر، وبدلاً من الجهات الشمالية التي تحميها الانحدارات الشديدة، ثم أن الجهات الجنوبية الغربية بحكم شدة ارتفاعها تساعد أكثر من الجهات الأخرى على مراقبة سفن العدو.

ورغم هذا لتوسع فإن مشكلة السكن ظلت قائمة؛ لتكاثر السكن وتعقيد المنطقة إذ ليس من السهل إيواء عدد كبير من البشر في منطقة محصورة وحمايتها من العدو الذي يتربص بهم الدوائر، ولذلك بدأت المساكن تتزاحم وأخذت الديار ترفع في كل شبر ممكن من المدينة، فعمرت الحدائق والشعاب وأسرة المجاري المائية.

ثم تسلقت المباني فوق بعضها البعض مثل حبات عنقود العنب بعد أن غزت حتى الأنهج القديمة منها والحديثة ببناء طابق ثانٍ أوسع فوق الطابق القديم، وركز الطابق الثاني على أضلاع مائلة مركزة على الطابق الواقع في الأسفل بحيث تحولت معظم الأنهج في الأخير إلى أنفاق ودروب لا تظهر منها الشمس بمجرد قلب النظر إلى السماء إلا بمشقة، بل منها ما لا ترى الشمس طوال اليوم.

فعامل الحماية وتوفير المساكن دفعا بالأتراك إلى بناء حي شديد التسلق والتركيب فوق القصبة العليا بدلاً من القصبة الدنيا التي بناها بلكين سنة ٩٥٠م، وبذلك نلاحظ قصبتين في مدينة الجزائر، قصبة بلكين وقصبة عروج.

أما قصبة بلكين فكانت تمتد فيما بين خط يتبع شارع باب الواد - باب عزون- وخط نهج بالمي وأنيبال؛ أي: بين خطي كنتور ٢٠ و ٨٠ مترًا تقريبًا، وكان السور المحيط بمدينة بلكين ينطلق من باب عزون مارًّا بالأنهج التالية: Médée. Centaure Palmier. Annibal. Ramadan. Dattes، ثم ينحني جنوبًا

ليخرج في باب الوادي بالقرب من حديقة سيدي عبد الرحمن الحالية، والمتبع لخط هذا السور يلاحظ أنه كان لا يسير في استقامة واحدة، بل كان عبارة عن خط منكسر يشبه أضلاع مثلث رأسه عند نقطة التقاء نهج بلمي ونهج أنيبال، وهما النهجان اللذان حلا محل السور الصنهاجي بعد أن هدم الأتراك سور بلكين لتوسيع المدينة إلى هذه الجهات العلوية.

ويظهر أن أهم أنهج نشأت في العهد الصنهاجي هي أنهج المتون والأذر المتقطعة مثل نهج الباب الجديد ونهج القصبة حاليًا اللذان تولدا عن سبل بسيطة كانتا تمثلان المدخلين الرئيسيين للمدينة من الجهات العلوية.

ويظهر أيضًا أن المنازل كانت في أول الأمر متباعدة عن بعضها تتخللها أو تفصل بينها مزارع وحدائق لتموين سكان المدينة بالخضر والفواكه، وتضمن لهم الأرزاق أثناء الحصار.

ولقد اختار بلكين لبناء قصبته موضعًا يتشابه إلى حد بعيد والموضع الذي انتقاه أبوه الأمير الصنهاجي زيري بن مناد في القرن ١٠ للميلاد لبناء مدينة أشير، ذلك أن البربر في بنائهم للمدن كانوا ينتقون الروابي التي تتوفر بها مياه الشرب وتكثر بها العيون الجارية، وتشرف على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد والاستعداد له قبل الوصول، وكانوا يراعون في تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة حتى إذا دهمهم العدو أو حاصرهم لا يمكنه أن يقطع عنهم مياه الشرب، ويستحسن أن تكون العيون في الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي لتموين السكان وإدخال المياه إلى المنازل؛ ولهذا اختار زيري لبناء مدينة أشير في جبل تنبجس من أعاليه عيون غزيرة المياه مثل عين سليمان وعين تلة تيراخ.

وكذلك فعل بليكن في تجديده وتوسيعه لجزائر بني مزغنة فاختار موضعًا تتوفر به مواد البناء ومياه الشرب، قريبًا من البحر، على ربوة مشمسة، يمكن الإشراف منها على مساحة واسعة من البر والبحر.

ومن خريطة العيون القديمة لمدينة الجزائر نلاحظ أن الصنهاجيين اختاروا عين المزوقة عند التقاء نهج بالمي وهانيبال والغزالة حدًّا غربيًّا لمد أسوار القصبة، ولأداء تلك الوظائف السابقة؛ إذ تنبجس هذه العين على خط ارتفاع ٨٠ م تقريبًا، وبالتالي يمكن إدخال المياه منها عن طريق الجاذبية إلى المنازل الواقعة في أسفل العين.

ولا شك أن عين المزوقة كانت تقع داخل أسوار المدينة مثلها في ذلك مثل بقية العيون التي كانت تمون سكان القصبة وحي البحرية مثل عين العطش وعين العلج وعين السلطان والعين الجديدة، وكانت مياه هذه العيون تكفي لسد حاجات السكان قبل اكتظاظهم، ثم حفرت الآبار في ساحات المنازل عندما زاد عدد السكان. وهذا يظهر أن الاختيارات الصنهاجية كانت موافقة في توسيع مدينة الجزائر.

أما قصبة الأتراك فقد بنيت إلى أعلى من القصبة الصنهاجية وفي موضع أكثر ارتفاعًا من الموضع الذي اختاره الصنهاجيون من قبل؛ أي: فوق القمة الحقيقية لربوة القصبة والذي دفع عروج إلى ذلك هو أن الموضع الذي اختاره بلكين لتوسيع جزائر بني مزغنة في القرن العاشر للميلاد أصبح لا يؤدي وظيفته الكاملة في القرن السادس عشر للميلاد عندما اشتد طمع الأسبان لاحتلال جزائر بني مزغنة التي تحولت إلى عاصمة البلاد، وتدفقت نحوها موجات من الهجرة الداخلية والخارجية، فالظروف التاريخية وعامل الحماية

والنمو الديموغرافي أملت على عروج أن يصعد بالمدينة نحو القلة؛ أي: القمة الأكثر ارتفاعًا، فاستعت المدينة نحو الجبل بدلاً من الشريط السهلي الشاطئي الضيق، واتجهت المباني نحو الروابي أكثر من اتجاهها نحو بقية الجهات، وأنشئت أنهج أخرى زيادة على الأنهج القديمة، وينبغي أن نلاحظ أن أغلب الأنهج لقصبة العهد التركي كانت تتبع في سيرها بطون الشعاب على عكس أغلب الأنهج في العهد الصنهاجي التي كانت تتبع خطوط الذرى.

وقد أدت زيادة المساكن وانحصارها بين أسوار القصبة للحماية، إلى التسابق نحو الجو واقتراب الديار إلى بعضها البعض، وبالخصوص السطوح التي كثيرًا ما تعانقت في الهواء وغطت الأنهج التي تحولت بطول الزمن إلى أنفاق مظلمة وضيقة مفروشة بالحجر الجيري لا يزيد عرضها عن المترين إلا نادرًا، بل إن بعض الأنهج تحولت إلى أزقة لا يمكن العبور منها إلا إلى أبواب المنازل، وهي أبواب ضيقة ومتينة رصعت بالمسامير وشدت بالألواح السميكة، ولا يمكن فتحها إلا بمشقة، وربطت أغلبيتها بحبال يتدلى منها ثقل يساعد على فتح الأبواب أو غلقها أليًّا.

وقد تبلغ عدد الأزقة في أواخر العهد التركي حوالي ١٥١ زقاقًا، لا يتسع الزقاق الواحد لمرور جملين في اتجاهين معاكسين، بل منها ما لا تتسع لمرور جمل واحد نظرًا للطوابق التي بنيت فوق النهج، وبهذا كان لا ينطبق عليها القانون العربي القديم للعمران الذي ينص على أن النهج يجب أن يكون اتساعه يكفي لمرور جملين محملين على الأقل، ولم يسن الأتراك قانونًا تخطيطيًّا يمنع السكان من البناء فوق الأنهج، بل تركوا الأمر للسكان الذين رأوا في ذلك حلاً لمشكلة السكن من جهة، ودرءًا لخطر ضربة الشمس واشتداد الحرارة من جهة أخرى في فصل الصيف.

فالأزقة الضيقة والأنهج الملتوية والدروب المغطاة تقي المارة من حرارة قيظ الصيف، وتجلب لهم الدفء، ثم أن حاجة سكان القصبة في العهد التركي لم تدع إلى توسيع الأنهج؛ لأن التنقلات كانت تقع أكثر ما تقع على الأرجل، ولا تدخل دواب تكفيها الأنهج الضيقة، أما الجمال والبغال دخلت اقتصرت على الحمير لنقل الأوساخ وهي دواب تكفيها الأنهج الضيقة، أما الجمال والبغال والخيل التي كانت تمثل أهم وسائل النقل فكانت تترك في اسطبلات بالقرب من أسوار المدينة.

وإلى جانب تلك الأنهج الضيقة بالقصبة كانت توجد بمدينة الجزائر في العهد التركي أنهج واسعة في الجهات السفلى من المدينة، وأخرى تمتد بالقرب من الأسوار، منها نهج باب عزون، ونهج القصبة ونهج الباب الجديد ونهج باب الوادي ونهج باب البحر، وكان اتساعها يزيد عن المترين ومنها ما كان يصل إلى أكثر من أربعة أمتار مثل نهج الأسواق التي كان يزدحم فيها المارة كنهج باب عزون ونهج الجامع الكبير الذي كانت تتركز فيه عدة حرف مثل: الصياغة والحدادة والرصاصة والنحاسة، والنحاتة والنجارة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أسماء الأنهج والأزقة الحالية لمدينة الجزائر العتيقة بما فيها حي البحرية وحي القصبة من وضع الاستعمار الفرنسي الذي جمعها واختارها لضبط الأنهج ، لذلك نلاحظ عليها أنها غريبة عن العربية؛ لأن الإدارة الفرنسية انتقتها من بين أسماء لعظماء الفرنسيين أو أوروبيين بصفة عامة، أو هي أسماء ترجع إلى مدن أوروبية مثل نهج تولون، وقليلاً ما ضبط الإدارة الفرنسية النهج باسم الحرفة التي كانت سائدة فيه قبل الاحتلال.

وفي العهد التركي ومن قبله في العهد العربي، كانت الأنهج تعرف باسم الحرفة السائدة فيها أو باسم الطائفة التي كانت تسكنها أو يطلق على النهج

باب السور المجاور لها، ومثال لذلك نهج السوق الكبير الذي كان يمتد من الجنوب إلى الشمال على طول شارع باب عزون - باب الوادي الحالي- وكان المحلات التجارية والدكاكين المختلفة تصطف عن يمينه وشماله، وبالقرب من باب عزون كان يمتد نهج السمارين في الموضع الذي يقع فيه المسرح الوطني حاليًا.

وموقع نهج السمارين بالقرب من مدخل باب عزون يساعد كثيرًا أصحاب الدواب والقادمين من الريف على ترك حيواناتهم لدى السمارين لإصلاح حدواتها بينما أصحاب الدواب يذهبون راجلين نحو داخل المدينة لقضاء مصالحهم. والمتنقل من باب عزون نحو ساحة الشهداء تعترضه أسماء لنهج سوق الرابعة، ونهج خدم الخيل، ونهج سوق الخراطين والمتنقل من نهج السوق الكبير نحو قمة القصبة تعترضه عدة أنهج يطول ذكرها منها نهج ينطلق من الباب الجديد، ويعرف هنا بنهج الباب الجديد ثم يمر بمسجد ابن شلمون ويعرف هنا بنهج جامع ابن شلمون، ثم يخرج في سوق السمن فيعرف بنهج السمن، ثم ينتهي بسوق الكتان.

ويلاحظ على هذه الأسماء أنها كانت كثيرة التغيير، لتغير عامل اشتقاقها، فنهج بالمير في عهد الاحتلال الفرنسي عرف بنهج القبائل، سنة ١٥٦٣م، ثم نهج سوق الملح سنة ١٦٥٠م، ثم بنهج السوق الكبير في مطلع القرن التاسع عشر وقبل الاحتلال الفرنسي.

أما أطوال الأنهج الضيقة والشوارع فقد قدرت سنة ١٨٣٠م بحوالي ١٥ كيلو مترًا، وأغلبها كانت لا تصلح لمرور العربات، ولا زالت حتى الوقت الحالي تتقاطع وخطوط الكنتور وتكثر بها السلاليم.



عبد القادر حليمي

أصول النشأة لمدينة الجزائر[١]

المدينة ظاهرة جغرافية؛ لأنها تشغل حيزًا من سطح الأرض، وتتأثر بالطبقة السفلى من الغلاف الغازي، كما أن المدينة حادثة تاريخية لها بداية، وقد تكون لها نهاية، وكذلك المدينة مركب اجتماعي وحضاري؛ لأنها مستعمرة بشرية كان ليد الإنسان دخل في نشأتها تطورها أو ذبولها في بعض الأحياء، ولا يمكن أن تدرس نشأة المدينة إلا بالتعرض لهذه العناصر الثلاثة المتكاملة، وهي: الضوابط الجغرافية والتاريخية والبشرية.

وترجع نشأة مدينة الجزائر إلى فترة ظهور الفينيقيين في حوض الحوض البحر الأبيض المتوسط الذين خرجوا من فينيقية باحثين عن المعادن والبضائع ومنشئين للمستعمرات التجارية على الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وحيث استقر بهم التجوال أسسوا مدنًا كثيرة اختلفت في تمثيلها للأهداف التي أسست لها، فمنها المراكز التجارية ومنها المدن العمرانية، ومنها العواصم السياسية، واختلفت هذه المدن العتيقة بشمال أفريقية وبجزر البحر الأبيض المتوسط في مدى ثباتها أمام الأحداث التاريخية، فكانت منها العظيمة الذائعة الصيت، مثل قرطاجنة بتونس، وسيراقوسة بصقلية اللتين استمرتا في دورهما الحضاري مدة طويلة من الزمن.

ومنها المدن المتواضعة التي كانت عبارة عن مراكز تجارية بسيطة

---

(١) عن مجلة الأصالة بالجزائر، العدد ٨ السنة الثانية ربيع الثاني جمادى الأولى ١٣٩٢هـ، ماي - جوان ١٩٧٢م.

اضمحلت وزالت بزوال الهدف الذي أسست من أجله، مثل: رسيقينا؛ أي: (تامنفوست) حاليًا، ومنها المدن القيمة التي تناوبتها فترات الازدهار والركود حسب القيمة الاستراتيجية التي أضفاها عليها التاريخ السياسي للبلاد، مثل مدينة الجزائر.

ومن أهم ما يلاحظ على هذه لمدن الفينيقية العتيقة، خارج فينيقية، أنها كانت مطبوعة حضاريًا بطابع شرقي واضح، ذلك أن الوافدين ، الذين كان لهم الفضل الأول في نشأة المدن العتيقة على شوطئ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لم يغفلوا عن طبع مدنهم في شمال أفريقية بالطابع التقليدي المنقول من الشواطئ الشرقية لنفس البحر، حيث نقلوا إليها عاداتهم، وتقاليدهم، ومعاملاتهم، وحتى معتقداتهم وقصصهم، وأساطيرهم التي تدور حول نشأة هذه المدن، مما يؤدي بالباحث في بعض الأحيان إلى أخذ الحقائق التاريخية وتصفيتها أو تنخيلها بتحفظ وحذر.

ومن ناحية أخرى فإن هذا التاريخ الحضاري العمراني رغم ما يحمله في أحد جوانبه من تصورات خيالية، وأساطير بالية، وقصص زاعمة، يساهم إلى حد كبير في إحياء التراث القديم وجعله المادة المتكلمة عن الماضي البعيد، وبذلك يمكن الرجوع بالآثار إلى أصل النشأة.

وفي البحث عن أصول نشأة مدينة الجزائر لا بد أن نعتمد على هذه الآثار، مهما كانت قيمتها وقيمها، دون أن نهمل العرض، فالتحليل، ثم التعليل، ثم الأخذ بالواقع أو بالأقرب للصواب.

وأول ما يعترضنا في البحث عن الأصول الأولى لنشأة مدينة الجزائر هو الضبط بالأرقام التي لا تقبل جدالاً أو شكًا لتاريخ تأسيسها الأول، أو للسنة

التي وضعت فيها أول لبنة لبناء المدينة؛ ذلك لشدة قدم تاريخها ولأن الفترة التي أسست فيها مدينة الجزائر لأول مرة كانت فترة لا تساعد على الضبط بالأرقام المدققة، يضاف إلى ذلك أن الباني لأول منزل، ما كان يفكر أنه سيكون له شأن عظيم، بل كثيرًا ما سطرت الأقدار ما لم يتوقعه الإنسان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأبحاث الأثرية حول أول لبنة لمدينة الجزائر ما زالت جارية إلى يومنا هذا.

وعلى أن المدينة لم تكن شيئًا مذكورًا قبل ظهور الفينيقيين في عرض البحر الأبيض المتوسط؛ أي: قبل نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. وأنها كانت موجودة في الألف الأول لما قبل الميلاد، لكن بقي أن نحدد السنة من فترة الألف الأولى لما قبل الميلاد؛ إذ هي فترة طويلة وتشمل ألف سنة كاملة، وهنا تتشعب الآراء ويزداد الاختلاف؛ إذ من الباحثين من يرد أصل النشأة إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ومنهم من يذهب إلى القرن السادس، ومنهم من يكتفي بالقرن الأول، والمرجح أن مدينة الجزائر أسست لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد كما سيظهر لنا في هذا البحث.

والسؤال الذي ما زال يثير اهتمام الأثريين هو: من الجماعة التي كان لها الفضل الأول في نشأة مدينة الجزائر؟ هل السكان القدماء من شمال أفريقية؟ أم اليونانيون؟ أم الفينيقيون؟

فالذين يردون أصل النشأة إلى السكان القدماء من شمال أفريقيا؛ أي: البربر يعتمدون في حكمهم على الروايات التاريخية والقصص المنقولة دون دراسة للآثار، ومنهم مورقان في كتابه: (تاريخ الجزائر) الذي يزعم، أن أغلب المؤرخين يذكرون أن مدينة الجزائر أسسها يوبا الثاني، وهو ملك من البربر كان

يحكم بلاد الجزائر في مطلع عهد الاستعمار الروماني، الذي أطلق عليها اسم أيول أو اسم (يوليوس قيصر) تخليدًا لذكرى سيده الإمبراطور الروماني (يوليوس قيصر) الذي عاش فيما بين ١٠١ و ٤٤ ق. م، وإن غيروا المعالم الرومانية، وأسماء المدن ومن بينها اسم مدينة أيول التي أطلقوا عليها اسم الجزائر، نظرًا لما كان أمام هذه المدينة الأهلية البربرية من جزر في البحر.

ثم نزلت بها قبيلة بني مزغنة فيما بعد، فأضيف إليها حينذاك جزائر بني مزغنة، وهذه الرواية لمورقان لا تخلو من الشك أو قل ولا حرج أنها بعيدة عن الصواب إذ المرجح والمعروف لدى المؤرخين أن مدينة أيول هي مدينة شرشال، وليست مدينة الجزائر، وأن اسم جزائر بني مزغنة لم يرد إلا في كتب الرحالة العرب، أمثال محمد بن حوقل، وأبي عبد الله البكري.

وكانوا يقصدون بها مدينة الجزائر الحالية التي يعود أصل نشأتها إلى فترة أقدم مما ذكرها مورقان؛ إذ يوبا الثاني تولى الحكم في هذا الإقليم فيما بين ٢٥ و ٢٣ ميلادية، وكانت مدينة الجزائر موجودة قبل ذلك للأدلة الأثرية والتاريخية؛ إذ كانت مستعمرة رومانية مزدهرة لها مشيختها الخاصة وإدارتها المعروفة قبل يوبا الثاني، وربما قام هذا الملك البربري أو الأهلي بتجديد المدينة، ورفع البعض من معالمها وبذلك اختلط على مورقان أصل النشأة بتجديدها.

ومن أنصار فكرة: مدينة الجزائر بناها الأهالي القدماء، نجد أيضًا فانتيردي بارادي الذي يذكر: (أن مدينة الجزائر حديثة النشأة بناها المور -ويقصد بهم الأهالي أبو البربر- بعد أن هدموا مدينة تامنتفوست في إحدى ثوراتهم ضد الرومان، واستعملوا صخور المدينة المهدمة في بناء مدينة الجزائر الحديثة التي لا توجد بها آثار عتيقة).

ويتجلى ضعف فكرة فانتيردي بارادي في قوله أن مدينة الجزائر ليس بها آثار عتيقة، والواقع أن مدينة الجزائر بها آثار للأول ولم يتنبه لها فانتير، وربما هذا يرجع إلى قصر المدة التي قضاها في مدينة الجزائر فيما بين ١٧٨٨ - ١٧٩٠م وهو من رجال السلك الدبلوماسي الذين لم تسمح لهم الظروف بالبحث عن هذه الآثار، أو أن هذه الآثار لم تكن منتشرة بالدرجة التي تجلب الانتباه، ثم إن فانتير يذكر أن الجزائر بنيت في العهد الروماني وهذا يتناقض مع الأبحاث الأثرية التي دلت على أن مدينة الجزائر هي أقدم من الاحتلال الروماني.

وأما صولين المؤرخ الروماني والنحوي اللاتيني الذي كان يعيش في القرن الثالث للميلاد فيذكر أن مدينة الجزائر يونانية الأصل بدليل اسمها العتيق (أيكوسيوم)، وهي كلمة مزجية يونانية مركبة من أيكوسي ومعناها باليونانية: عشرون، ذلك أن الذين أسسوها كانوا عشرين نفرًا من اليونانيين، أما قصة تأسيسهم للمدينة فيرويها صولين فيقول: (إن هؤلاء العشرين كانوا من ركاب البحر، ومصاحبين لهرقل اليوناني الجبار ابن الإله جيبيتر في إحدى رحالاته البحرية لتحقيق عجائبه الكثيرة، منها الفصل بين جبال كالبي، وجبال أبيك؛ أي: بين جبال سيرانيفاد بشبه جزيرة أيبيريا وجبال الريف بالمغرب الأقصى، وعندما وصل هرقل وأصحابه العشرون إلى الموضع الذي تقوم عليه مدينة الجزائر الحالية توقفوا للاستراحة، فأعجبتهم المنطقة، ومل أصحاب هرقل العشرون من طول الطريق، فمالوا إلى الراحة والاستقرار، فانفصلوا عنه، ولبثوا في المكان.

أما هرقل فتابع رحلته البحرية إلى أن بلغ البرزخ الذي كان يفصل بين شبه جزيرة أيبيريا والمغرب الأقصى، فشقه، وبذلك حقق إحدى معجزاته السبعة وأوصل بين البحرين -البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي- بمضيق،

ظل يحمل اسم عمود هرقل مدة طويلة من الزمن، وهو ما يعرف بمضيق جبل طارق حاليًا في كل اللغات، نسبة إلى طارق بن زياد فاتح بلاد الأندلس سنة ٧١١م أثناء الفتوحات الإسلامية.

أما العشرون نفرًا من اليونانيين الذين انفصلوا عن هرقل فقد نزلوا البر، وأسسوا مدينة العشرين، حتى لا يستأثر بها أحدهم دون الآخر، وأحاطوها بسور ظل قائمًا مدة طويلة من الزمن إلى عهد الاحتلال الروماني للجزائر، حينذاك غير الرومان اسم مدينة الجزائر من أيكوسي اليونانية إلى إيكوسيوم الرومانية التي منحها الإمبراطور الروماني (فيسبا سيان) حقوق الأحياء اللاتينية في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد).

ونلاحظ من هذه الأسطورة للنحوي الروماني أنها لا تختلف كثيرًا على أساطير القدماء التي كانوا ينسجونها حول تأسيس المدن، وربطها بقصة من القصص الميثولوجية، ولا تلبث هذه القصص كثيرًا، بل سرعان ما تسقط غبارًا أمام الحقائق العلمية أو الأثرية؛ إذ ليست بمدينة الجزائر أثار يونانية، ولا ما يدل على وجودها ولم يتحدث عنها المؤرخون اليونانيون.

ثم إن هذا الإقليم لم يخضع للنفوذ اليوناني بل كان خاضعًا لنفوذ الفينيقي في القديم، وأن أهم ما يستفاد به من قصة صولين أن مدينة الجزائر أقدم من الاحتلال الروماني لشمال أفريقية، وأنها ظهرت في الفترة الأولى لازدهار حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي فترة كان لليونانيين أغلب مستعمرات الشواطئ الشمالية من بحر ايجي إلى بلاد الغال، وللفينيقيين أغلب مستعمرات الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وبهذا يمكن إضافة قصة صولين في بناء مدينة الجزائر إلى القصص التي تحاك حول بناء مدينة روما وأثينا وقرطاجنة.

ولم يغفل بعض الرحالة العرب في التعرض على أصل نشأة مدينة الجزائر، منهم أبو عبيد الله البكري الأندلسي (توفي سنة ٤٨٧هـ) الذي ذكر في كتابه المسالك والمالك ما يلي: (جزائر بني مزغنة هي مدينة جليلة، قديمة البنيان، فيها آثار للأول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور للحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، ولم يغيرها تقادم الزمن، ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدور من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثر النقوش والصور، ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من أهل أفريقية، والأندلس وغيرهما، وهو مرسى مأمون مشتي بين جزيرة سطفلة من الشرق إلى الغرب وبين البر).

ومن حديث البكري هذا يظهر أن مدينة الجزائر عريقة في القدم، وأن آثارها كثيرة حتى يظن أنها كانت عاصمة للبلاد في وقت من الأوقات، وأن عظمة كنيستها التي حولت إلى مسجد تدل على مدى قيمتها التاريخية، وأنه كان لها شأن عظيم في العهد الروماني حيث كانت تتركز بها الديانة المسيحية وتقوم بها المدرسة الوهبية، لكن البكري لم يتعرض إلى الذين أنشئوها لأول مرة.

ويظهر لنا، كما ذهب إليه الكثير من الكتاب أن مدينة الجزائر فينيقية الأصل للأدلة الجغرافية والتاريخية والأثرية:

١ - الأدلة الجغرافية

إن انتقاء الموقع الجغرافي يدل على أنه انتقاء فينيقي ، ذلك أن الفينيقيين هم الذين كانوا يحتلون هذه الشواطئ وقد تعودوا على إنشاء المحطات التجارية

على الضفاف الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط مثل قرطاجنة وعتيقة بشواطئ تونس وروزيكاد -سكيكدة حاليًا- وهيبون - عنابة حاليًا - بشواطئ الجزائر، وروزادير -مليلة حاليًا- وتانجس -طانجة حاليًا- بشواطئ المغرب ومحطات أخرى يطول ذكرها على هذا الساحل الأفريقي.

وكانت هذه المحطات تساعدهم على استراحة في أسفارهم البحرية، ورحلاتهم التجارية للبحث عن ذهب السودان وفضة أسبانيا، وبضائع وأصداف البربر، وفي هذه المحطات كان التجار الفينيقيون يتزودون بما يحتاجونه في أسفارهم من مياه عذبة ومواد غذائية زيادة عن تبادل تجاري مع سكان الأقليم.

ومما يلاحظ على هذه المحطات التي أسس البعض منها في مطلع الألف الأولى لما قبل الميلاد. وربما كانت منها مدينة الجزائر، أنها كانت تقع في أماكن معينة ومقصودة للغاية، حيث تقع على مسافات تتلاءم والمسافة التي تقطعها السفينة الفينيقية في اليوم الواحد مثل ٢٥ إلى ٤٥ كيلو مترًا بين المحطة والتي تليها.

وزيادة عن اعتبار المسافة كان الفينيقيون ينتقون لتأسيس مراكزهم التجارية المواضع التي تساعدهم طبيعيًا على إرساء سفنهم، مثل الجزر والرءوس أو الخلجان أو مصبات الأودية والأماكن التي تتوفر فيها المياه العذبة، ويوجد بجانبها الظهير الغني مثل سهل متيجة.

واعتمادًا على هذه المعطيات الجغرافية المتوفرة في إقليم الجزائر يبدو أن مدينة الجزائر ترجع في أصل نشأتها إلى الفينيقيين، حيث أنها تقع على نقطة الوسط للمسافة البحرية الفاصلة بين تامنتفوست وهي، مما لا شك فيه، محطة

فينيقية وبين (تيبازا) وهي محطة فينيقية أيضًا باتفاق الأثريين، يفصل بين المدينتين؛ أي: تيبازا وتامنتفوست نحو الثمانين كيلو مترًا، وهي مسافة طويلة لا تقطعها السفينة في اليوم الواحد، لذلك اختار الفينيقيون موضعًا مسطحًا، يقع بين المحطتين السابقتين، تتوفر فيه الشروط الطبيعية لتأسيس محطة تجارية ملائمة تمامًا لإرساء مراكبهم البحرية، وهو موضع توجد به أربع جزر في شكل حرف ألف ممدودة، وجزيرات عدة يمكن التنقل عليها بسهولة إلى البر، تحمي السفن من حركات الأمواج، والميناء يلائم الرسو.

كما أن الموقع يساعد على الدفاع، والاتصال بالداخل وبالسهل المتيجي، وتتوفر فيه المياه العذبة التي كانت تفور من إحدى جزيرات الميناء القديمة، ثم أزيلت هذه الجزيرة بما فيها من عيون عذبة في مطلع عهد الأتراك لاستصلاح الميناء وتوسيعها.

٢- الأدلة الأثرية

لقد أجريت أبحاث كثيرة عن آثار مدينة الجزائر القديمة التي بنيت على أساسها المدينة الجديدة، وهي أبحاث أثرية نشطت في فترة الاحتلال الفرنسي بحكم التخصص العلمي والتطور الحضاري في هذه الفترة، والذين قاموا بهذه الأبحاث الأثرية هم من الفرنسيين مثل: كانتينو وليش وصنطاس وجزال.

وخرج هؤلاء الباحثون بنتائج تؤكد أن مدينة الجزائر بنيت في العهد الفينيقي وأن بها أثارًا فينيقية، ومن هذه الآثار التماثيل والأضرحة، والأواني الفخارية والنقود، فقد عثر على تمثال في نهج القصر القديم يتكون من صخرة واحدة نقش عليها ما يرمز للعالم العلوي والآلهة القرطاجنية، كالإله بعل الذي كان يعبده الفينيقيون ويتقربون إليه فوق الروابي أو الأماكن العالية ظنًّا منهم

أن هذه المواقع قريبة من العالم العلوي حيث تقيم الأرواح الطيبة، وهذا الإله يشبه إلى حد بعيد الإله المصري القديم آمون الذي كان له معبد في الكرنك على وادي النيل، ولا شك أن المصريين القدماء والفينيقيين كانت لهم اتصالات قوية واحتكاكات حضارية أثرت حتى على معتقداتهم الدينية.

ولقد اكتشف الأثريون أيضًا في مدينة الجزائر ضريحًا صخريًا سنة ١٨٤٨م في حديقة سيدي عبد الرحمن، وهو قبر فينيقي الأصل، طوله ٢.٣٩ م وعمقه ٠.٨٢ م، وجدت به تميمة مصرية الصنع نقشت عليها صورة الإله المصري أنوبيس له جسم إنسان ورأس ذئب كان يعتقد أنه إله الموتى، والتميمة من طين، ارتفاعها نحو الست سنتيمترات.

كما وجد بالقبر قطع أخرى من الزجاج الأخضر والأحمر والأصفر كان يتحلى بها صاحب الرفاة، وآنية من طين، ارتفاعها ١٧سم وقطرها ١٢سم، ولا شك أن هذه الآثار فينيقية الأصل لما يغلب عليها من الطابع الشرقي، وكما تؤكده عادات الفينيقيين الذين تعودوا على دفن الميت مع حليه وتمائمه وأدواته المنزلية التي كان يستعملها في حياته الدنيا، وقد عثر أيضًا سنة ١٩٥٢م على بئر أثرية في حي باب البحرية - باب الجزيرة - أثناء إعادة بناء ما خربته الحرب العالمية الثانية بشارع أول نوفمبر حاليًا[1]، وعثر على هذه البئر العمال وهم

---

(١) للمرة الثانية نرى حضرة الكاتب المفضال ينسب ما حدث من التخريب الواقع بشارع أول نوفمبر إلى حوادث الحرب العالمية الثانية ... والواقع أنه ليس لهذه الحرب أي تأثير كبير أو صغير في تخريب هذا الحي من العاصمة، ولقد عشنا هذه الفترة وشاهدنا بأنفسنا -ونحن من سكان المدينة بل ومن مواليدها- ورأينا بأعيننا كل حوادث الحرب التي جرت فوق سماء الجزائر. =

يحفرون أساس البنايات الجديدة، وكان عمقها يزيد عن ١٤.٥٠م وجدت فيها أوانٍ فخارية ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة وأقوام متعددة تداولت النفوذ في هذه المنطقة.

وبالطبع فإن أقدمها هي الواقعة في أسفل الطبقات وترجع إلى الآثار الفينيقية فوقها الآثار الرومانية تليها الآثار العربية كما عثر الأثريون أيضًا سنة ١٩٤٠ في حي باب الجزيرة على قطع نقدية فينيقية، وهي عبارة عن ١٥٨ قطعة نقدية معدنية، جلها من الرصاص وأقلها من البرنز، سكت فيما بين القرن الثاني

= فلم نشاهد ذلك، وإنما كان هذا عن تدبير مبيت وتخطيط استعماري ماكر جيء به حديثًا عل يد بعض مهندسي فن البناء والتعمير من الفرنسين أملاه عليهم الحرص والطمع فوجدوا من بين أبناء جنسهم ومن هم على شاكلتهم من الولاة لهم آذان صاغية وأفئدة واعية، وصدور مليئة بالبغضاء والجشع، فتمالئوا على تحطيم هذا الحي الذي يشتمل على أجمل وأبهى ما بمدينة الجزائر المسلمة من فن المعمار الإسلامي الشرقي الرشيق.

وهم في ذلك متصنعين أو متعللين بالشفقة على ما وقع لبعض المنازل والدور بهذا الحي من التداعي والتضعضع بسبب ما نالها من البلى والقدم وطول العهد عليها من غير أن يتعهدها أصحابها وبالترميم و الإصلاح، فسقطت وأشاعوا بأنها سقطت من أثر الحرب، والحقيقة هي كما قلت: ثم كان التعويض عنها بهذه البنايات وهذه العمارات التجارية البحتة، ولقد وقع كل ذلك رغم المعارضة الشديدة التي أظهرها كل من منتخبي أعضاء المجلس البلدي من المسلمين، كما تشهد لهم بذلك محاضر الجلسات المسجلة بأسفار البلدية ووثائقها المحفوظة بخزانتها منذ ذلك التاريخ.

وقد كادت القضية أن تبلغ بهم إلى حد الاحتجاج والانقطاع عن حضور اجتماعات البلدية فردهم عن ذلك موقف الحكومة الصارم تجاه القضية فكان في ذلك شأن من، قال فيهم حكيم المعرة وشاعرها المفلق:

تلوا باطلًا وجلوا صارما وقالوا صدقنا فقلنا نعم

والأول قبل الميلاد، تحمل في إحدى جوانبها صورة لامرأة على رأسها تاج، وأمامها رمز النصر.

وربما كانت هذه الصورة للآلهة المصرية إيزيس زوجة أوزريس وأم حورس؛ لأنها تشبهها إلى حد بعيد، وعلى الوجه الثاني من النقود نقشت صورة لرجل واقف على قاعدة صخرية، ومتوج بتاج له ثلاث أسنة تشبه الأشعة، وتوحي إلى هيئة الإله الفينيقي بعل، يكسوه قميص، ويتدلى من كتفه الأيسر خرج من جلد الحيوانات، وقد كتب على هذا الوجه العبارة التالية: إيكوسيم ikosim وبذلك عثر لأول مرة في الأبحاث الأثرية على الاسم القديم للمدينة، وهو اسم فينيقي حرفه الرومان فيما بعد إلى إيكوسيوم حتى يتماشى ولغتهم اللاتينية.

وقد تصدى المختصون في اللغات السامية للبحث عن أصل ومعنى الكلمة المنقوشة في تلك النقود، وذكروا بأنها بونية الأصل -أي فينيقية- وتتألف من كلمتين هما: I ومعناها بالبونية: جزيرة، و kosim ومعناها الشوك، وقيل: الطيور التي تعيش في الأطلال مثل البوم.

وهذا التحليل يذكرنا بالجزر الأربعة القديمة التي ظلت مدة طويلة منفصلة عن بعضها أمام مدينة الجزائر وكانت تسمى في عهد الرحالة العرب بجزر سطفلة، وتقع أمام باب الجزيرة إلى أن أوصلها الأتراك باليابس وامتدت إليها المباني التي رفعت فوقها فأصبحت جزءًا من الرصيف.

كما يذكرنا هذا التحليل أيضًا بالطيور البحرية التي كانت تعيش في أطلالها، ويرى البعض أن كلمة كوس معناها دجاج البحر، وعلى هذا يكون معنى الكلمة الفينيقية إيكوسيم: جزيرة دجاج البحر، وهو الأقرب إلى الصواب حيث يكثر دجاج البحر في الشواطئ الجزائرية حتى الوقت الحالي.

وسميت عليها مواني كثيرة مثل مرسى الدجاج بالقرب من أرزيو، ومرسى الدجاج أيضًا على الشاطئ الغربي من مدينة الدلس، وهي مواني لا زالت تقصدها طيور البحر بالخصوص الطيور المعروفة بدجاج البحر التي تطوف في عرض البحر ثم تأوي للمبيت أو للاستراحة على الحافة الشمالية للبنايات البحرية حاليًا في ميناء الجزائر.

وخلاصة هذا العرض أن المتتبع للآثار الفينيقية على نطاق واسع في شواطئ شمال أفريقية يظهر له أن الفينيقيين بدأوا في تأسيس مراكزهم التجارية من الشرق إلى الغرب بادئين بقرطاجنة ومنتهين بالمدن العتيقة على شواطئ المغرب الأقصى، وبذلك فإن المدن أو المراكز التجارية الفينيقية الواقعة على الشواطئ الشرقية أقدم من المراكز الشاطئية الغربية.

وأن التركز على هذه الشواطئ سلك مرحلتين:

أولها: مرحلة الاستكشافات للمواضع والمواقع الملائمة للتركز ابتداء من أواخر الألف الثاني لما قبل الميلاد.

والمرحلة الثانية: بناء المراكز التجارية ثم المدن الصغيرة في النصف الأول من الألف الأخير لما قبل الميلاد، ولما كانت مدينة قرطاجنة واقعة في شرق المغرب العربي وبنيت سنة ٨١٤ ق . م كما دلت عليها الآثار، فإن مدينة الجزائر الواقعة إلى الغرب منها بحوالي ثمانمائة كيلو متر فلا بد أن تكون قد أسست فيما بعد.

ولقد دلت الأبحاث الأثرية التي أجراها صنطاس بعد الحرب العالمية الثانية في مدينة تيبازة الواقعة على بعد حوالي الخمسين كيلو مترًا إلى الغرب من

مدينة الجزائر أن أقدم الآثار الفينيقية بتيبازة لا تتعدى القرن السادس قبل الميلاد، ويظهر من ذلك أن مدينة إيكوسيم الفينيقية أسست في هذه الفترة؛ أي: حوالي القرن السادس قبل الميلاد في حجر حي القصبة أو في حي باب الجزيرة، وبالتالي يعد هذا الحي أقدم أحياء المدينة على الإطلاق وأول نقطة اختارها الفينيقيون لبناء مركزهم التجاري؛ أي: مدينة الجزائر العتيقة.

ويظهر أن مدينة الجزائر عمرت في الفترة الأولى لنشأتها بعناصر فينيقية مهاجرة وعناصر أهلية أفريقية، وإن كان الأساس الجنسي للفريقين واحدًا، وجمعت بين العنصرين حرفة التجارة، وتبادل البضائع المختلفة، لذلك كانت تزدهر المدينة وتنمو بازدهار التجارة وتركد بركودها.

ولم تكن مدينة تامنتفوست ولا مدينة أيول بالمدن الفينيقية الكبرى التي يمكنها أن تؤثر على عمران مدينة الجزائر، بل إن هذه المدن المجاورة كانت متممة لبعضها، بحيث تعتبر أساسًا تاريخيًا لما يمكن أن نسمية بالجزائر الكبرى، ولم يكن للمهاجرين الفينيقيين أطماع استعمارية غير المسالمة والحياة التجارية مع البربر.

لذلك لا يحدثنا التاريخ عن قلاقل اجتماعية لسكان الجزائر في الفترة الأولى من النشأة، بل وطيلة العهد الفينيقي بها، ولم تظهر الحياة الطبقية وامتياز بعض الجماعات عن الأخرى، وعدم الامتزاج بالسكان الأصليين في مدينة الجزائر، إلا في عهد الاستعمار الروماني عندما هاجرت الجاليات الرومانية إلى المدينة وكانت تحيا في المستعمرات حياة أرستقراطية، تختلف تمامًا عن حياة السكان الأصليين، ولم يتركز الرومان في المدن فقط، بل حصنوها بأسوار قوية حتى كانوا في مأمن مؤقت من غضب وثورات طبقة السكان الأصليين الذين كانوا

معتبرين عبيدًا في عهد الرومان، ثم رفع الرومان داخل هذه المدن الأبراج والقصور التي زينوها بالرخام والتماثيل ونظموا بها العيون والصهاريج واتخذوا من المدن المحصنة مراكز لإدارة البلاد.

ولما دخل العرب المسلمون إلى شمال أفريقية غيروا الكثير من المعالم الاجتماعية المتناقضة والقوانين الإنسانية فألغوا الأسوار التي تفصل بين الحاكم والمحكوم، وبنوا الأسوار التي تقيهم من خطر العصبية المسيحية وهذا شيء استمد من طبيعة الإسلام.

وأطلقوا على مدينة إيكوسيوم جزائر بني مزغنة نسبة إلى قبيلة أهلية كانت تسكنها، ثم اشتدت الهجرات العربية إلى شمال أفريقيا في القرن الحادي عشر للميلاد، فعمروا النجود والسهول، ثم المدن التي أخذوا يطبعونها بالطابع العربي الأصيل ونقلوا إليها دينهم الجديد وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، وربطوها ببقية المدن العربية في المشرق العربي تارة وفي المغرب العربي تارة.

وبذلك ازدهرت جزائر بني مزغنة ازدهار المدن العربية، ثم أخذت تنحدر نحو الاضمحلال أثناء الاختلافات الإسلامية في شمال أفريقية وفي بلاد الأندلس ، وانتهزت قبيلة الثعالبة من المهاجرين العرب هذه الفرصة للانتقال من السهل المتيجي إلى مدينة الجزائر وكونت دويلة كانت تمتد من الدلس شرقًا إلى مدينة شرشال غربًا ، مركزها مدينة الجزائر وحينذاك وطد الثعالبة علاقاتهم بالأوربيين، وكانت القرصنة في هذه الفترة التاريخية تسير جنبًا إلى جنب مع القرصنة بالنسبة لأغلب الدول الأوربية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، وعدت مدينة الجزائر سنة ١٣٠٠م من بين أهم أسواق النخاسة التي كان القسيس رايموند ألبيرت يقصدها لشراء المسيحيين ثم تحريرهم، وأثرت قبيلة

الثعالبة ومدينة الجزائر من هذه التجارة حينًا من الدهر وتكونت فيها طبقة من الأثرياء كان بيدها مقاليد الحكم.

وفي نفس الفترة بدأت تؤم مدينة الجزائر جماعات من المهاجرين الأندلسيين الذين جاءوا إلى شمال أفريقيا بعد ضعف وسقوط دويلاتهم في شبه جزيرة أيبيريا، وانقسامهم إلى أحزاب وشيع ضعفت أمام العصبية المسيحية التي أخذت تستولي شيئًا فشيئًا على دويلات ملوك الطوائف، وتدفع بالمسلمين إلى شمال أفريقيا، واشتدت هجرة الأندلسيين بعد سقوط مدينة غرناطة سنة ١٤٩٢م، ثم بعد قرار ١٦٠٩ الأسباني الذي ينص على أن كل مسلم أو من كان مسلمًا بأي شكل من الأشكال وفي أي عهد من العهود يجب أن يغادر أسبانيا في الحين، وإلا كان مصيره الإعدام.

وتركز البعض منهم في مدينة الجزائر، وكانت لهجرتهم أثرها الواضح على عمران المدينة، حيث زادوا من عدد سكانها، ونقلوا إليها على أكتافهم ما وصلوا إليه من تطور حضاري في العمارة والتنظيم العمراني بصفة عامة، من شبه جزيرة أيبيريا.

ومن الهجرات التي جاءت إلى مدينة الجزائر في العصور الوسطى نلاحظ هجرة اليهود أيضًا التي نتجت عن العصبية المسيحية، وكان لها أثرها على سياسة واقتصاد المدينة في عهد الأتراك بالخصوص، ثم كانت هجرات العناصر التركية بعد أن قضى عروج على مملكة الثعالبة سنة ١٥١٦م، وإلى العنصر التركي يضاف عنصر اللفيف الأجنبي الذي تكاثر بمدينة الجزائر في عهد الأتراك، ونقصد باللفيف الأجنبي: أولئك العبيد المسيحيين الذي تجمعوا على طريق القرصنة وهي حرفة ضرب فيها الأتراك بسهم الأسد حيث جمعوا من

الأسبان والإيطاليين والإنجليز والبرتغاليين والألمان وغيرهم من الدول الأوربية المسيحية أعدادًا كبيرة من البشر بلغت نسبتهم في بعض الفترات التاريخية ٣٠ ٪ من مجموع سكان المدينة، وقد حولهم الأتراك إلى عبيد، وما كانوا يطلقون سراحهم إلا بعد الفداء من ذويهم أو من المؤسسات الدينية المسيحية التي أنشأتها بعض الكنائس الأوربية لهذا الغرض مثل جمعية لازاريت التي أسسها فانسان دي بول سنة ١٦٣٣م وكان الأب ليفاشي من أشهر رجالها الذي قذفه الأتراك بالمدفع سنة ١٦٨٣م بسبب خبثه وجاسوسيته الدنيئة على عورات سكان مدينة الجزائر.

وكان من مهام هذه الجمعيات الدينية المسيحية جمع النقود من أوربا للفداء، وإقامة الصلوات وتنظيم الحملات الصليبية، وبناء المراكز الصحية للأسارى المسيحيين، وتثبيت الإيمان في قلوبهم، وكثيرًا ما كان الأسارى المسيحيون في الجزائر يعتنقون الإسلام طواعية وبالتالي كان يمكنهم أن يرتقوا إلى مناصب الأتراك، وربما أصبح منهم داي البلاد، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها الباشا علج علي (١٥٦٨ – ١٥٨٧م) الذي أخذ من سواحل كالاباريا بإيطاليا وعمره ١٨ سنة، فاعتنق الإسلام بالجزائر، ثم أخذ يرتقي في مناصب الدولة إلى أن حاز مرتبة بيرلرباي سنة ١٥٦٨م، ومثال أيضًا علي رمضان باشا فهو ساردي الأصل، وحسين قبطان بندقي الأصل، وجعفر داي مجري الأصل، وحسين فينزيانو بندقي الأصل، ومعنى هذا أن سكان مدينة الجزائر كانوا خليطًا في العهد التركي الذي ذاب فيه العنصر العربي كما ذاب في بقية السلطنة العثمانية، وفقد قيمته الاجتماعية، وانزلقت شخصيته.

ولقد مرت مدينة الجزائر في تاريخها العمراني بمراحل عدة شأنها في ذلك شأن المدن العتيقة، فقد مرت بمرحلة الولادة التي كان فيها المنزل الواحد يمثل

نواة المدينة، ثم بدأت تتجمع منازل أخرى من غير نظام حول المسكن الأول، ثم جاءت مرحلة الطفولة التي تميزت بظهور شوارع تربط بين المنازل التي ليس لها تخصص وظيفي، فالدكان في أسفل المنزل وصاحبه يسكن في نفس الطابق وفوقه، كما أن صاحب الحركة كالحداد مثلاً كان يباشر حرفته حيث يسكن، ومعنى هذا أن منازل مدينة الجزائر في مرحلة الطفولة كانت تجمع بين عدة وظائف فتمثل المأوى وهي في نفس الوقت ورشة للعمل.

ثم جاءت مرحلة الشباب وهي الفترة التي ازدهرت فيها حضارة البحر الأبيض المتوسط وزاد النفوذ الفينيقي في شمال أفريقية، وفيها أخذت الأحياء السكنية تتميز عن الأحياء التجارية، وأخذ الساكن بالمدينة يقطع مسافة بين محل سكناه ومحل عمله، ثم كانت مرحلة النضج التي تتفق وما بعد القرن الأول للميلاد وتستمر إلى أواسط القرن الرابع للميلاد؛ لتدخل في مرحلة الشيخوخة فيها نالها التخريب، وأثرت عليها ثورات الأهالي ضد الجور الروماني.

وظلت على هذه الحالة إلى أن دخلها العرب المسلمون، لكن مدينة الجزائر لم تستعد شبابها إلى أن أعاد تجديدها بلكين سنة ٩٦٠ م ثم في القرن ١٦ للميلاد بعد أن دخلها الأتراك واتخذوها عاصمة للبلاد، حينئذ عادت من أمهات مدن شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط وسيدة البلاد الجزائرية، وظلت محافظة على مركزها إلى يومنا هذا.

يقر G. YVER

الجزائر[1]

الجزائر مدينة على الساحل الشمالي الأفريقي، وهي قصبة بلاد الجزائر، ومقر الحاكم العام ورؤساء الإدارات العسكرية والمدنية المختلفة في هذه المستعمرة، وهي على خط عرض ٤٧ - ٣٦ شمالاً، وخط طول ٤٤ شرقًا (بالنسبة لخط طول مدينة باريس)، ويبلغ عدد سكانها في إحصاء عام ١٩٠٦م، ١٤٤.٦٠٠ مائة وأربعة وأربعين ألفًا وستمائة نسمة[2]، ولسنا نعلم شيئًا محققًا عن مدينة الجزائر قبل أن يستقر الرومان في هذا الجزء من أفريقية، اللهم إلا أنهم أنشئوا فيه محلة تعرف باسم إيكوزيوم ICOSIUM .

وكل ما نستطيع أن نفترضه بالاستناد إلى الاكتشافات الأثرية والأسطورية التي تروى عن تأسيس إيكوزيوم على يد عشرين من أهل هرقل (انظر SOLINEUS ج٣، ص ٣)، هو أن محلة تجارية فينيقية أو قرطاجنية كانت قائمة من قبل في هذا الموضع من الساحل الأفريقي، يضاف إلى هذا أن المعلومات التي لدينا عن إيكوزيوم قليلة جدًا، فلسنا نعرف عنها إلا أنها أصبحت محلة لاتينية أيام فيسبسيان VESPASIAN وأن فرمس FIRMUS أمير البربر استولى عليها عام ٣٧١ أو ٣٧٢، ولكنه ردها إلى الرومان بعدئذ، ثم أصبحت مقر أسقفية يجلس على كرسيها مع غيرها من البلاد الأسقف فيكتور VECTOR

---

(١) عن دائرة المعارف الإسلامية، النص العربي، ج ٦، ص ٤٠٧.

(٢) لاحظ أن هذا المبحث كتب أيام الاستعمار الفرنسي، وأما اليوم فلقد تكاثر عدد السكان بهذه المدينة بحيث أصبح يقدر بزهاء مليوني نسمة، كما أنه من الطبيعي أن يتغير نظامها الإداري، والسياسي إلى خلاف ما جاء به الكاتب في هذا المقال.

الذي اشترك في المجمع المنعقد في قرطاجنة عام ٤٨٤ بأمر من الملك هنريك Huneriv الوندالي، ولم يرد اسم إيكوزيوم في كتب التاريخ بعد القرن الخامس.

وليس من شك في أن المدينة التي كانت تشغل ما يقارب مساحة الجزائر في عهد الترك، دمرت في أثناء الفتح العربي في القرن السابع، فهجرها أهلها، وكانت أطلال الأبنية القديمة لا تزال تشاهد في مكانها في القرن الحادي عشر.

ويذكر البكري في كتابه المسالك (ترجمة ده سلان DESLANE، ص ١٥٦) أنه كان في جزائر بني مزغني أطلال قديمة وأزاج عتيقة، وملعب أرضه من الفسيفساء وجدار كنيسة مدير، وقد كشف منذ عام ١٨٣٠م عن مبانٍ أخرى ونقوش. انظر: (ROTPUS INSCRIPT LATIN) ج ٨ ب، ج ١٥، والملحق، (ATLAS ARCHÉOLOGIQUE DE L'ALGÉRIE) العدد الأول، اللوحة رقم ٥ والتعليق عليها.

وظل موضع إيكوزيوم مهجورًا إلى أواسط القرن العاشر، وإن كانت قبيلة من بربر صنهاجة تنتمي إلى بني مزغني قد استقرت قبل ذلك بجوار هذه البلدة في وقت لا يعرف على التحقيق، وقد استطاع بلكين في أيام أبيه الأمير زيري بن مناد (٩٤٥ - ٩٧١ م) أن يحصل على إذن ببناء مدينة في هذا الموضع سميت جزائر بني مزغني (ابن خلدون ترجمة ده سلان جـ ٢، ص ٦) لوجود جزائر صخرية صغيرة على مسافة من الساحل تكون أمامها حاجزًا طبيعيًّا.

وقد بلغت المدينة في أواخر القرن العاشر درجة لا بأس بها من الازدهار، كما يتضح ذلك من وصف ابن حوقل لها، فقد كتب هذا الرحالة يقول: (وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضًا، وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة، وشربهم منها ولها بادية كبيرة، وجبال فيها

من البربر كثرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم، والسمن والتين وما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها، ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها، فإذا نزل بهم عدو لجئوا إليها، فكانوا في منعة وأمن ممن يحذورنه ويخافونه. (ابن حوقل، ترجمة ده سلان المجلة الأسيوية، عدد فبراير ١٨٤٢م، ص ١٨٣).

ويشير البكري في وصفه لأفريقية (كتابه السابق) إلى مدينة الجزائر، فيقول أنها: (مرسى مأمون يقصد إليه أهل السفن من أفريقيا والأندلس وغيرهما).

ويتصل تاريخ الجزائر اتصالاً وثيقًا بتاريخ المغرب الأوسط، ذلك أن هذه المدينة قد خضعت في الفترة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر لسلطان الفاتحين والمطالبين بالملك الذين تنازعوا هذه البلاد فيما بينهم. وقد كانت جزءًا من مملكة بني حماد، ثم استولى عليها المرابطون ودانت من بعدهم لسلطان الموحدين عام ١١٥٢م.

ولما حاول بنو غانية أن يعيدوا ملك المرابطين في أفريقية استولى علي بني غانية على الجزائر عام (١١٨٥م) ولكنه لم يحتفظ بها طويلاً، فقد ثار الأهلون في وجهه، وقدموا طاعتهم إلى المنصور، ولكن يحيى بن غانية استطاع بالرغم من هذا كله، أن يحتل المدينة سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦م) ثم استعادها المأمون الموحدي عام ٦٢٨ هـ (١٢٣م). وفي عام ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ - ١٢٣٥ م) وخضعت لسلطان أحد الحكام الحفصيين، وما وافت سنة ٦٦٤ هـ (١٢٥٥ - ١٢٥٦م) حتى كان أهل الجزائر قد طردوا عامل سلطان تونس، وأنشئوا ضربًا من الحكم الجمهوري، وظلوا مستقلين إلى عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م).

وفي هذه السنة استطاع عامل بجاية الحفصي أن يخمد نار الثورة بعد أن فشل في ذلك مرتين من قبل، ولما أسس أبو زكريا الحفصي دولة مستقلة في بجاية اعترف أهل الجزائر بسلطان هذا الأمير (٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م).

ولكنهم مع ذلك لم يخلصوا له الإخلاص كله فقد اغتصب السلطان رجل بن علان (١٣٠٧م) وطرد عمال سلطان بجاية، وصمد أربع عشرة سنة للحملات التي وجهت إليه، حتى هزمه في نهاية الأمر أبو حمو الأول صاحب تلمسان، فقد حاصر المدينة واضطرها إلى التسليم، وضمها إلى ملكه (٧١٢ هـ - ١٣١٢ ، ١٣١٣م).

واستطاع المرينيون في الفترة الواقعة بين ١٣٤٧ و ١٣٥١ التي قام فيها أبو الحسن بأعمال جليلة لهذه الدولة، وكذلك في عامي ١٣٦٠، ١٣٩٣م أن يستولوا مرارًا على المدينة، وذلك في أثناء حروبهم مع بني عبد الواد.

أما أبو حمو الثاني فقد استعادها مرتين ولكنه لم يوطد أقدامه فيها، ذلك أن الضرائب التي فرضها رجاله على أهلها وأكرهوهم على دفعها قد أثارت عليهم الأهليين، فاستغاثوا بأبي زيان صاحب بجاية وبعبد العزيز المريني، وأفاد الثعالبة، وهم قبيلة من عرب متيجة، من الفوضى التي عمت البلاد في أثناء هذا الاضطراب، فاستولوا على المدينة وأخضعوها لسلطانهم فعلاً، وكانوا قبل ذلك قد طردوا بني صنهاجة من سهل متيجة ودفعوهم إلى إقليم أطلس.

واضطر سليم بن إبراهيم أحد أمرائهم إلى النزول عن مدينة الجزائر، وأقسم يمين الولاء إلى الزيانيين ثم إلى الحفصية ثم إلى المرينيين، وكان يحنث في يمينه كل مرة حتى قتله أبو حمو الثاني في عام ١٣٧٨م، وكان قد عفا عنه من قبل أكثر من مرة، وكانت مدينة الجزائر في ذلك الوقت قد أصبحت قصبة

مملكة الزيانية أو كادت، وخاف أبو حمو الثاني من دسائس ولده أبي تاشفين، فرأى أن ينقل ملكه من تلمسان إلى الجزائر، ولكنه اضطر إلى الانصراف عن هذا الرأي.

وتجددت الاضطرابات في المدينة في القرن الخامس عشر، وفي عام ١٤٣٨م ثار المطالب الزياني بالعرش، واسمه أبو زيان محمد في وجه صاحب تلمسان، واستولى على مدينة الجزائر بعد حصار طويل، واتخذها قصبة دولة تضم متيجة والمدية ومليانة وتنس، واتخذ لنفسه شعار الملك، ولقب نفسه بالمستعين بالله، ولكن شدته في الحكم أثارت عليه أهل الجزائر، فقتلوه غيلة في سبتمبر من العام نفسه.

وظلت الجزائر من ذلك الوقت إلى استيلاء الترك عليها أشبه بجمهورية بلدية صغيرة يقوم عليها جماعة من أعيان المدينة، تحت حماية الثعالبة الذين اتخذوا هذه الحماية وسيلة لقضاء مصالحهم الشخصية، ولم تكن مدينة الجزائر البربرية (لخصنا تاريخها فيما سلف) في واقع الأمر إلا سوقًا تجارية متوسطة الحجم فيما سلف ميناؤها بجوار متيجة هو وحده الذي جعل لها شيئًا من الأهمية، ولم يكن يؤمها الملاحون المسلمون وحدهم، بل ظل يرتادها تجار النصارى كذلك، فكانت أساطيل البندقية وفلورنسة -في القرن الخامس عشر- ترسو في هذا الثغر كل سنة (انظر MAS - AATRIE : في كتابه (المعاهدات بين المسيحيين والعرب RTAITES ENTRE CHETIENS) المقدمةوالتاريخ نفسه، ص ٣٣٠، ٣٣٣).

ولم يكن سكانها يتميزون بنبوغ عقلي أو ذوقي فني، وقلما ظهر من بينهم أدباء، وفي ذلك يقول محمد العبدري (عاش في النصف الثاني من القرن السابع

الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي): إنه لما بلغ الجزائر سأل:هل فيها علماء من ذوي الحجة؟ ولكنه وجد نفسه كالباحث عن فحل حصان عشار أو بيض الأنوق كما يقول المثل، ويجب أن نستثني من هذا الحكم العام سيدي عبد الرحمن الثعالبي المرابطي، الذي اشتهر بولايته وتفقهه في الدين (٧٨٩ - ٨٧٣ هـ ؛أي: ١٣٨٧ - ١٤٦٨م) وقد أصبح هذا الرجل التقي الورع، فيما بعد، ولي مدينة الجزائر وحاميها، ولا يزال الناس يعظمون ذكراه تعظيمًا كبيرًا.

وكانت مساجد المدينة جميعًا مبانٍ قائمة عاطلة من الزينة، وصحونها غير منتظمة، تغطت سقوفها بالآجر الأحمر، ولا يزال بعض هذه المساجد قائمًا إلى الآن، ومن هذه مسجد سيدي هدي، ومسجد سيدي رمضان، وأهمها كلها الجامع الكبير، الذي ورد ذكره في نقش يرجع إلى عام ٤٠٩ هـ (١٠١٨م) وقد أنشأ فيه أبو تاشفين صاحب تلمسان منارة في عام (١٣٢٤م).

وفي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، تعرضت الجزائر وسائر مدن الساحل الأفريقي لكثير من المتاعب على أثر استعادة الأسبان بلاد الأندلس.

نعم إن سكانها أخذوا يزدادون بالتجاء كثير من المهاجرين اليهود والمغاربة الفارين من الأندلس إليها ، ولكن المسلمين في ذلك الوقت لم يجدوا بدًّا من الوقوف في وجه النصارى، وقد صمم الملوك الكثالكة، أن يخضعوا لسلطانهم جميع بلاد الشاطئ الشمالي لأفريقية، وقد تنبه سكان الجزائر إلى ما يحدق بهم من خطر داهم على أثر استيلاء بدرو نفارو PEDRO ، واكسيمينس XIMENES على مدينة وهران (١٥٠٩م) واحتلال بجاية (١٥١٠)، فلما عجزوا عن مقاومة الجيوش المسيحية أعلنوا رغبتهم في التسليم، ووعدوا أن

يعترفوا بسلطان الملك الكاثوليكي عليهم، وأن يدفعوا له جزية سنوية، ويطلقوا سراح الأسرى المسيحيين، وأن يقلعوا عن أعمال القرصنة، ويمنعوا أعداء أسبانيا من الالتجاء إلى مينائهم (٣١ يناير ١٥١٠م).

ورحل الشيخ سليم التومي نفسه ومعه جماعة من الأعيان إلى أسبانيا؛ ليقسموا يمين الطاعة ويقدموا الهدايا للملك فريديناد، ووضع بدرو نفارو PAFRO NAVARRO يده على جزيرة بنو pemon التي لا تبعد عن مرمى المدفع من الجزائر؛ لكي يضمن تنفيذ الشرط الخاص بأعمال القرصنة وليراقب أهل المدينة.

وقد شيد حصنًا على هذه الجزيرة، ووضع فيها حامية من مائتي رجل، ولما ضاقت سبل العيش بأهل الجزائر بعد القضاء على قرصنتهم لم يطيقوا صبرًا على هذه الأحوال، وحاولوا الخلاص من نير الإسبان، وقد أفادوا من الاضطراب الذي عم بلاد البربر بأسرها على أثر نبأ موت الملك فرديناند الكاثوليكي إليها، فطلبوا إلى سليم التومي أن يرسل وفدًا إلى القرصان التركي أوروج الذي كان يسيطر على جيجل منذ عام ١٥١٣م يلتمسون منه العون.

فلما جاء إلى الجزائر استقبله أهلوها استقبال المنقذ لحريتهم، ولكنه عجز عن احتلال جزيرة بينو penon ، وقد تخلص القرصان من سليم التومي بقتله، ونادى به جنده سلطانًا على الجزائر، لكن الجزائريين لجئوا إلى الثعالبة والأسبان للتخلص من الترك، وكشف أوروج مؤامرتهم وقبض على زعماء الحركة وقتلهم، وألقى بمن ارتاب في أمرهم وبالمتذمرين من أهل المدينة في غياهب السجن، وأعدمهم.

وهكذا قضى على كل مقاومة، وبقي أوروج سيدًا على الجزائر، وعبثًا حاول الإسبان انتزاع المدينة منه، وفشلت الحملتان اللتان قادهما على المدينة الدون ديجوده فيرا DON DIEGO DE VERA (١٥١٦م)، والدون يوجو ده منكاده DON UGO DE MONKADA (١٥١٩م).

بيد أن الأمر لم يكن ليستتب للترك طالما كانت جزيرة بينون PENON باقية في يد النصارى، وتأخر استيلاء الترك على القلعة الإسبانية أمدًا طويلاً، لموت أوروج وللصعاب المتوالية التي واجهها أخوه وخلفه خير الدين في أوائل عهده.

وما وافت سنة ١٥٢٩م حتى كان قد قضى على خصومه جميعًا، وعادت الجزائر فاستقبلته من جديد بعد أن كانت القبائل قد أخرجته منها من خمس سنين مضت، وعندئذ صمم على القضاء على الاحتلال الأسباني بقضه وقضيضه، فهاجم بينيون PENON في أول مايو ١٥٢٩م، ولم يتلق الدون مارتين ده فرجاس حاكم الجزيرة DON MARTIN VARGAS من أسبانيا أمدادًا أو مؤنًا، ومع ذلك صمد لمدافع الأعداء اثنين وعشرين ويومًا وفي ٢٧ مايو هوجمت القلعة، ولم يجد فرجاس، الذي كان يدافع عنها، مناصًا من التسليم بعد أن لم يبق معه من رجاله سوى خمسة وعشرين رجلاً قادرين على القتال.

وأمر خير الدين بضربه حتى مات، وهدمت قلعة PENON وأخذت بعض أنقاضها لبناء سد يصل بين الجزر الصغيرة القائمة عند مرسى السفن في الميناء، وبهذه الوسيلة، أقيم عند مدخل المرسى ذلك الرصيف الذي لا يزال يسمى إلى الآن باسم رصيف خير الدين، وأضيفت إليه فيما بعد ربوة قائمة، فحمى

الرصيف والربوة الميناء من الرياح الشمالية والشمالية الغربية، وجعلاها مرفأ للسفن في فصل الشتاء، فأبصحت لا تخشى العواصف، ولا غزوات النصارى، ونصبت المدافع في مواجهة البحر، وأقيم سور حول المدينة من ناحية الأرض فأصبحت المدينة بذلك أمنع من عقاب الجو.

وقد بدأ خير الدين هذه التحصينات جميعًا وأتمها خلفاؤه البكربكية فيما بعد، وكان رسوخ أقدام الترك في مدينة الجزائر تهديدًا دائمًا للدول المسيحية، ولذلك أخذ شارل الخامس على نفسه أن يقوض سلطانهم، وكان قبل ذلك قد استولى على تونس في عام ١٥٣٥م، ونصب عليها أميرًا يدين بالطاعة للأسبان، ثم أخذ يفكر في تحقيق رغبته باحتلال مدينة الجزائر، وبعد مفاوضات طويلة مع بعض أمراء البلاد ومع خير الدين نفسه - عبر شارل الخامس إلى أفريقية في سبتمر سنة ١٥٤١م، وكانت الحملة التي قادها الإمبراطور بنفسه، تتألف من عمارة بحرية تحمل ١٢.٣٠٠ بحارًا تحت إمرة أندرية دوريا ANDREA DORIA ، وجيشًا بريًّا عدته ٢٤.٠٠٠ جندي.

ولم يكن شار الخامس أسعد حظًّا من سلفيه فيرا، ومونكاده، فقد نزل إلى البر في الثالث والعشرين من أكتوبر عند مصب نهر الحراش، ونجح أول الأمر في توطيد قدميه على أكمة كدية الصابون التي تشرف على المدينة، ولكن القوات المحصورة كرت على جنوده في أثناء عاصفة هوجاء هبت على مراكزهم ليلاً في الرابع والعشرين من أغسطس، فاضطرب الأمر بينهم، وكادت الضربة تكون القاضية لولا شجاعة فرسان مالطة، الذين ردوا المهاجمين إلى المدينة، فأسرع حسن أغا إلى إقفال أبوابها.

وقد استطاع أحد الفرسان المالطيين، واسمه سافنياك SAVIGNAC أن يغمد خنجرًا في باب عزون، وثارت في الليلة نفسها عاصفة دمرت مائة وأربعين من سفن الإسبان، وأفقدت الجيش جميع مؤنه، وأصبح الانسحاب أمرًا محتومًا واستعاد الإمبراطور رأس ماتيفو CAPE MATEFOU بعد أن لقي من الصعاب ما لم يسمع بمثله من قبل، ومن هناك أبحر فلول جنده، وعادت هذه الحملة التي أريد بها تدمير مدينة الجزائر بالفائدة على قرصان البربر، فقد غنموا منها مغانم كثيرة جدًّا ، وظنوا من ذلك الحين أنهم لا يغلبون، وأخذ الجزائريون بعدئذ يمعنون في أعمال القرصنة، كما يشتهون، وظلوا كذلك حتى عام ١٨٣٠م.

ولكن أعمال السلب والنهب القديمة تغيرت طبيعتها الأولى، فقد استحالت من جهاد الكفار إلى حرفة وضيعة لم يعد للجزائريين حرفة سواها، وقد أغنت القرصنة خزائن الحكومة التي كانت تشاطر القرصان غنائمه، كما أغنت الأفراد الذين كانوا يشتركون في تجهيز السفن.

وأغنت المحظوظين جميعًا، بما أفادوا من سخاء القرصان، وأصحاب السفن، وقد اجتذبت هذه الحرفة المغامرين من جميع البلدان فنزحوا إلى العاصمة، وكان معظمهم من أصل مسيحي، وضعوا العمامة على رءوسهم ليشبعوا شهوة السلب والنهب، أو لذة المغامرة.

وقد أدت فعال القراصنة وما وقع على الملاحين النصارى من اعتداء فظيع، وتجاهل المعاهدات المعقودة مع الدول المسيحية أدى ذلك كله إلى إثارة المسيحيين إلى الأخذ بالثأر، ولكن مدينة الجزائر نفسها ظلت بمنجاة من انتقامهم، ، ولم توفق المحاولة الجريئة التي قام به الملاح الأسباني دون جوان

جاسكون DON JUAN GASCON ، في عام ١٥٦٧م للنفاذ إلى المدينة وإطلاق سراح الأسرى، وإحراق سفن القراصنة، وقد ضرب الإنكليز المدينة بمدافعهم عدة مرات (في أعوام ١٦٢٢، ١٦٥٥، ١٦٧٢م) ثم ضربها الدنماركيون في عام ١٧٧٠م، ولكن ذلك لم يجدهم نفعًا.

وكانت حرية الملاحة في البحر المتوسط تهم فرنسا بنوع خاص لموقعها الجغرافي وأهمية تجارتها في شرق البحر المتوسط، فحاولت مرارًا أن تؤدب الجزائريين، فضربت وحدات الأسطول الفرنسي الحاجز البحري في عام ١٦٦١م – ١٦٦٥م، بغير طائل، وقاد دوكسين DUPUESNE حملتين بحريتين على مدينة الجزائر عامي ١٦٨٢، ١٦٨٣م، وأطلقت إحداهما النار على المدينة في الفترة الواقعة بين ٢٠ أغسطس ٢٠ سبتمبر من عام ١٦٨٢م، فأدى ذلك إلى تدمير خمسين منزلاً، وقتل خمسمائة من السكان، وفي المرة الثانية في (يونية ويولية ١٦٨٣) أصيبت المدينة بأضرار مادية جسيمة، ولكنها أثارت الاضطراب بين الأهليين، فذبحوا الفرنسيين المقيمين بينهم بما فيهم القنصل الأب ليفاشه AEVACHER الذي شد إلى فوهة مدفع.

ولكن حملة ثالثة أرسلت في عام ١٦٨٨م بقيادة ديستريه d estrees كانت أعظم من الحملتين السابقتين خطرًا على الجزائريين، فاضطرتهم إلى طلب الصلح، ولكن أموالاً طائلة قد ضاعت، وأرواحًا كثيرة قد أزهقت في هذه الحملات، مما جعل تكرارها غير مأمون العواقب.

وكانت فرنسا في القرن الثامن عشر كلما بدا لها ما تشكو منه من فعال أمراء الجزائر تقصر همها على مظاهرات بحرية صغيرة.

أما أسبانية فقد حاولت بعد أن أعلن الداي محمود عثمان عليها الحرب (١٧٧٣م) أن تضرب الجزائر وسيرت لذلك أسطولاً من عشرين بارجة، وأربع وعشرين مدمرة صغيرة، وجيشًا من خمسة وعشرين ألف مقاتل، بقيادة أمير البحر دون بدرو جاستجو fon pedro vastejo ، والقائد أوريللي o reilly ، نزلت القوات الإسبانية إلى البر عند مصب نهر الحراش في الثامن من يولية عام ١٧٧٥م، ولكن العدو حاصر الحملة، وكان أكثر من رجالها عددًا، ولم تكن هي نفسها حسنة القيادة، فاضطرت إلى الانسحاب في اليوم التالي بعد أن فقدت ٢٨٠٠ من رجالها.

ولم يعوض هذه الخسارة تلك الغارة البحرية الموفقة التي قادها أمير البحر الأسباني الدون أنجلو برسلو fon angelo becelo والتي ضربت مدينة الجزائر بالمدافع في عام ١٧٨٣م، ونشطت القرصنة من جديد نتيجة لحروب الثورة الفرنسية والإمبراطورية التي وجهت عناية الدول البحرية وجهة أخرى.

ثم بدا بعد عام ١٨١٥م أن الدول الأوربية قد اعتزمت أن تقضي نهائيًا على هذه الحالة التي لم تعد تطيق صبرًا عليها، وأرسل اللورد أكسموث exmouth في ١٥ مايو ١٨١٦م يبلغ الداي قرارات مؤتمر فينا الخاصة بمنع تجارة الرقيق، فلقي في الجزائر معاملة سيئة قررت على أثرها الحكومة البريطانية يؤيدها الرأي العام أن تغسل هذه الإهانة، وظهر أمام المدينة أسطول مؤلف من اثنتين وثلاثين سفينة تحت إمرة اللورد أكسموث يعاونه أمير البحر الهولاندي كبلين capellen ودخل إلى الميناء تحت حماية الراية البيضاء، وأطلق النار على المدينة فقتل خمسمائة من الترك، وحطمت مدفعية السواحل، وجرح ألفًا من السكان.

بيد أن الجزائريين هبوا للدفاع عن أنفسهم وأوقعوا بأسطول الحلفاء خسارة بلغت ٨٨٣ رجلاً (٢٧ أغسطس ١٨١٦م).

وحدثت غارة بحرية أخرى بقيادة أمير البحر نيل neal في يونية عام ١٨٢٥م، لخلاف حدث بين الداي حسين والحكومة البريطانية، ولكن المدينة لم تصب من جرائها بضرر كبير.

واتضح من هذه الحملات المتكررة أن في وسع مدينة الجزائر أن تقاوم كل حملة بحرية خالصة مهما تكن قوتها، فلما قررت الحكومة الفرنسية أن تغسل الإهانة التي لحقت بالقنصل ديفال Deval على يد الداي حسين، بعد أن فشلت في حصارها البحري ثلاث سنين كاملة، عادت إلى الخطط التي وضعها القائد بوتان BOUTIN من سلاح المهندسين العسكريين.

وكان نابليون قد أرسل هذا الضابط في عام ١٨٠٨ لاختبار الحصون الدفاعية في الجزائر، فاقترح أن يكون الهجوم على المدينة من البر، وأن يوجه أولاً إلى حصن الإمبراطور، وهو الحصن الذي يشرف على المدينة ويسيطر عليها، وقد أعادت هيئة أركان الحرب الفرنسية النظر في هذه الخطة وأكملتها، ووافقت عليها الحكومة الفرنسية، وعملت على تنفيذها.

وفي ١٤ يونية عام ١٨٣٠م نزلت الحملة الفرنسية عند سيدي فروج على بعد أربعة عشر ميلاً غربي الجزائر، وهزمت في التاسع عشر منه جيش الداي فوق هضبة سطاوالي، ثم ظهرت في التاسع والعشرين من هذا الشهر أمام حصن الإمبراطور وأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على هذا الحصن في فجر اليوم الرابع من يولية، وفي الساعة العاشرة من ذلك اليوم نفسه احتلته بعد أن دمرت بعض أجزائه التي وضعها القائد العام، ودخل القائد المدينة على الفور.

وكان قيام سيادة الترك وبقاؤها هذا الزمن كله في مدينة الجزائر قد جعل هذه المدينة من أهم المدن الممتازة في البحر الأبيض المتوسط، فقد أصبحت هذه السوق البربرية الصغيرة مدينة زاهرة تكتظ بالسكان، وكان مدينة الجزائر التركية تمتد على المنحدرات الصخرية من القصبة إلى شاطئ البحر، وقد وصفها HAEDO وصفًا مسهبًا، وشبه محيطها بقوس ذي وتر.

فالقوس هو الجدران، وشاطئ البحر هو الوتر، وكان محيط المدينة إذا قيس من خارج أسوارها حوالي ١٠.١٧٠ قدمًا، وكانت تحميها الحصون التي بناها خير الدين وأكملها خلفاؤه وجعلتها غاية في المنعة.

وكانت هذه الحصون تتألف من سور ومن القصبة ومن عدد معين من الحصون وبطاريات المدافع، وكان ارتفاع السور يتراوح بين ست وثلاثين واثنين وأربعين قدمًا، ويحيط به خندق وتحميه أبراج.

وكانت له خمسة أبواب: باب البحر، وباب السماكين إلى جانب المرفأ، وباب عزون في الجانب الجنوبي من المدينة وبجواره وقعت حوادث الإعدام، وباب الواد في الجانب الشمالي، حيث أعدم النصارى واليهود، ثم الباب الجديد في الناحية الجنوبية الغربية، ويخرج منه الطريق المؤدي إلى حصن الإمبراطور.

أما القصبة فقد بنيت في أعلى موضع بالمدينة وحلت منذ ١٥٥٦م محل القلعة البربرية القديمة التي كانت تشغل موضعًا أقل منها ارتفاعًا. وأصبحت القصبة مقر الدايات من عام ١٨١٦م عندما هجر علي خوجة الجنينة مقر أسلافه؛ لأنها تقوم في المدينة السلفى وتتعرض بذلك لهجمات الانكشارية المفاجئة، وكانت القصبة تضم ثكنات الجنود ودور الصناعة، وبيت المال ومنازل الأمير الخاصة.

وفي خارج المدينة على مكان مرتفع يشرف على القصبة نفسها، يقوم برج الطاوس (ويسمى بالتركية سلطان قلعة، وبالإنجليزية قلعة الإمبراطور ENPEROR,S FORT)، وقد شيده حسن أغا في الموضع الذي نزل فيه شارل الخامس.

وكان يحمي واجهة المدينة من ناحية البحر البرج الجديد وبرج باب الواد، وبرج الإنجليز، وبرج باب عزون، ومدافع الربوة التي زيد عددها وضمت إليها مدافع جديدة بعد غارة أوريلي في القرن الثامن عشر وغارة اللورد أكسموث في القرن التاسع عشر، ولا تقل عن ١٨٠ مدفعًا من ذات العيار الكبير.

وتمتد المدينة في الداخل على سفح التل، فترى البيوت المطلية بالجير الأبيض قائمة على (الجبل) كما يسميه الأهلون إلى الآن، وهو أعلى أجزاء التل، وهي تستند إلى قوائم من الخشب، ويلتصق بعضها ببعض، وتبرز طبقاتها العليا واحدة فوق الأخرى تلتقي أو تكاد عند القمة وتلف حول السفوح، دروب منحدرة ذات درج، تحجب الأقبية عنها النور، وأغلبها ضيق جدًا لا يسمح لاثنين بالمرور إلا إذا التصقا بظهريهما إلى الجدار.

أما الجزء الأسفل من المدينة، وهو الذي يخترقه الشارع الوحيد الجدير بهذا الاسم، والذي يصل بين باب الواد وباب عزون منذ نهاية القرن السادس عشر، فقد كان هو المكان المختار لسكنى رؤساء القراصنة، وكانت مساكنهم الفخمة المتجمعة بالقرب من البحر، يسكنها البحارة الذين يسيطرون عليهم، وكانوا من موضعهم هذا يحمون المرفأ، وكانت الربوة ربوتهم، وبذلك كان هذا الحي بأسره كأنه دار صناعة لهم، وكانوا فيه آمنين من اعتداء الجنود المفاجئ

عليهم (DE GRAMMONT: HESTOIRE D ALGER SOUS LA FOMINATON RURQUE جـ ١٠ ص ١٢٧)، وهناك قامت قصور أشهر الرؤساء في القرن السابع عشر أمثال مامي أرنوط، وسليمان رئيس، ومراد رئيس، وعربجي علي بجنين، وفي أيضًا شيدت المساجد التي أنفق عليها هؤلاء المغامرون جانبًا من أموالهم، والحق أن دور العبادة كانت كثيرة في مدينة الجزائر القديمة.

فقد كان بها في أواخر القرن السادس عشر مائة مسجد وخلوة وزاوية، وكان بها قبيل الفتح الفرنسي ثلاثة عشر مسجدًا جامعًا، ومائة وتسعة مساجد صغيرة، واثنتان وثلاثون خلوة وخمس زوايا.

وكان غالب هذه الدور متوسط الحجم، وليست له أهمية فنية كبيرة، وكان أشهر هذه المساجد بعد المسجد الكبير الذي يرجع تاريخه إلى العصر البربري هو المسجد الجديد (ويسمى الآن جامع بركة السمك MOSQUEE DE LA PECHERIE)، وقد شيد في عام١٦٦٠ م ليتعبد فيه الأتراك من الحنفية ، ثم مسجد كجاوة، وهو مزين بزخارف متعددة الألوان، ومسجد سيده، ومسجد حاجي حسين باشا، ومسجد الأندلسيين الذي بناه في عام ١٦٢٣ المهاجرون الأندلسيون، وزاوية الشرفاء التي أقيمت في عهد الباي محمد بكتاش (١٧٠٩م) إلخ.

وأما المباني العامة فكانت قليلة العدد، ويكفي أن نذكر منها الجنينة، وهي طائفة من القصور والثكنات، والثكنات السبعة الكبيرة الخاصة بالانكشارية، وسجون الرقيق، ولكن كثيرًا جدًّا من الدور الخاصة كانت تخفي وراء واجهاتها العاطلة عن الزينة زخارف طريفة أو فخمة ذات روعة، لها أفنية تحيط بها

أعمدة من الرخام البديع الصنع، وطنف من خشب الأرز وأسوار عليها مظلات إيطالية أو هولندية، ومن داخلها أثاث صنعت أجزاؤه في أوربا، أو صنعها العمال الوطنيون محاكاة لنماذج أوربية (انظر G. L. MARCAIS. EXPOSETION D ART MUSULMAN المجلة الإفريقية في العددين الثالث والرابع من عام ١٩٠٥).

وقد طرأ على تعدد السكان في مدينة الجزائر تغير كبير في أثناء القرون الثلاثة التي كانت خاضعة فيها لحكم الترك، وقدر هايدو HEADO الذي ظهر كتابه عام ١٦١٢م عدد المنازل والسكان باثني عشر ألف منزل وستين ألف نسمة وقدر الأب دان DAN عدد المنازل والسكان في عام ١٦٣٤م، عندما بلغت القرصنة ذروتها، بخمسة عشر ألف منزل، ومائة ألف نسمة، ثم بدأ الاضمحلال يدب فيها عندما قلت أعمال القرصنة.

وفي عام ١٧٨٩م قدر فنتور ده برادي بخمسين ألفًا، ثم هبط هذا العدد إلى ثلاثين ألفًا في عام ١٨٣٠م، وكان السكان من أجناس مختلفة، ولكن يمكن ردهم إلى أجناس ثلاثة: الترك والمغرابة واليهود.

وكان الترك طبقة من الخاصة شديدة الارتباط بعضها ببعض، وقد وفد أغلبهم من آسيا الصغرى، وانضموا إلى صفوف اليلداش، وكانت النظم التي يخضع لها جيش اليلداش هذا تمكنهم من الوصول إلى أعلى المراتب؛ أي: مرتبة الأغا، بل وتؤهلهم لأرفع المناصب المدنية، وكان الترك جميعًا، حتى ولو كانوا من صغار الانكشارية، ينادون باسم الأفندي ويلقبون بالسادة العظماء الفخام، ويكونون طبقة السراة أو الأعيان في مدينة الجزائر، ولم ينزلوا عن كبريائهم حتى بعد أن فقدت الجندية شأنها السياسي.

وقد تزوج الكثيرون منهم من نساء من أهل البلاد، ولكن أبناء هذه الزيجات ويسمون (قلغلي) ظلوا بمعزل عن جماعة الأتراك، فلما انقضى القرن السادس كانت هذه الطبقة قد أقصيت عن الوظائف العامة، ولم يفلحوا في رفع هذا الحيف عنهم على الرغم من فتنهم المتكررة، ومنها فتنة عام ١٦٦٣م التي كانت على جانب كبير من الخطورة.

ومن أجل ذلك ظل الترك دائمًا أقلية في هذه العاصمة كما كانوا أقلية في الولاية كلها، وفي وسعنا أن نقدر عددهم بعشرة ألف أيام خير الدين بثلاثين ألفًا في عهد البكلربكية، واثنين وعشرين ألفًا عام ١٦٣٤م، وخمسة آلاف عام ١٧٨٩م، ونقص عددهم عام ١٨٣٠م إلى أربعة آلاف نسمة.

وبعد الفتح الفرنسي مباشرة قرر الجنرال ده بورمون GANERAL LE BOURMONT أن يقصي كل انكشاري أعزب عن البلاد، ويرسل إلى آسيا، ثم عمم هذا القرار حتى شمل كل أفراد الفرق العسكرية، ويجدر بنا أن نضيف إلى طائفة الأتراك أولئك الذين أسلموا وكانوا من أصل أوربي، وهم الذين كان يؤخذ منهم مهندسو الأسطول الجزائري وما يلزمه من الصناع، ومرشدو المواني وبعض القراصنة المشهورين، وأخذ عددهم في النقصان تبعًا لتعذر أعمال القرصنة، وقلة غنائمها بسبب تجول أساطيل الدول الأوربية في البحار، والمظاهرات البحرية التي كانت تقوم بها أمام الشواطئ، فنقص عددهم من عشرين ألفًا أيام هايدو إلى مائتين أو ثلاثمائة في نهاية القرن الثامن عشر.

وكان المغاربة أغلبية بين أهل المدينة أو (البلدي)، وكان بعضهم ممن وفدوا من خارج البلاد، وأقاموا في المدينة منذ العهد التركي، كالأندلسيين الذين طردهم المسيحيون من أسبانيا، والمغامرين من الأوربيين والقلغلي وغيرهم.

وقد حرم على هؤلاء الاشتراك في الشئون العامة بأجمعها، وأعفوا من الخدمة العسكرية، فلم يبدوا أية مقاومة للحكم التركي، وظلوا يشاهدون المآسي الجسام التي كانت تمثل على مسرح الجزائر بلا مبالاة، وقنع سراتهم بنصيبهم من غنائم القراصنة، وباشتراكهم بالمال في تجهيز السفن وبالمضاربات في صفقات بيع الغنيمة والرقيق.

أما فقراؤهم فلم يكن لهم عمل ما، وإن كانوا هم أيضًا يتمتعون بنصيب من الرخاء العام، وكان من هذا العنصر المغربي التجار والصناع الذين كانت لهم نفقات مختلفة تحت رياسة (نقباء أو أمناء).

وقد استقر كذلك في مدينة الجزائر جماعة من داخل البلاد، وكان رجال من القبائل يسكنون المدينة تحت رقابة ولاة الأمور الأتراك الشديدة.

ومنهم الفعلة والعمال في الصناعة اليدوية الصغيرة، وكان أهل بسكرة حمالين، والميزابية خبازين، وكانت كل جماعة من هؤلاء (البرانية) وحدة قائمة بنفسها يشرف عليها أمين مسئول عن حسن تصرفاتها، وكان عدد المغاربة وبينهم القلغلي، يبلغ ثمانية عشر ألفًا في عام ١٨٣٠م وعدد الزنج ألفين، والوطنيين المنحدرين من أصل بربري ألفًا.

وكان لليهود شأن في الحياة الجزائرية، أخذت تزداد أهميته على مر الأيام، وقد انضم إلى العدد القليل من الوطنيين اليهود منذ القرن الخامس عشر إخوانهم من يهود أسبانيا، وحدث أول استقرار لهؤلاء الأسبانيين في مدينة الجزائر عام ١٣٩١م تحت إمرة الربانيين دوران وبرفت.

ولكن الهجرة الكبيرة حدثت في القرن السادس عشر، وقد سمح لهم خير الدين بالإقامة في المدينة، ، ولكنه حدد لهم عدد الحوانيت التي يفتحونها، وفرض عليهم ضريبة الرءوس، وقد تضاعف عددهم سريعًا على الرغم من كل أنواع الاضطهاد التي لحقتهم من الترك والمغاربة، ومنها إكراههم على اتخاذ زي خاص بهم، بل على الرغم من الغرامات الفادحة التي فرضت عليهم مرارًا وتكرارًا ويذكر هايدو أن مائة وخمسين أسرة يهودية لا أكثر كانت تسكن الجزائر في نهاية القرن السادس عشر، وقدر الأب دان عددهم في عام ١٦٣٤م بعشرة آلاف يهودي، ثم قدرها لوجييه ده تاسي LA UGIER DI TASSY ، في عام ١٧٢٥م بخمسة عشر ألفًا.

ولا شك في أن هذا التقرير لم يخل من المبالغة، وبدأ يظهر حوالي ذلك الوقت فرق واضح بين اليهود الوطنيين، الذين كانوا بائسين تساء معاملتهم أبدًا، وبين (اليهود الفرنجة) الذين كانوا من أصل إيطالي جاء أكثرهم من مدينة لقورنة LEGHOR N ، وقد أفادوا بوصفهم أجانب من نظام الامتيازات، ومن حماية القنصل الفرنسي، ومن ثم كانوا بمنجاة من ضروب الاضطهادات التي تعرض لها أبناء دينهم الوطنيون، فأثروا من تجارتهم مع أوربة، ومن استغلال أنظمة الاحتكار التي اختص بها البكوات أنفسهم.

وقد كان لأكثرهم نفوذ في القرن الثامن عشر كسليمان جاكت (المتوفى عام ١٧٢٥م) وآل بكري وبوزناخ خاصة شأن خطير.

بل كان لهم في بعض الأحيان الشأن الأكبر في الشئون الجزائرية (بعد أن أصبحوا يتولون أمور الداي المالية ويقومون بالوساطة الرسمية بين الولاية وبين الدول الأوربية).

وقد ظل نفتالي بوزناخ خمسًا وعشرين سنة (١٧٨٠ - ١٨٠٥) يستغل نفوذه في تنصيب البكوات والدايات وخلفهم، والتصرف في موارد الدولة، أو قل بإيجاز أنه كان يدير السياسة الداخلية الخارجية للإمارة ويصرفها وفق مصالحه الخاصة.

ثم كان لهذا النفوذ العظيم رد فعل، إذ اغتال أحد الانكشارية نفتالي بوزناخ (ملك الجزائر) عام ١٨٠٥ وأعقبت ذلك تفنة دموية ذبح فيها أغنى أغنياء اليهود، أو أخرجوا من البلاد، ونهبت حوانيتهم، وصودرت أملاكهم، ولم تفق قط (الأمة) اليهودية من أثر هذه النكبة، ونقص عدد اليهود إلى أربعة آلاف (كما يقول روزيه ROZIET)، ولكنهم ظلوا يحتملوا نير الترك في عناء معن، ولذلك رحبوا بسقوط حسين ترحيبًا عظيمًا، وانضموا إلى الفاتحين،ولم يظهروا لهم معارضة ما.

وكان الأوربيون في مدينة الجزائر أما عبيدًا أو تجارًا أحرارًا، أما العبيد فهم الذين أسرهم القراصنة مع غنائمهم البحرية أو في أثناء غاراتهم على شواطئ البحر المتوسط وبخاصة على شواطئ أسبانيا وإيطاليا وقورسوقة وسردينيا وكان قسم من هؤلاء العبيد من نصيب البكوية، أما الباقون فكانوا يباعون لمن يدفع فيهمأغلياالأثمان في موضع البدستان.

وكان الأسرى يعملون في المنازل، أو يستخدمون في المدينة نفسها، أو في لحدائق خارج الأسوار (حسب مشيئة سادتهم) وكانوا كذلك يسخرون في تسيير السفن الكبيرة بالمجاديف أيامًا معلومة.

وكانوا يحبسون ليلاً في دور خاصة تابعة للحكومة، أو مملوكة للأفراد، وكانت تعرف بسجون الرقيق BAGNOS .

وكان هؤلاء الأسرى أقل بؤسًا مما يقوله الناس عنهم، فقد كانوا آمنين على أرواحهم، إلا عند ما يثور الانكشارية، أو يظهر أسطول مسيحي فتهيج خواطر المسلمين، وأكثر من هذا أن تلك السجون كان بها معابد صغيرة،لها قساوسة، وكان بها ملجأ للعجزة،وحانة للشراب، ولكنهم لم يكن يطلق سراحهم إلا إذا افتدتهم أسرهم بمعاونة رجال الدين، كالثالوثيين والمفتدين واللازارين الذين وقفوا أنفسهم على هذه الأغراض، أو إذا استعادوا حريتهم بعد مفاوضات سياسية، وكان طبيعيًا أن يختلف عدد هؤلاء العبيد قلة وكثرة تبعًا لانتشار القرصنة أو كسادها، وقد بلغ عددهم أقصاه في النصف الأول من القرن السابع عشر.

فقد كانت سجونهم وقتذاك تضم خمسة وعشرين ألفًا، كما يقول دان أو خمسة وثلاثين ألفًا كما يقول جراماي GARAMAYE ، ثم نقص هذا العدد في اثناء القرن الذي تلاه، فلم يكن في هذه السجون عام ١٧٤٠ سوى ١٤٤٢ أسيرًا، ولم يكن فيها عام ١٧٦٧ أكثر من ٢٠٦٢ ومن ألف وثمانمائة عام ١٧٦٩، ومن ١٦٦٩ في عام ١٨١٣، ونقص أخيرًا إلى ١٢٠٠ عام ١٨١٦ حين أطلق سراحهم بعد غزوة اللود اكسموث الموفقة.

أما الأوربيون الذين كانوا يتمتعون بحرية مطلقة فقد كان عددهم دائمًا قليلاً، لأن الجزائر لم يكن لها قط أهمية تجارية تضارع ما لمدن بلاد البربر الأخرى،وكانت على الأخص أقل شأنا من ثغور شرق البحر المتوسط من هذه الناحية،فقد كانت في المدينة جالية قروبية صغيرة مكونة من مائة شخص على الأكثر، تتألف من القناصل، وبينهم قنصل انجلترا وفرنسا اللذان كانا يتنازعان الصدارة، ومن الموظفين في مكاتب القناصل وقليل من التجار.

وكانت مدينة الجزائر أثناء العصر التركي تصرف شئونها إدارة مستقلة، ويشرف عليها (الخزنجي) أو وزيرة مالية الإمارة، وكانت الجماعات التي يضم كل منها أبناء جنس خاص من السكان (كالزنوج والمزابية) أو أبناء طائفة خاصة من الصناع تتألف منها طوائف متعددة يرأس كل منها أمين، أما اليهود فكانوا (أمة) يحكمها زعيم يختارونه منهم، وكان الأمناء كلهم يخضعون لسطان شيخ البلد.

وكان التفتيش على الأسواق منوطًا بـ (المحتسب وعلى الشوارع أثناء النهار، من أعمال (الكخية) وهي كلمة مشتقة من اللفظ الفارسي كتخدا) وكان التفتيش عليها أثناء الليل من أعمال (أغا الكل، ولا بد أن يكون هذا تركيًّا، أما المزوار، فكان عليه أن يراقب الحمامات وبيوت الدعارة وكان على (أمين العيون) أن يحافظ على عيون الماء ويتأكد من سلامة أبنيتها، وكان هذا النظام الإداري يفي بالأغراض المرجوة منه، ويحفظ الأمن والنظام على أحسن حال، كما يشهد بذلك جميع الرحالة الذين زاروا مدينة الجزائر التركية ثم زال هذا بزوال السيادة التركية.

وقد شهدت مدينة الجزائر منذ ١٨٣٠ تغيرات متواصلة ولو أننا حاولنا أن نسب في بيان هذه التغييرات، ونصف المدينة الأوربية التي حلت على مر الأيام محل مدينة الجزائر البربرية والتركية لخرجنا عن الحدود المرسومة لدائرة الحقائق الهامة وأولاها: زيادة عدد السكان، فقد ارتفع في إحصاء عام ١٩٠ إلى ١٣٨.٠٠٠ نسمة، ثم على ١٤٤.٠٠٠ في إحصاء عام ١٩٠٦،ولم يكن عددهم في هذا الإحصاء الأخير قد عرف وقت كتابة هذا المقال إلا على وجه التقريب، وسكان المدينة الحديثة خليط من أجناس مختلفة كسكان المدينة القديمة.

بيد أن الأوربيين قد حلوا محل الوطنيين كما يظهر ذلك من الأرقام الواردة في إحصاء عام ١٩٠١، وهي ٦٩.٠٠٠ فرنسي ١١.٧٥٠ يهوديًا متجنسين بالجنسية الفرنسية ٢٧٢٥٠ أجنبيًا أغلبهم من الأسبان.

ومما هو جدير بالتنويه أيضًا ذلك التطور الذي طرأ على الميناء، فقد وسع حوضه الذي لم يكن يتسع لسفن القراصنة إلا إذا تجاوزن فيه، وذلك بإكمال حاجز خير الدين، وبناء رصيف جديد في البحر يبدأ من برج باب عزون، فتكون بذلك حوض واسع مساحته ٢٣٧ فدانًا تستطيع أكبر البواخر حملة أن ترسو فيه،وقد أدت الزيادة المطردة في حركة السفن (بلغ مجموع حمولتها ٦.٠٦٠٠.٠٠٠ في عام ١٩٠٤) إلى إقامة منشأة أخرى، بدئ فيها فعلاً.

ثم إننا لا نستطيع أن نغفل اتساع رقعة المدينة الجديدة، فقد زادت مساحتها من زمن طول على ما كانت عليه أيام الترك وامتدت مبانيها ومباني أرباضها كأحياء الداي حسين ومصطفى وباب الواد وسانت يوجين [1] فبلغ متوسط طولها أكثر من سبعة أميال ونصف ميل.

ولم يحدث هذا التحول دون أن يصحبه انقلاب عميق الأثر في المظهر العام لمدينة الجزائر القديمة التي لم تبن على غرار غيرها من المدائن، فقد كان من الضروري في باكورة عهد الاحتلال، إنشاء طرق للمواصلات وإقامة ثكنات للقوات العسكرية، وداواوين لمختلف المصالح الإدارية، ولم يكن يتم هذا كله دون تدمير المنازل الصخاة ودور العبادة، ومن أجل ذلك هدمت الجنينة حجرًا حجرًا، وعفت آثارها كلها في عام ١٨٥٦، ولم يبق من القصور التي كانت في

(١) المعروف اليو باسم بالكين.

داخل أسوارها سوى قصر بنت السلطان، وهو الآن قصر الأسقف [1]، وترك جامع (كجاوة) يتداعى بين عامي ١٨٤٥، ١٨٦٠، وقامت مكانه الكنيسة الكاثوليكية الكبرى.

وقوضت أركان مسجد السيدة، وحول مسجد حاجي حسين إلى كنيسة [2] واتخذت مساجد أخرى ثكنات للجند، أو مخازن عسكرية، وما وافت سنة ١٨٦٣ حتى لم يبق من دور العبادة التي بلغت ١٧٦ دارا في عام ١٨٣٠، سوى ٤٨ (تسعة مساجد كبيرة، وتسعة عشر مسجدًا صغيرا، وعشرين خلوة وزاوية) وليس لغير ثلاثة من المساجد الإسلامية الباقية قيمة أثرية فنية، وهذه المساجد هي: الجامع الكبير برواقه ذي الأعمدة المأخوذة من مسجد السيدة ومسجد السماكين الذي شيد عام ١٦٦٠ على طراز يشبه شكل صلب النائس البوزنطية في الأستانة، وثالثها مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي شيده عام ١٦٩٦ الداي الحاج أحمد في موضع بناء أقدم منه عهدًا، وقد هدم أغلب الحصون التركية وحل محلها سور حديث يهدم هو الآخر الآن، ولم يبق من القصبة كما كانت عليه في عهدها السابق إلا آثار قليلة (هي غرف ذات أقبية،والباب، وفوارة، والجوسق الذي يسمونه جوسق ضربة المروحة، والمسجد)، وكذلك أرسلت بطاريات المدافع وهدمت التحصينات التي كان تواجه البحر.

وجددت المدينة نفسا بأكملها تقريبًا، وبنيت على الطراز الحديث، فأنشئت في الجزء الأسفل منها شوارع على نمط الشوارع الأوربية، تقطعها شوارع

---

(١) أصبح اليوم تابعًا لوزارة السياحة.

(٢) ولقد عاد اليوم هذا المسجد وجامع كتشاوة معًا إلى الإسلام.

أخرى تسير في الجزء الأعلى من المدينة، وبذلك زال ما كانت تمتاز به من مظهر قد لا يشاركها فيه غيرها من المدن، وإذا كان لأعمال التخريب هذه ما يبررها في أوائل أيام الاحتلال حين لم يكن بد من إيجاد ملجأ أمين للسكان الأوربيين داخل أسوار المدينة، فما من شك في أنه ليس ثمت ما يبررها بعد أن امتدت حدود لمدينة ناحية الشمال والجنوب.

وتسري مع الأيام روح الحياة الأوربية إلى هذه الأحياء الجديدة، في حين أن المدينة العليا ظلت مركزًا للحياة الإسلامية، فالأهلون يزدحمون في شوارعها الضيقة المظلمة، يزاولون صناعاتهم وحرفهم الوطنية الصغيرة، ويظهر أن بعض العقول المستنيرة رأت أن لا بد من المحافظة على هذا الجانب من المدنية، وإنقاذه من يد الدمار، وإن كانوا قد وصلوا إلى هذه النتيجة متأخرين فأنشئت في عام ١٩٠٥ جمعية لها الغرض سميت (جمعية الجزائر القديمة) وأخذت على عاقتها البحث عن الآثار الباقية من مدينة الجزائر الإسلامية والمحافظة عليها.

ولم تقنع مدينة الجزائر بأن تكون القصبة السياسية للإقليم، بل أخذت في السنين الأخيرة تحاول جهدها أن تكون مركزًا من مراكز الحياة العقلية والعلوم الإسلامية، وقد صدر قانون في ٢٠ ديسمبر ١٨٥٩ يقضي بإنشاء أربع مدارس عليا (لحقوق والطب والعلوم والآداب) تتألف من مجموعها جامعة بحق، وكانت هذه المدارس في عام ١٩٠٤، تضم تسعمائة وستة وعشرين طالبًا ومستمعًا، ومع أن مدارس الجزائر يدرس فيها من العلوم ما يدرس في جامعة باريس نفسها، فإن النشاط العلمي والبحث العلمي فيها يتجهان بنوع خاص نحو المسائل الأفريقية، والدراسات الشرقية شأن كبير في مدرسة الحقوق، وشأن أكبر من ذلك في دارسة الآداب، التي تعني بالبحث الدقيق في آداب

أفريقية الشمالية ولغاتها وقصصها الشعبي وأجناسها، ومدنيتها وفي مدرسة الحقوق كرسي للفقه الإسلامي، وفي مدرسة الآداب كراسي للغات العربية والفارسية والبربرية وآدابها.

وللحضارات الإسلامية وعلم الآثار المصرية القديمة، وتاريخ أفريقية، وقد أثمرت هذه الدراسات حتى الآن ثمرة طيبة (انظر دوتي Doutte : l auvre de l Evole de Lettres d' Alger)، في المجلة الأفريقية العدد الثالث والرابع من عام ٩٠٠.

وتعاون كثير من الجمعيات العلمية المختلفة في البحوث القائمة منذ عام ١٨٣٠ والخاصة بماضي شمال أفريقية وحاضرا، وفي مقدمة هذه الجمعيات الجمعية التاريخية التي نشرت في صحيفتها (المجلة الأفريقية Revue Afrecaine)، منذ عام ١٨٥٦، مقالات كبيرة القيمة ووثائق هامة عن تاريخ أفريقية وقد نظمت الجمعية الجغرافية قسمًا للأبحاث التاريخية والأثرية، وهي لا تكتفي بنشر بحوث في جغرافية البلاد الإسلامية، بل تنشر أيضًا في (نشرتها الرسمية) بحوثًا في تاريخ العالم الإسلامي كله وحضارته.

وفي المدرسة الثعالبية التي وضعت تحت رعاية سيدي عبد الرحمن، تدرس الثقافة الإسلامية العليا، كما يدرس فيها الفقه والشريعة الإسلامية مع بعض المبادئ الأولية للعلوم الأوربية، للطلاب الوطنيين الذين يشغلون فيما بعد المناصب القضائية والدينية (قضاة وعدولاً وأئمة ... إلخ) وتضم المكتبة الأهلية ألفين م المخطوطات العربية والتركية والبربرية، ويضاف إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية تحاول تنمية الذوق الفني بين الأهالي، وإحياء الصناعات المحلية، فضلاً عما تبذله من الجهد في الاحتفاظ بالمستوى الرفيع الذي بلغته

الدراسات الإسلامية في تلك البلاد، وقد أنشأ لذلك الغرض قسم للفن الإسلامي في متحف مصطفى [1] عام ١٩٠٣ وبذلت المعونة والتشجيع للمدارس الفنية التي تعلم فيها صناعة السجاجيد وصناعة التطريز.

---

(١) المتحف الوطني للآثار بالعاصمة.

المصادر الأجنبية

Corpus Inscriptions Latines
Tome 8 b-Tome 15 (Icosium) et index.
Colin G-Corpus des inscriptions arabes et torques
De l'Algérie – Tome 1 – déparatement d'Alger- Paris 1901.
Haëdo- Topografia e historia general de Argel 1612.
Tradction Berbrugger et Monnereau dans Revue Africaine Tome 14 – 15 .
Venture de Paradis – Alger au 18e siècle – Alger 1898.
Berbruger et Monnereau – Les casernes de Janissaires à Alger dans Revue Africine – Tome 3.
Devoulx A. – Les edifices religiux d'Alger – dans Revue Africaine – Tomes 6-13.
Devoulx A. – Notes his toriques sur les mosques d'Alger. Tomes 4 – 5.
Devoiulx A. – Alger – etude audx époques romaine, Arabe. Turque Tomes 20-21.
Rozet. - Voyage dnas la régence d'Alger – alger 1833.
Feydeua E. – Alger – etude Paris 1884.
Otth. – Esquisses africaines dessinées pendant un voyage a Alger -0 Berne 1839.
Guiauchain – Alger – Alger 1905.
Boutin – reconnaissance de la ville des forts et batteries d'Alger edition 1867.
Boutin – Reconnaissance de la ville des forts et batteries d'lger éditioin 1867.
Nettement – Historie de la conquête d'Alger.
Pièces Justificatives – numéro 5, pages 574 – 599.
Et voir la bibliograghi de l'Algérie.

مدينة الجزائر

صفحات عبر تاريخ المدينة البيضاء[1]

إن المعلومات التاريخية التي وصلت إلى علماء الآثار والمؤرخين عن هذه المدينة ضئيلة، لا تكفي لإعطاء صورة عن واقعها في العصور القديمة الغابرة، كما أن علم الآثار بقي مدة طويلة عاجزًا عن استجلاء مصادر هذه العاصمة.

والمعتقد السائد أن أقدم الآثار الدالة على حقيقة تاريخها هي بعض بقايا أبنية رومانية اكتشفت عام ١٨٣٠، لكن هل يعني ذلك أن حياة هذه المدينة بدأت بابتداء استقرار الرومانيين فيها أم أنها كانت موجودة أصلاً قبل قدومهم إليها؟

هناك أسطورة نقلها الكاتب اللاتيني سولان، الذي عاش عام ٢٥٠ بعد الميلاد تقول: (عندما مر هرقل في هذا المنطقة، تركه عشرون من مرافقيه واختاروا موضعًا أقاموا فيه أسوارًا حيث استقروا بينها، وأطلقوا على هذا المكان اسمًا يؤلف مجموعة عددهم؛ وذلك كي يتجنبوا استبداد أحدهما فيفرض على المدينة اسمًا خاصًا يميزه عن رفاقه، ويجعله المنتصر عليهم أو الرائد لهم).

ولما كان عددهم عشرين رجلاً ومعنى (عشرين) في اللغة اليونانية (ايكوسي) كان من السهل الاقتناع بصحة هذه الرواية؛ إذ عرفنا أن أول اسم عرفت به هذه المدينة هو (ايكوسيم) المشتق من (ايكوسي).

---

(١) عن مجلة (المناظر) الصادرة باريس العدد ١٣ السنة الثانية مارس ١٩٦١ م.

على أن تأكيد هذه الرواية جاء جليًّا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٠، عندما اكتشفت في أقدم أحياء المدينة، أثناء بعض عمليات التهديم جرة ملأى بقطع من النقود النحاسية والرصاصية من العهد الفينيقي، وعليه أصبح من المنطقي الاعتقاد بأن الفينيقيين كانوا قد احتلوا الجزر القريبة من الشاطئ، قبالة المدينة قبل بناء الأتراك للميناء.

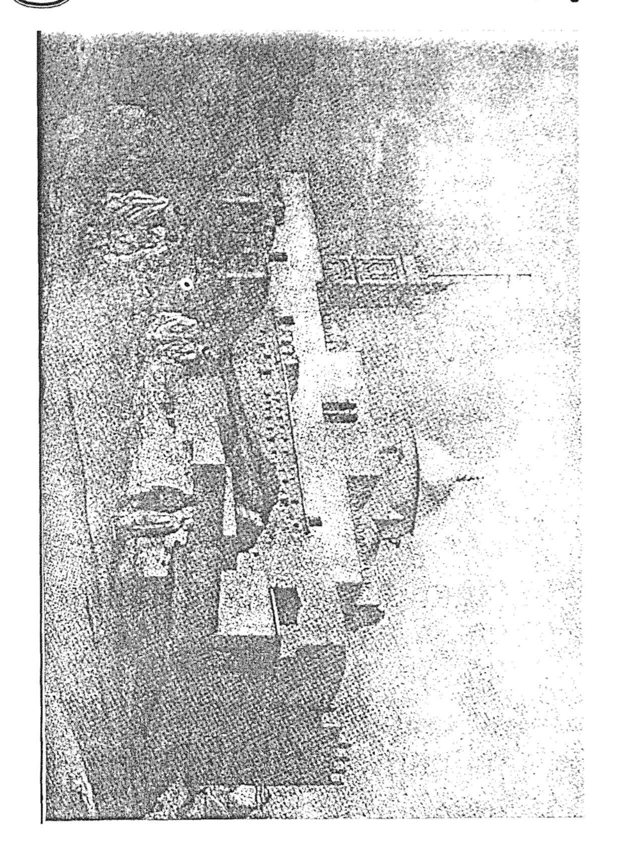
وقد أثبتت الآثار المكتشفة أن المدينة كانت تدعى في عهد الفينيقيين (ايكوسيم) ومعنى هذه اللفظة حسب رأي العلماء (جزيرة الشوك) أو (جزيرة الطيور غير الطاهرة)، وكانت تنتهي عند شاطئ البحر من جهة قرب جادة ٨ نوفمبر[١] كما هي معروفة الآن من جهة أخرى.

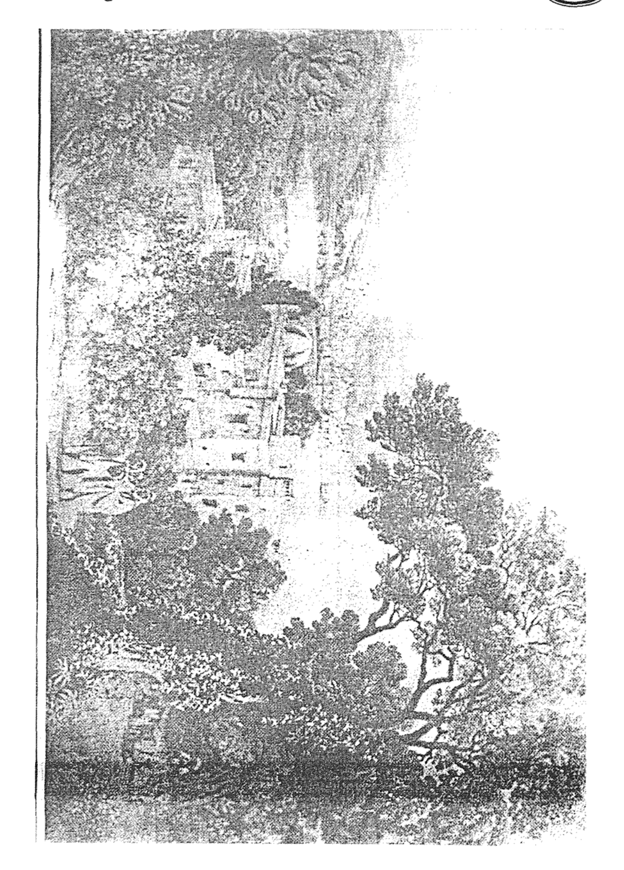
أما الجزر الواقعة قبالة الشاطئ فكانت كثيرًا ما يستعملها السكان فيلجئون إليها عندما كانوا يهددون بهجوم من داخل البلاد.

وقد أقام القرطاجينيون أحفاد الفينيقيين في (ايكوسيم) أيضًا، أما ما كان من أمر المدينة قبل مجيء الرومان إليها فهذا شيء نجهله تمامًا؛ نظرًا لافتقارنا إلى الأدلة الصحيحة في هذه الحقبة من الزمن، وقد وقعت (ايكوسيم) تحت وصاية (جوبا) ملك موريتنايا، الذي كان يقطن (شرشال) وأصبحت تدعى (ايكوسيوم).

---

(١) لقد تغير اليوم إلى (فاتح أو أول نوفمبر).





أما المدينة التي بناها الرومان ونظموها، فقد فاقت مدينة الفينيقيين أهمية حتى المراقبين فيما بعد يوجهون إليها انتباههم وأنظارهم بصورة خاصة فكتب أبو عبيد البكري في كتابه (المسالك والممالك) في معرض حديثه عن هذه المدينة، فقال: (ومما يستدل به على كبر هذه المدينة في زمن الرومان أنها قديمة البنيان فيها آثار للأول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمن ولا تعاقب القرون، وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين، مفصص كثير النقش والصور).

قد يعتقد بعض القراء أن البكري كان مغاليًا في أهمية هذه المدينة الرومانية، ولكن اكتشاف عام ١٩٥٠ جاء مؤكدًا لصحة وصف هذا الكاتب، فقد وجد المنقبون في نفس الحي الذي وجدت فيه القطع الفينيقية قطع عامود يعتقد الخبراء أن طوله كان يبلغ ثمانية أو تسعة أمتار، وأنه كان يشكل مع مجموعة أخرى من العواميد هيكلاً ضخمًا.

وقد عثر إلى جانب ذلك على بضع حجارة منحوتة يعود تاريخها إلى العهد الروماني بالإضافة إلى ما كان قد اكتشف عام ١٨٤٤ على عمق عشرة أمتار تحت الأرض بالقرب من دار الحكومة الحالية من صهاريج رومانية وبقايا الحمامات.

إن التاريخ لم ينقل إلينا إلا القليل من الوقائع عن الحقبة الرومانية لمدينة (ايكوسيوم) فنحن نعلم أن هذه المدينة كانت مزدهرة في القرن الثاني ولا

نعرف شيئًا غير ذلك، وقد احتلها (فيرموس) أحد القواد وهو من أصل بربري، وذلك عام ٣٧٢ بعد المسيح، بعد أن ثار على روما، إلا أنه لم ينجح في الاستيلاء على (تيبازا) بسبب مقاومة سكانها، وقد اكتفي بأن أصبح سيد (ايكوسيوم) على أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما اضطر إلى الجلاء عنها في العام التالي.

وقد أصيبت (ايكوسيوم) بنكبة كبيرة عندما احتلها (الفيندال) عام ٤٨٤، وهم جماعة أتوا من أوربا الوسطى؛ فهدموها عن بكرة أبيها بعد أن أفنوا سكانها، وقد غيمت سحابة على تاريخ مدينة الجزائر مدة قرون، ولم تبدأ هذه السحابة بالانقشاع إلا عام ٩٥٠ حيث بدأت المدينة بالظهور إلى النور من جديد؛ إذ جاءت إليها قبيلة من بني مزغنة وأقامت بجوارها، وهي قبية من أصل بربري كان يحكمها زيري بن مناد (٩٤٥ - ٩٧١م) وقد تكلم عنه المؤرخ ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م) كما تكلم عن ابنه بلكين الذي سمح له والده أن يقوم بتأسيس ثلاث مدن منها جزائر بني مزغونة على الساحل، وقد أضحت أهم المدن في المغرب الأوسط، وفيها قال ابن خلدون في كتاب الدول الإسلامية بالمغرب، وهو القسم الآخر من التاريخ الكبير المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر): (... ثم اختط ابنه بلكين بأمره على عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة مدية وهم بطن من بطون صنهاجة، وهذه المدن لهذا العهد من من أعظم مدن المغرب الأوسط ...).

وقد جاءت كتابات ابن حوقل تؤكد أهمية مدينة جزائر بني مزغنة وازدهارها؛ حيث قال عام ٣٦٧هـ الموافق ٩٧٧م : (وجزائر بني مزغناي

مدينة عليها سور على سيف البحر أيضًا، وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثيرة وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها، ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجئوا إليها، فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه).

وقد تكلم الإدريسي عن ازدهار هذه المدينة عام ٥٤٨هـ الموافق ١١٥٤م فقال: (مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار، وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعر وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتخذون النحل كثيرًا فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير، وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم، وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة).

ونجد بالإضافة إلى ذلك وصفًا لمدينة الجزائر وجوارها في كتاب (الاستبصار) المجهول المؤلف والمكتوب عام ٥٨٧هـ الموافق ١١٩١م حيث يقول: (مدينة جزائر بني مزغنة مدينة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي قديمة البناء فيها آثار عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة لسابق الأمم، فيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفقة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة وأبدع عمل، ويتصل بجزائر بني مزغنة فحص كبير يسمى فحص متيجة، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعشائر، تشقه الأنهار وهو يمتد مرحلتين طولاً ومثلها عرضها، وقد أحدقت به جبال مثل الإكليل، وفي آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهو وعر

المجاز يمسى حلق واجر ويسمه أهل البلاد باب الغرب، وليس يدخل إلى بلاد الغرب إلا منها.

وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقي اليوم منها جدار هو قبلة الشريعة للعيدين، وهو كثير النقوش والصور، ومرساها مأمون وفيه عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن، وعلى هذا الولاء الإنفاق كثير).

ثم أعاد بلكين بناء الحصن الذي كان قد بناه الرومان في نفس المكان وبنفس المواد التي كان قد بني بها، وبدأ عدد سكان المدينة يزداد تدريجيًا مما أدى إلى ازدياد البناء الذي راح يحتل الحدائق باضطراد.

وقد دخل العرب بلاد المغرب بالقوة في أواسط القرن الحادي عشر آتين من الشرق، وأصبح تاريخ مدينة الجزائر متصلاً اتصالاً وثيقًا بتاريخ المغرب الأوسط، فشهدت احتلال الفاتحين لها بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر، وكذلك حروب المتنازعين على السيطرة عليها، وقد مرت مدينة الجزائر بالتوالي تحت سيطرة بني حماد والمرابطين والموحدين وبني حفص، وقد قام المرابطون ببناء الجامع الكبير في مدينة الجزائر حيث لا يزال منبره قائمًا منذ ذلك العهد (٤٩٠هـ الموافق ١٠٩٧م)[1].

منذ سنة ٦٦٤هـ الموافقة لسنة ١٢٥٥م حتى سنة ٦٧٦هـ الموافقة لسنة ١٢٧٧م وسكان مدينة الجزائر يشكلون دولة مستقلة، ثم خضعوا على التوالي لأمراء بجاية وتلمسان، وقد تبع هذا الوضع حقبة من الفوضى جعلت من

(١) راجع دراستنا حول هذا الجامع ومنبره في هذا الكتاب.

الثعالبة، وهم قبيلة عربية متيجية أسيادًا للمدينة بعد أن طردوا بربر صنهاجة وأجبروهم على اللجوء إلى الجبال.

منذ عام ١٤٣٨م ومدينة الجزائر تشكل جمهورية بلدية صغيرة يقوم بإدارتها بعض البورجوازيين من العائلات المتنفذة، وقد زادت أهمية المرفأ بفضل مجاورتها للمتيجة، أما سكانها فقد اتصفوا بالخشونة؛ حيث يعطينا العالم الجغرافي محمد العبدري، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي وصفًا خاصًّا لمدينة الجزائر يصور سكانها تصويرًا قاسيًا؛ إذ قال: (... ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف لحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حوت مزيتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل، يسرح الطرف فيها حتى يمل، لكنها أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة، وأديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق).

وعلى كل حال تجدر الإشارة إلى الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي اشتهر بتدينه وحسن سيرته ومعارفه الدينية الواسعة، وقد عاش بين عام ١٣٨٧م حتى عام ١٤٦٨م، وفي عام ١٤٥٠م بلغ عدد سكان المدينة عشرين ألفًا، وفي مطلع القرن السادس عشر بدأ الإسبانيون بإخضاع المرافئ المغرب فاحتلوا وهران وبجاية في عامي ١٥٠٩ و ١٥١٠م، فوقع سكان مدينة الجزائر معاهدة مع فرديناند -ملك إسبانيا- سمحت للإسبانيين ببناء قلعة على أهم الجزر المواجهة للمدينة حيث أقام فيها مئتا جندي لمنع القرصان من استعمال المرفأ.

إلا أن هذا الوضع لم يطل، ولم يكد عام ١٥١٣م يمضي حتى هرع سكان مدينة الجزائر إلى طلب مساعدة القرصان التركي عروج لطرد الإسبانيين، وذلك بسبب سأمهم من مراقبة الثكنة في الجزيرة، إلا أن القرصان التركي الذي كان مقيمًا في جيجل جاء إلى مدينة الجزائر وأقام فيها ونصب نفسه سلطانًا عليها بعد أن نادى به رجاله دون أن يحاول طرد الإسبانيين.

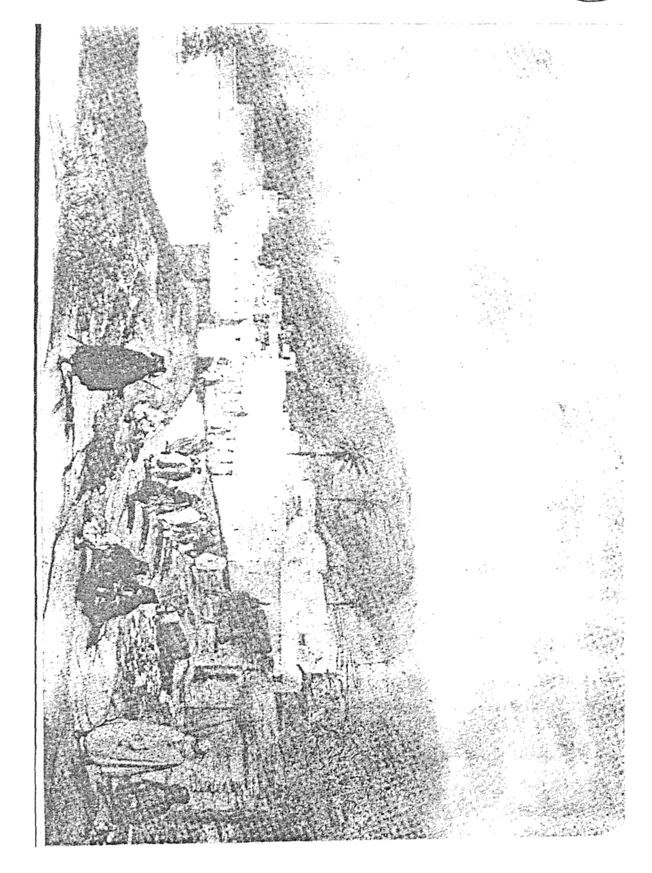
وفي هذا الوقت؛ أي: عام ١٥١٨م كان عدد سكان المدينة قد بلغ ثلاثين ألف نسمة، وقد خلف عروج في الحكم السلطان خير الدين الذي احتل القلعة الإسبانية في ماية عام ١٥٢٩م وهدمها عن بكرة أبيها واستعمل حجارتها في بناء ممر يصل الجزيرة بالشاطئ، وقد باشر ببناء سدود جديدة ليفتح المجال أمام توسيع المدينة بينما انصرف أتراك مدينة الجزائر إلى أعمال القرصنة مما حمل قارلس الخامس عام ١٥٤١م على شن حملة على المدينة لتحطيم عش القرصان فيها، وقد استعان في حملته هذه بأسطول كبير استطاع أن ينقل بواسطته ١٢٣٣٠ بحارًا حيث نزلوا قرب وادي الحراش ليضربوا المدينة من الوراء، وعند وصوله إلى قمة هضبة كدية الصابون مركز برج الإمبراطور اليوم، خرج إليه جماعة من المحاصرين كأنهم غضب السماء وساعدهم في هجومهم زوبعة هائلة وعاصفة عاتية أخرجت كارلس الخامس عن طريق النصر واستطاع بعد جهد شديد أن يعود إلى إسبانيا مع ما بقي له من جيشه على ظهر القليل من السفن التي استطاعت أن تنجو من مخالب عضبة السماء.

وبعد عودته خائبًا إلى إسبانيا لم يعد لأتراك مدينة الجزائر من أعداء أقوياء فانصرفوا إلى أعمال القرصنة حتى سنة ١٨٣٠م وقد درت عليهم هذه الأعمال أرباحًا طائلة، وكانت بمثابة التجارة الرابحة، فازدهرت المدينة في هذا العهد وازداد عدد سكانها بنسبة كبيرة وبسرعة فائقة، فبعد أن كان ثلاثين ألفًا عام

١٥١٨م بلغ ستين ألفًا (٦٠.٠٠٠) عام ١٥٨٠م ومائة ألف (١٠٠.٠٠٠) في عام ١٦٣٤م، وقد تبدل شكل المدينة بصورة محسوسة وضاقت طرقاتها وراح الناس يبنون فوق الطرق بالذات فأصبحت هذه الأخيرة مغطاة بالبناء، كل ذلك ربحًا للمساحات المحدودة في قلب المدينة.

وكان من نتيجة أعمال القرصنة التي قام بها سكان مدينة الجزائر على السفن الأوربية أن قامت الدول الأوربية بحملة ضغط شديدة على المدينة، فضربها الإنكليز بالقنابل عام ١٦٢٢، ١٦٥٥ و ١٦٧٢م ثم في عام ١٦٨٢، فعام ١٦٨٣ وعام ١٦٨٨م، وقد أحدث ضرب المدينة في كثير من الأحيان ردة فعل ملحوظة؛ إذ كانت تخف على أثره وطأة القرصنة، ولكن دون أن تنقطع بصورة جذرية.

في عام ١٧٧٣م أعلن داي الجزائر الحرب على إسبانيا فأرسلت عليه في يوليو عام ١٧٧٥م أسطولاً يحمل خمسة وعشرين ألف جندي ولجأ الأسطول إلى نفس الطريقة التي لجأ إليها قارلس الخامس، فنزل الجنود قرب وادي الحراش بغية مهاجمة مدينة الجزائر، ولكنهم عادوا في اليوم التالي من حيث أتوا؛ ولجئوا إلى قصف المدينة بمدفعيتهم البحرية فقصفوها عام ١٧٨٣م كما قصفها الإنكليز عام ١٨١٦م و ١٨٢٥م، وقد تبين للإفرنسيين أن حصارهم البحري للمدينة لا يجدي نفعًا، و كان قد دام ثلاثة أعوام، فقرروا مهاجمتها على الأرض، فنزلوا بعيدًا عنها وشرعوا بتنفيذ الخطة التي كان أحد ضباط نابوليون الأول قد أعدها عام ١٨٠٨م.



قلنا سابقًا أن عدد سكان مدينة الجزائر بلغ عام ١٦٣٤م مائة ألف نسمة، وأن أعمال القرصنة التي كان قد لجأ إليها أتراك المدينة أصبحت تعترضها صعوبات متزائدة مع الزمن، وقد حمل ذلك بعض سكان المدينة على الهجرة؛ فهبط عدد المقيمين فيها عام ١٧٨٩م حتى وصل إلى نصف العدد السابق؛ أي: خمسين ألفًا ولم يتعد الثلاثين ألفًا عام ١٨٣٠م.

وكانت المدينة قد اتسعت في العهد التركي حتى شملت المنحدرات التي تصل القصبة بالشاطئ، وكان طول أسوارها ثلاثة كيلومترات، أما طريقة الدفاع عنها فكانت بواسطة سدود وقائية بلغ ارتفاعها أحد عشر مترًا وفي بعض الأحياء ثلاثة عشر مترًا يضاف إليها القصبة التي أصبحت عام ١٨١٦م مركز إقامة داي الجزائر وبرج الإمبراطور الذي بني في المكان الذي كان قد تمركز فيه قارلس الخامس، والقلاع الخمس التي كانت تواجه البحر على طول الشاطئ.

أما في داخل المدينة فكانت ترتفع الدور طوابق متراصة على جوانب الهضبة، وفي قسمها الأعلى كانت البيوت المطلية بالكلس الأبيض متراصة متجمعة، والطرقات بينها ضئيلة نادرة وضيقة للغاية، أما الشاطئ الجميل فكان مركز إقامة القراصنة والشخصيات الكبيرة حيث بنيت الدور الفخمة جنبًا إلى جنب تواجه البحر بعظمة وكبرياء.

هذا هو تاريخ مدينة الجزائر القديمة، وهو تاريخ متقلب مرت خلاله المدينة بعدة مآسٍ، ولكن لمدينة الجزائر أيضًا تاريخها الحديث وهو أعجب من تاريخ نشأتها الرائعة.

مدينة الجزائر
من خلال النصوص العربية والأجنبية[١]

اختارها وأعدها وعلق عليها مولاي بلحميسي

وصف مدينة الجزائر لابن حوقل[٢]

(وجزائر بني مزغنة مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجاهز إلى القيروان وغيرها، ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجئوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه).

«كتاب المسالك والمهالك والمفاوز والمهالك».

---

(١) عن مجلة الأصالة - الجزائر - السنة الثانية من ربيع الثاني جمادى الأولى ١٣٩٢هـ / ماي جوان ١٩٧٢م.

(٢) ابن حوقل : أبو القاسم محمد صاحب كتاب (المسالك والمهالك والمفاوز والمهالك)، أو كتاب (صورة الأرض)، مدخل الجزائر أيام زيري بن مناد سنة ٣٣٧هـ وتوفي ابن حوقل بعد ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.

قال المقدسي[١]:

(أما أفريقية فقصبتها القيروان ومن مدنها جزيرة بني زغناية[٢] وجزيرة بني زغناية على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس ولهم عيون).

(أحسن التقاسيم)

وصف مدينة الجزائر للبكري[٣]

(مدينة جزائر بني مزغني هي مدينة جليلة، قديمة البنيان، فيها آثار للأول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، ولم يغيرها تقادم الزمن، ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغني كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثر النقوش والصور، ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من أهل أفريقية والأندلس وغيرهما).

(كتاب المغرب)

---

(١) المقدسي -شمس الدين أبو عبد الله محمد- من رجال القرن ٤هـ، ١٠م، توفي بعد ٣٧٨هـ / ٩٨٨م، وله كتاب مشهور في الجغرافية سماه: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

(٢) الصواب: جزيرة بني مزغنة.

(٣) البكري -أبو عبد الله- من أشهر جغرافي القرن الخامس الهجري، وله كتاب: (المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب)، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، طبعة دي سلان باريس ١٩٦٥م.

وصف مدينة الجزائر للإدريسي[1]

(مدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار، وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتخذون النحل كثيرًا؛ فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم، وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة).

(الإدريسي)

مدينة جزائر بني مزغنة

(... مدينة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي قديمة البناء أزلية فيها آثار عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة لسابق الأمم، وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفقة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان بأحكم صناعة وأبدع عمل، ويتصل بجزائر بني مزغنة فحص كبير يسمى فحص متيجة، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الأنهار وهو نحو مرحلتين مثلها قد أحدقت به جبال مثل الإكليل، وفي آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهو وعر المجاز يسمى حلق واجر ويسميه أهل البلاد (باب الغرب) وليس يدخل إلى بلاد الغرب إلا منها.

---

(١) الإدريسي -أبو عبد الله محمد بن محمد- المعروف بالشريف الإدريسي، ولد بسبتة حوالي ١١٠٠م، وله كتاب مشهور وهو (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، توفي حوالي ١١٨٠م.

وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقي اليوم منه جدار هو قبلة الشريعة في العيدين وهو كثير النقوش والصور، ومرساها مأمون فيه عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن وعلى هذا الولاء الإنفاق كثير...

(من كتاب الاستبصار ص ٢٢ - ٢٣)[١]

وصف مدينة الجزائر للعبدري[٢]

وهي مدينة تستوقف لحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حازت مزيتي البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل، يسرح الطرف فيها حتى يمل، ولكنها أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله ملحوب[٣]، فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة، وأديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق[٤] أو أحاول تحصيل بيض الأنوق)[٥].

(العبدري والرحلة المغربية)

---

(١) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول غالب الظن أنه عاش في القرن ٦هـ - ١٢م، وقد اعتنى بنشر الكتاب المستشرق كريمير سنة ١٨٥٢م، ونقله إلى الفرنسية فانيان سنة ١٩٠٠م.

(٢) العبدري -محمد بن محمد بن علي- القرشي المغربي من رجال القرن السابع هـ، الثالث عشر م، حج فصنف رحلة مسجوعة إلى المشرق بدأها من أقصى جنوب المغرب مارًّا بتلمسان ومليانة والجزائر ... وذلك سنة ١٢٨٩م - ٦٨٨هـ.

(٣) ملحوب: اسم مكان ورد في قصيدة لعبيد بن الأبرص.

(٤) العقوق: قيل بيض العقاب في الجبل الشاهق المنيع، وقيل الأبلق هو الذكر والعقوق هو الحامل، وهذا مستحيل، يضرب المثل فيما لا سبيل إليه.

(٥) يميل العبدري إلى النقد وفي كلامه مبالغة؛ لأن مراحله كانت مستعجلة فإنه يجهل الوضع الحقيقي، وعابر السبيل المسرع يمر مر السحاب ولا يسمح له بالاطلاع.

قال الشيخ البلوي[١] وقد ورد على الجزائر مع رفقائه:

(... فرأيت محيًّا صبيحًا، وترتيبًا مليحًا ومسجدًا عتيقًا وبناء أنيقًا وأناسًا قد سلكوا إلى الحسن والإحسان طريقًا، من مدينة قد أحاط بها البحر إحاطة السوار بالزند ...).

(تاج المفرق بتحلية علماء المشرق)

قال عبد الرحمن الجامعي[٢]:

(... وأما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل من فارقته من أدباء بلدي، وبها تذكرت بعض ما كان منية خلدي لاجتماعي فيها بالأديب الماهر الدال وجوده على صحة القول بوجود الجوهر الفرد في سائر الجواهر، أديب العلماء وعالم الأدباء محيي طريقة لسان ودين الخطيب ... أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن علي ... فهي الجزائر والحمد لله دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم العقل والنقل، وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل ... وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء، وأعلام خطباء مساجدهم

---

(١) البلوي -أبو البقاء خالد بن عيسى- من فضلاء الأندلس وعلماء القرن ٨هـ/ ١٤م، حج فصنف في رحلته (تاج المفرق)، قال المقري: رحلة كثيرة الفوائد.

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله الفاسي الشهير بالجامعي أديب وكاتب، ولد بفاس سنة ١٠٨٧هـ، ونشأ بها في طلب العلم فحصل على علوم شتى، ثم قدم مدينة تونس وتعاطى للتدريس بالجامع الأعظم -الزيتونة- (صاحب قريحة جيدة في نظم الشعر البليغ لا يضاهى، فريد عصره فيه في زماننا هذا، له مهارة في جميع الفنون ... وله تأليف لطيف في فتح قلعة وهران بالغرب). (من كتاب الذيل لكاتب بشائر أهل الإيمان) لحسن خوجة ص ١٦٧.

بالتدريس معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة وقد ذكرت ما فيه غنيمة من علمائها الأخيار، وكلهم متحلون بأحسن الصفات متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث وإحياء ليلة المولد النبوي مثل ما في القديم والحديث.

وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب ملأى بالأولاد حيث أن المحل الذي يسع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون إليها الدرج يتعلمون القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن العظيم وحفاظه كانوا كثيرين ...).

(من رحلة الجامعي)

وصف مدينة الجزائر

(... وأنه لما منَّ عليّ المولى الكريم ذو الفضل السابغ العظيم، بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر، وحلول مغانيها النواضر، التي غص ببهجتها كل عدو كافر، فلذلك يتربصون بها الدوائر، في الموارد والمصادر، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزمن الغابر، أبرأني من عليلي ووجدي ما عاينته من روائها[١] العسجدي، وبحرها الأزوردي؛ إذ هي كما قيل:

بلــد أعارتــه الحمامــة طوقهــا وكساه حلة ريشه الطـاووس[٢]

---

(١) الرواء: المنظر الحسن.

(٢) ينسب هذا البيت للشاعر الأندلسي ابن اللباقة (المتوفى سنة ٥٠٥هـ - ١١١٣م) في وصفه جزيرة ميورقة إلى أن يقول:

فكأنها الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كئوس

ما شئت من حدائق كالنمارق، وقصور نوع المحاسن عليها مقصور، والذي أعارها ذلك المرأى الجميل، وأصارها فضية الصباح عسجدية الأصل، وألحقها بهجة وإشراقًا، وألبسها نضرة وإيراقًا، وأبداها للعيون آنق من جيرون[1] غرر أعلام ينجلي بهم الظلام وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار، طلعوا في بروج سعودها بدورًا، ألبسوها رواء ونورًا؛ فاهتديت بأنوارهم السنية إلى قطف ما راق من أنوارهم الجنية، ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت، وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت، ونسيت ببشرهم وتأنيسهم وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم، وما عاينته من رهج القفار وقابسته في لجج البحار).

ابن زاكور[2]: نشر أزاهير البستان ص ٣، ٤

مدينة الجزائر في أواخر القرن السادس عشرم

(الجزائر .... عامرة، كثيرة الأسواق بعيدتها، كثيرة الجند حصينة، لها

---

(١) جيرون: قيل هو جيرون بن يعد بن عاد نزل بدمشق فبناها فسميت المدينة جيرون، وقيل: هو اسم أحد أبوابها فقط، وقيل هو اسم لإرم ذات العماد.

(٢) ابن زاكور -أبو عبد الله محمد بن بلقاسم بن محمد بن عبد الواحد- الفاسي، رحالة وأديب مغربي، ولد بفاس وتعلم بها في منتصف القرن ١٧م، ثم ارتحل إلى تطوان وأخذ عن علمائها، وفي سنة ١٦٨٣م قدم إلى الجزائر وأخذ عن الشيخ محمد بن سعيد قدورة -توفي ١٦٨٧م- فأجازه في رجب ١٠٩٤هـ -جوان، جوليت ١٦٨٤م- وتوفي ابن زاكور سنة ١١٢٠هـ، والرحلة تسمى (نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان). ونثرها مسجوع، طبعت بالجزائر سنة ١٩٠٢م/ ١٣١٩هـ.

أبواب ثلاثة[١]، وفيها المسجد الجامع واسع، إمامه مالكي المذهب، وفيها ثلاثة خطب إحداها للترك إمامهم حنفي المذهب، ومرساها عامر بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبًا في قلوب العدو، فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقية وأعمر تجارًا وفضلاً وأنفذ أسواقًا وأوجد سلعة ومتاعًا حتى أنهم يسمونها (اصطنبول الصغرى)، وطلبة العلم فيها لا بأس بهم إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرًا.

والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد أفريقية، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرًا، وفي هذه المدينة قبر الوالي الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي[٢]، وقبر الوالي أبي العباس سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري[٣]، وقبر الوالي الصالح أبي النور، وكذا يقال له عند أهل البلاد، وهو الذي قبره في راس الجبل، وكل هؤلاء خارج باب الوادي، وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بهم والحمد لله[٤].

---

(١) والصحيح أنه كان للمدينة خمسة أبواب: باب عزون، باب الجديد، باب الوادي، باب البحر، باب الجزيرة.

(٢) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ٧٧٨، ٨٤٥هـ/ ١٣٨٧، ١٤٧١م، (راجع حياته في باب التراجم).

(٣) أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري، توفي ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، ودفن في مقبرة باب الوادي، وله منظومة في التوحيد سماها الجزائرية.

(٤) أقام التمقروتي أكثر من شهرين في الجزائر ٨ ذي القعدة إلى ١٧ محرم الموافق ٢٨ أوت إلى ٥ نوفمبر ١٥٨٩م وهو في طريق العودة إلى اصطنبول، وذلك بعد أن مر ببنزرت وعنابة وبجاية.

ولقد سافرت السفينتان اللتان جئنا فيهما (!) راجعتين من الجزائر إلى اصطنبول بأموال كثيرة وجباية البلد وهدايا للسلطان والوزير والقبطان وغيرهم، وأموال التجار وذخائر الجند وغير ذلك، وسافر فيها كثير من المسلمين وقاضي البلد المعرج بماله ونسائه وأولاده، والتجار والحجاج وغيرهم.

فبعد أن انفصلوا عن البلد بليلة قام فيها العلوج -مماليك رايسها- مع من فيها من نصارى القذف ونصارى الهدية، فقتلوا الرئيسين ومن حاربهم من المسلمين، فرمى بعض المسلمين أنفسهم إلى البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق بعضهم، وذهب النصارى بالسفينتين إلى بلادهم بما فيهما من الأموال والنساء والصبيان.

فذكر لنا بعض من له خبرة بأمور الباشا والي البلد أن الذي ذهب له في السفينتين ألف ألف مثقال، وذكر آخر أنه ثمانية عشر قنطارًا ذهبًا سوى الجوهر والملف وسائر السلع والفرش؛ فوقع مأتم عظيم في كل دار من ديار الجزائر حزنًا على ما وقع للمسلمين من المصيبة في الأنفس والأموال ... ثم بعد أيام ورد الرائس أرناوط مامي[1] وكان غائبًا في (صارا) في مراسي بلاد النصارى بثماني سفن وأخذ ثمانية عشر نصرانيًا من نصارى السفينتين ذهبوا في مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية عشر ألف مثقال، فذكروا أنهم لما وصلوا بلاد النصارى اقتسموا ما ذهبوا به فأتاهم ألف مثقال لكل إنسان بعد أن رفعوا عشرين ألف مثقال صدقة للكنيسة.

---

(١) قبطان بحر وكان من خدام قرا علي.

وذكروا لنا أنهم عزموا على هذا الغدر والفتك قبل وصولنا الجزائر ومن معهم ... وكان السبب في ذلك فيما ذكر أن تشاوروا بينهم فقال ذو رأيهم: السفينتان الآن فارغتان ليس فيهما إلا الأنفس أخِّروهما حتى ترجعا من الجزائر موسوقة بالأموال والذخائر، فكان الأمر كذلك .... ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزائر.

التمقروتي[1]: (النفحة المسكية ص ١٣٩ - ١٤١)

قال الجامعي في مدح مدينة الجزائر[2]:

بلاد برأس الغرب تاج مكلل	وخلخال سوق الشرق غير
بدت بمنصات الزمان كأنها	عروس تجلت في أعال المنابر
وقد قُلدت من بحرها بموشح	وصيغت لها الأمواج خلخال
ولاح بها باب الجزيرة مثلما	تبسم ثغر في وجوه البشائر
كأن مجاز البحر معصم غادة	تحلى سوارًا واكتسى بجواهر
ولله أبارج بشاطئ بحرها	تحاكي النجوم الزهر في عين خازر
كأن الرياض الخضر محدقة بها	ذوائب أصدغ الوجوه النواضر
غصون وأنهار وتلك لهذه	تحن فتحنوا لاستلام الغزائر
فتبدو وقد حاك النسيم برودها	نصال رماح في زرود مشاجر

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد أديب وسفير السلطان السعدي مولاي أحمد المنصور الذهبي أرسل في مهمة لدى السلطان العثماني باصطنبول، فصنف رحلة سماها (النفحة المسكية في السفارة التركية)، وتوفي التمقروتي سنة ١٠٠٣هـ- ١٥٩٤م.

(٢) تقدم الإشارة إليه في باب الرحلات.

وﷲ مـا ضـمنته مـن كـل منظـر حلاوتـه، مـا مـر تلقـى بخـاطر
فـدعني مـن غرناطـة وربوعهـا وشـنيل فالحسن انتهـى للجزائـر
فما تفـضل الحمـراء بيـضاء غـادة مقرطفــة بالبــدر ذات غــدائر
ومن لربـوع بـالجمال وقـد غـدت كخــط زبــور في قــديم الــدفاتر
وهــذي ربــوع حاطهــا بإحاطــة مؤلفــة مــن ســتره خــير ســاتر

الشعر الملحون: قال الشيخ ابن مسايب[1]:

زر مـــولى ســـاكة نوصـــيك
طـــر مـــن ثـــم لبوفريـــك
اعمـــل الـــدرك عـــلى جنحيـــك
تبـــات بلـــد الجـــير نزاهـــا
بـــت زاهـــي وأصـــبح مـــسرورا
بـــين مـــآ ومنـــازه وقـــصور
خـــذ وعـــده ســـيدي منـــصور
قبـــل ألا تـــدخل هيههـــا
قـــم كـــي تنحـــل البيبـــان
للجزائـــر داخـــل فرحـــان
زر ســـيدي عبـــد الـــرحمن

(١) من شعراء القرن الثامن عشر، بتلمسان.

بركتــــــه ينفعنـــــا بهـــــا

ليلـــة الجمعـــة اطلـــع للـــشيخ

نرســــلك وإذا كانـــت صريـــخ

تـــــورخ منازلهـــــا تـــــوريخ

واعـــرف الـــدار ارجـــع ليهـــا

ادخـــل مزغنـــة يـــا صـــاح

عنـــدهم تمتـــع وارتـــاح

تنـــسقي مـــن كيـــسان الـــراح

مـــن خمـــور الـــسود اسـقها

تأسيس الجزائر ومليانة والمدية

واختط (زيري) مدينة (أشير) للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطري لهذا العهد، حيث مواطن حصين، وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب.

واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية، وحين نازل أبو إسماعيل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر، وعظمت نكايته في العدو، وكان الفتح وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية، وعقد

له على قومه، وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بدون أشير، وعقدت له على تاهرت وأعمالها.

ثم اختط ابنه بلكين[1] بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة لمدونة[2] وهم من بطون صنهاجة، وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن الغرب الأوسط.

(ابن خلدون[3]: كتاب العبر ج ٦، ص ٣١٣ - ٣١٤، ط بيروت)

ذكر ملوك صنهاجة بأفريقية المغرب

وإن كان هؤلاء المذكورون مندرجين في دول الشيعة، وملتزمين طاعتهم ولكنهم استبدوا، وقد خفتت الدولة العبيدية فكانوا ملوكًا جحاجح.

---

(١) بلكين بن زيري بن مناد من أشهر أمراء صنهاجة في خدمة الفاطميين، قضى حياته كلها في محاربة زناتة بالمغرب الأوسط حتى أقصاهم عن البلاد واستولى على المسيلة والزاب، كما استولى على فاس وسجلماسة وهزم برغواثة حتى وفاه الأجل وهو في طريق العودة ٣٧٣هـ- ٩٨٤م.

(٢) لعل ابن خلدون يقصد بالأخطاط التوسيع والتعديل حتى أصبحت من الأمصار؛ لأن المدن الثلاث كانت موجودة وآهلة قبل بلكين.

(٣) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين، ولد بتونس في رمضان ٧٣٢هـ- ماي ١٣٣٢م، وتوفي بالقاهرة في رمضان ٨٠٨هـ- مارس ١٤٠٦م. والجدير بالذكر أنه أقام ما بين ٧٧٦، و ٧٨٠هـ/ ١٣٧٥ - ١٣٧٨م بقلعة بني سلامة وتاو غزوت بقرب مدينة فرندة - ولاية تيارات- لتأليف المقدمة والنسخة الأولى من كتاب العبر.

وكان ابتداء أمرهم أن معدًا -الملقب بالمعز لدين الله- أبا تميم جبار بيت الشيعة وفحل من دون أوليهم لما أزمع الرحيل إلى المشرق وحرص على استبقاء ما حازه من ملك المغرب بأفريقية وما إليها إلى أحواز تلمسان إلى صقلية؛ ليكون له ردًا ولملكه بالمشرق عدلاً.

وكانت بين ملوك زناتة في قديم الزمن وحديثه وبين أمراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلية من مليانة والجزائر والحدود التاهرتية فما وراءها حروب عظيمة وأضرار متصلة وخسائف ظاهرة وكامنة.

وكانت الرياسة في صنهاجة إلى زيري بن مناد وكان زيري أول من ظهر منهم بالمغرب الأوسط وهو الذي بنى مدينة أشير وإليه تنسب، وبنى ابنه بلكين بأمره مليانة ومدينة الجزائر والمدية.

(لسان الدين بن الخطيب: كتاب أعمال الأعمال ، ص ٦١ - ٦٣، ط الدار البيضاء)

التحاق الجزائر بالمملكة العثمانية

فرضي أهل المدينة وصوبوا رأيه في ذلك، فأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتابًا إلى حضرة السلطان يخبرونه بصرف طاعتهم إليه، وأنهم من جملة من تنفذ أحكامه ويقع فيهم نقضه وإبرامه، ويكتب هو أيضًا مثل هذا الكتاب، فرضي أهل المدينة بذلك وكتبوا كتابًا كما أمرهم وكتب أيضًا آخر.

وعين أربعة أجفان برسم السفر إلى حضرة السلطان، وقدم عليهم رجلًا من خواص أصحابه اسمه الحاج حسين، ووجه صحبتهم هدية عظيمة من جملتها أربعة رؤساء من رؤساء النصارى العظام.

فوصلت الأجفان إلى حضرة السلطان سليم، فلما أرسوا بمرسى القسطنطينية العظمى وقابلوا قصر السلطان رموا على حسب ما جرت به العادة مدافع كثيرة، ونزلوا بتلك الهدية إلى الوزير الأعظم، فأعلم السلطان بقدومهم وأوصل إليه الهدية التي قدموا بها فقبلها السلطان، وأمر بإنزالهم وإجراء النفقة عليهم، ثم إنهم لما أرادوا الرجوع وجه صحبتهم سنجقا إلى الجزائر بقبول ما كتبوا إليه، وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته، وقد كان القونص المستقر بالقسطنطينية من قبل البنادقة أعطاهم الذي يسميه أهل البحر الباسبوط يتضمن حمايتهم من كل ما يلقونه من أجفان العدو الحربيين فحملوه معهم وسافروا راجعين إلى الجزائر.

فلما كانوا في أثناء السفر لقيهم ثمانية أجفان البنادقة، فأروهم الكتاب الذي أعطاهم القونصي فقبلوه منهم في الظاهر، وكان ذلك منهم مكرًا وخيانة وقالوا لهم: لا بد لنا من الذهاب معكم إلى ناحية أنظول خشية عليكم من بعض الأجفان الحربية، فيستولي عليكم فنعاقب نحن بكم، فاغتر بذلك المسلمون وذهبوا معهم إلى ناحية أنظول هجموا عليهم وصدموهم صدمة واحدة، ولم تكن للمسلمين بهم طاقة فغرقوا ثلاثة أجفان للمسلمين، ولم ينج منهم إلا ثلاثة أنفس.

وأما الجفن الرابع الذي فيه مقدم الجيش فإنه عطب على الساحل وخرج الكفار في أثرهم فقتلوا كثيرًا من المسلمين، وفر الباقون بين أيديهم، وأما مقدم الجيش فإنه دخل أنظول وكان بقربها كما ذكرناه ولقي قاضي المدينة وأخبره بما جرى على أجفان المسلمين وكيف مكر بهم كفار البنادقة.

فكتب القاضي بذلك كتابًا إلى حضرة السلطان يعلمه بما جرى على أجفان الجزائر، وعين لحامل الكتب مركبًا بما يحتاج إليه من آلة السفر، وسافر فيه مقدم أجفان الجزائر فلما وصلوا إلى الحضرة دخلوا إلى الوزير الأعظم، ووصلوا إليه كتاب قاضي أنظول، فلما قرأ الكتاب استغاظ من ذلك استغاظًا شديدًا، وبعث إلى قونص البنادقة يتهدده ويعلمه أن أجفان أهل الجزائر إن وصل خبرها إلى السلطان قبل أن تردوها يقع عليك بلاء عظيم من قبله.

فامتثلوا أمر الوزير وردوا لهم جملة ما ضاع لهم من الأجفان والأسباب وغيرها، فرجع مقدم الجيش إلى مدينة أنظول فوجد بها ثلاثة رجال من الذين نجوا من الأجفان التي استولى عليها العدو، فذهب الجميع إلى جزيرة بقرب أنظول، فوجدوا بها الأجفان التي غرَّقها لهم العدو.

فركبوا فيها ورجعوا إلى الجزائر، فلما دخلوها ووقفوا بين يدي خير الدين وأوصلوا إليه أمر السلطان والسنجق الذي وجهه صحبتهم، وأعلموه أنه قبل طاعة أهل الجزائر وأذن لهم في صرف الخطبة والسكة إليه كما تضمنه الكتاب الذي وجهه معهم، ففرح بذلك خير الدين فرحًا شديدًا وسرَّ به سرورًا عظيمًا، إلا أنه حصل له بعض الحزن على ما وقع لأجفانه من النكبة التي حصلت لهم من عدو الدين.

واستقر خير الدين أميرًا من قبل السلطان الأعظم سليم خان، وصرف دعوته إليه وأمر بذكره على منابرها وضرب السكة عليه.

(من غزوات عروج وخير الدين)

ذكر أخبار الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر

أول ما ابتدأ به قائد الجنود الفرنسوية في الجزائر أن رتب مجلسًا، من رؤساء الجنود لضبط خزائنها من الجواهر والمهمات الحربية والذخائر، فتحصل من ضبطها -على ما قيل- من الذهب والفضة، وقيمة الجواهر: ثمانية وأربعون مليونًا وستمائة وسبعة وعشرون فرنكًا ... وهي الصوف والحنطة والشعير وغيرها، ما يبلغ قيمته ... وهي الصوف الفرنكات ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب، مع ثمن الأملاك الأميرية داخل البلد وخارجها ما قيمته خمسون مليونًا من الفرنك.

ثم حمل الباشا مع أهله وأتباعه إلى (الكورية) ثم إلى الإسكندرية، ولما وصلها؛ احتفل به محمد علي باشا، وأطلعه على المهمات الحربية وغيرها، وصنع له مأدبة حضرها الأعيان، وأكابر البلد، وفي أثناء الطعام أثنى حسين باشا على الخديوي، ومدح أعماله وهمته، في إعمار مصر وترقيتها فأجابه الخديوي بقوله: يا حضرة الباشا ... إن جميع ما رأيته كان منشؤه من أكل الفول، وكان ذلك منه تذكارًا له فيما سلف من الجواب عند قراءة الكتاب ... فتمغص حسين باشا، وتوجه لمحله متألمًا، وبعد أيام قليلة، توفي سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ١٢٤٥.

ولما كثر الهرج بين الانكشارية والجيش الجزائري جمعهم القائد العمومي، وحمل أكثرهم إلى نواحي أزمير، ورخص للأغنياء منهم، في الإقامة بالجزائر، ريثما يبيعون عقاراتهم وأمتعتهم.

وبعد فراغهم من أشغالهم حملهم إلى جهات مختلفة، ودون الدواوين، وجند من أهل المدينة جندًا بلديًا، وبنى قواعد حكومتهم في الجزائر على إظهار

الهيئة، ومراعاة أمور الشريعة الإسلامية، واحترام المساجد وتعظيم العلماء، وحرية العوائد، وتلطف ما شاء في إمالة القلوب إليهم وبذل الأموال ترغيبًا، حتى يلين إليهم القوي، ويدخل في طاعتهم الأبي.

وظن أن سياسته هذه كافية في الاستيلاء على سائر المغرب الأوسط، ولم يعلم أن دون ما أراد خرط القتاد، وقد ظهر لهم بعد حين أن في عين اليقين حروبًا، يشيب لها الوليد ويضعف لها القوي الشديد، إلى أن نالوا غاية مرغوبهم وذلك تقدير العزيز العليم.

(تحفة الزائر تأليف الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري ص ١٣٧ - ١٣٨)

هذا تاريخ قدوم لبلادور إلى الجزائر

وسبب قدومه أنه عمر مركبًا من مراكبه وأوسقه بالمال والسلعة، وبعثه إلى وهران، فأخذه رايس من رؤساء الجزائر واسمه كجك علي، ودخل به إلى الجزائر بعد ما وقع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسًا عظيمًا من جملة الرؤساء ودخل في شهرة عظيمة.

ثم إن كجك علي أحضر هذا الرايس إلى حسن أغه خليفة خير الدين، وقبل يده وكشف عن رأسه وبقي داهشًا من الهيبة؛ فسأله حسن أغه عن أخبار بلاد النصارى، فقال له الرايس: إن سفينة تركتها تريد القدوم إلى بجاية، فعند ذلك أمر حسن أغه أن تجهز له أغربة، فتجهزوا في أسرع وقت فساروا إلى طلبها إلى نواحي بجاية، وكمنوا في موضع يقال له العش والمقار.

وكان من جملة رؤساء الجزائر كجك علي المتقدم الذكر فطلعت لهم تلك السفينة ذاهبة إلى بجاية، فقربوا منها وشرعوا في قتالها، وكانت هذه السفينة في

غاية الاستعداد للقتال، فلم تزل مع أجفان المسلمين في أخذ ورد إلى أن وقعت فيها النار فالتهبت في أطراف السفينة فعجز الكفار عن إطفائها فألقوا أنفسهم في الماء فالتقطهم المسلمون من البحر، وأطفئوا النار.

فعند ذاك رجع الرؤساء إلى الجزائر وهم فارحون بهذا الجفن، ودخل الجزائر في شهرة كبيرة، وفرح به حسن أغه غاية الفرح وأمرهم بإنزال ما فيها من الغنيمة فأنزلوا الكفار وأحضروا بين يديه ومعهم ريسهم، وكانوا في حال طلوعهم إلى دار الإمارة تصفف لهم النساء والصبيان وأهل البلد ليتفرجوا؛ فلما وصلوا بهم إلى السجن المعد لذلك، فلما سمع بهم صاحب إسبانيا بما تم على هذين الجفنين، وكان أهل طاعته قد ضجوا إليه بالشكوى مما يفعل أهل الجزائر بهم خصوصًا أهل السواحل منهم بحيث أنهم قالوا للطاغية: إما أن تكفينا أمر الجزائر وإلا نعطي الطاعة لمن أحبها.

فشرع في الحركة إلى الجزائر وأطلق الندا في سائر أقطاره بذلك، فانحاشت إليه جيوشه أفوجًا أفواجًا، فوصل خبر عمرته إلى حسن أغه خليفة خير الدين، فصدق بذلك ولم يكذب ... أدار وجهه إلى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو، فبنى أسوار المدينة وأصلح ما انهدم منها ونصب عليها المدافع وعلى سائر الأبراج، وعين أربعمائة أسير من الكفار لهذا البناء، ثم أنه بعث إلى شيخ المدينة وأمره أن يرفع إليه حساب رجال كل حومة من الجزائر ففعل ذلك شيخ المدينة، ومع ذلك فأخبار العمارة تتوارد في كل وقت على أهل الجزائر. فأمر حسن أغه بقطع أشجار البساتين كلها خوفًا من النصارى أن يستتروا بها عند القتال، وأول ما بدأ هو في بستانه فلم يترك فيه شجرة، فبينما هو في يوم من الأيام جالس في دار الإمارة إذ دخل عليه حارس البحر الذي قال له صاحب الناظور، وأخبره بأن عمارة النصارى قد أتت وهي عمارة كبيرة أخذت وجه

الماء كله وسترته وشرعت في عددها فلم أقدر، فتشوش نظري من ذلك لكثرتها.

فعند ذلك عين حسن أغه جملة من الخيل فصعدوا إلى جبل أبي زريعة ليأتوا بتحقيق العمارة، فرجعوا إليه وكل واحد منهم يقول لم أقدر على إحصاء ما رأيت العدد كثير لا يصل إليه الإدراك. فعند ذلك أمر حسن أغه سيدي سعيد الشريف -وكان هو شيخ المدينة- أن يوجه رجالاً من أهل البلد إلى الأبراج والأسوار برسم حراستها في مقاتلة العدو منها، فنهض شيخ المدينة المذكور وعين الرجال للأبراج والأسوار ونصبوا رايات الإسلام عليها، ووزع حسن أغه على أبواب المدينة بطوائف من المعسكر فعين لباب غزون رجلًا من أعيان العسكر واسمه الحاج مامي، وكان مذكورًا في الشجاعة فقام بما عين له.

وأما حسن أغه فأقام في حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه إلى العدو برًا وبحرًا ومعه جماعة من العسكر وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو، وألويته المنصورة تخفق على رأسه، وجعل على أبواب الوادي (هذا الحصن) مدفعًا عظيمًا يدهش الإنسان عند صيحته، وتزهق النفس من دفعته، وجعل من هذا الحصن إلى القصبة قائدًا ومعه طائفة من العسكر واسمه القائد حسن.

وعين لحراسة باب الوادي رجلاً اسمه القائد يوسف ومعه جماعة من العسكر، وعين معه ثلاثة من القياد اسم أحدهم سافر، وجعله في برج من الأبراج، وقائد آخر اسمه أصلان عينه لقاع السور، والقائد الثالث اسمه رمضان فأقامه قريبًا منه في بعض النواحي.

وأما كجك علي وحيدر فإنه أقامهما في باب الجزيرة ومعهما قبطان السفن واسمه خضر وجملة من رؤساء البحر، وأما أهل الجزائر من العسكر والأندلس

والبلدية فإنهم داروا بأسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب، وأما عمارة النصارى وكان ظهور العمارة يوم الأربعاء في آخر الشهر جمادى الثانية بقي منه ثلاثة أيام سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة -٢٧ جمادى الثانية سنة ٩٤٨- وفي يوم الخميس وقت العصر رست في جون تمانتفوس الموالي للجزائر، فيقال: إنهم لما رسوا وسقط بعض من رايتهم في البحر والمسلمون ينظرون إليهم، فحصل لهم تفاؤل، وعلموا أنهم منصورون عليهم.

وكان نزول العدو على البر يوم الأحد قبل الزوال بشيء قليل، فنزل سلطان إسبانية ودارت عليه عساكره، ويقال: إن عدتهم تسعون ألفًا فأراد المسلمون أن يمنعوهم من النزول إلى البر، فرمت عليهم السفن بالمدافع من البحر، فأوسع لهم المسلمون المجال حتى تمكنوا من النزول، وبات العدو ليلة الاثنين بقرب البلد في موضع يقال له الحامة، وكان زعيم الترك يقال له الحاج باشا، فعزم أن يضرب على العدو ليلاً ففتح له أبواب المدينة وأخذ الراية في يده وخرج معه جماعة وافرة من المسلمين، وكان خروجه من المدينة لما بقي الربع الأخير من الليل فلم يشعر العدو في منزله الذي نزل فيه، وكان الفصل شاتيًا؛ لأنهم وصلوا في شهر أكتوبر في أيام قاسم كون إلا والمسلمين قد خلطوهم ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ورشقوهم بالسهام، فحصلت فيهم ضجة عظيمة فانتبه مالكهم مرعوبًا من نومه وصاح برجاله وخواص وزرائه، وقال: أهؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنهم لا يقومون بحربنا انظروا ما عملوا فينا هذه الليلة.

ثم إن المسلمين رجعوا إلى البلد بعدما قتلوا منهم خلقًا كثيرًا، فلما كان يوم الاثنين تحركت النصارى إلى المدينة ومعهم الطاغية حتى قربوا الأسوار، وهم يزعمون في أنفرتهم وألويتهم منصوبة عليهم، فخيل لأهل الجزائر أنهم نمل

أسود قد ملأ الفضاء، وكان فيهم من الفرسان أربعة آلاف فارس، فشرع في قتالهم من الأسوار بالمدافع وبنادق الرصاص والسهام، وكان في ذلك اليوم تقدمت رجال من الأتراك إلى القتال، وظهرت منهم شجاعة عظيمة منهم رجل اسمه الحاج باشه، وآخر اسمه الحاج مامي، وآخر يقال له خضر، وآخر يقال له الحج بكير، فقاتلوا قتالاً شديدًا إلى الليل، فرجعوا إلى رأس تفورة ونزلوا أمحالهم، فأخذت تلك الوعود كلها وشرعوا في قتال المدينة، وصبت عليهم مدافع المسلمين وخاب رجاؤهم من المدينة، فصعدوا ألويتهم منشورة إلى الكدية المعروفة بكدية الصابون، وشعروا في قتال المدينة منها.

هذا وأهل الجزائر يرمون على العدو بالمدافع من كل ناحية بأصوات الصواعق، وربما وصلوا الرمي على أجفانهم التي في البحر. هذا ما وقع لهم من الحرب في يوم الاثنين وهو اليوم الأول الذي تحركوا فيه إلى الجزائر، فلما كان يوم الثلاثاء أرسل الله تعالى في آخر الليل عاصفة فقطعت حبال أجفانهم، ونشروا صواريهم خوفًا من الهلاك، وتم هذا الريح في الزيادة فتشوش الجنرال من ذلك واسمه أندرية، وكذلك من كان معه في الأجفان، وساقت هذه الريح العظيمة التي أرسلها الله عليهم جملة من أجفانهم إلى البر، فعطبت على المطاحن وخرجوا منهم أسارى المسلمون، ومالت عرب الجزائر على أهل الأجفان فاستأصلوهم قتلاً فماتوا، فلما رأى الطاغية ما حصل لأجفانه من الغرق والعطب انكسرت شوكته وأخمدت ناره وظهرت عليه مخايل الذل.

وخرج أهل المدينة صبيحة يوم الثلاثاء باجتهاد وعزم قوي، وعلموا أن الله تعالى نصرهم على أعدائه، فخالطوهم وقاتلوهم في تلك الأوعار، فأتى وجوه العسكر إلى الطاغية وقالوا له: أيها الملك قم بنفسك إلى الحرب فإن المحلة على أشراف الأخذ.

فعند ذلك خرج الطاغية والتفت عليه عساكره وأخذوا في القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين إلى رأس تفورة، وجدَّ الكفار في قتالهم وتكالبوا عليهم فتقهقروا أيضًا إلى موضع يقال له: ملعب الكرة، ثم إلى قنطرة الأفران، فلما رأى الكفار ذلك منهم تراكمت جيوشهم عليهم كالبحر الزاخر وصاحوا عليهم من كل ناحية، وطالبوهم من كل دانية فتقهقر المسلمون إلى ناحية سيدي أبي التقى، فعند ذلك صرخ المسلمون في وجه الكفار وحملوا عليهم وضربوهم بالحجارة والنشاب، وكان ذلك اليوم يسيل فيه المطر كأفواه القرب، فراجع المسلمون حمايتهم وحملوا على الكفار من كل ناحية فردوهم على أعقابهم إلى المحلة، ورجع المسلمون إلى المدينة.

ولما كان صباح يوم الأربعاء ظهر الكفار أنهم لا طمع لهم بالجزائر، وأن الغنيمة أن ينجوا بأنفسهم، فقربت أجفانه إلى البر ونزل الجنرال أندرية منها حزينًا، فوصل إلى الطاغية في محلته وأعطاه حق المبايعة، وقال له: أيها الملك ألم أحذرك من السفر إلى الجزائر فانظر عاقبة الأمر الذي كنت حذرتك منه، والآن قم اطلب النجاة لنفسك فإن جل أجفاننا عطبوا على السواحل، فكيف يكون رجوع هذا المعسكر إلى بلادنا؟ فهأنا أيها الملك أذهب إلى تمانتفوس أنتظرك هنالك، فبادر أنت ومن معك من العسكر بالرحيل لتركب في الأجفان الباقية وتخلص إلى بلادك.

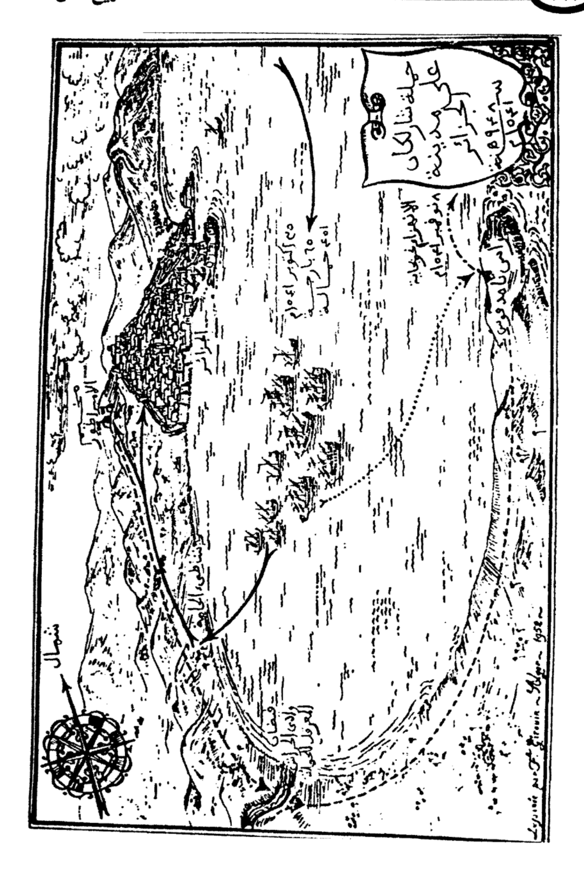
فعند ذلك رجع الطاغية عن الجزائر ونزل على وادي الحراش، وكان قد أجهدهم الجوع فأكلوا أربعمائة من الخيل وباتوا تلك الليلة والمطر يتراكم عليهم والأعراب والقبائل يضربون فيهم بالمكاحل والأحجار، ويلتقطون في السعي.

فلما كان يوم الخميس نظر الطاغية إلى الوادي فرآه حاملاً فهالته رؤيته فاستشار رجاله كيف يحتالون على القطع إلى الناحية الأخرى، فعقدوا صواري سفنهم المنعطبة على الساحل وقطعوا عليهم، فلما قطعوا إلى الناحية الأخرى هجمت عليهم فرسان العرب أيضًا وصاحوا عليهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا.

ولم يزل الطاغية وفرسان العرب تطاعنهم إلى أن وصلوا إلى تمانتفوس، وأقام فيها أيامًا إلى أن خمد هيجان البحر فركب فيما بقي من الأجفان وسافر إلى بلاده وهو لا يصدق النجاة بنفسه وخلف كثيرًا من الأغربة والأجفان الرقاق وكثيرًا من الأجفان العظام والعشريات والفرقطات ومدافع عظام، وخلف كثيرًا من الرجال والنساء والصبيان التي أتى بها، فإنه لم يذهب واحد منهم وعدتها ألفان وثلاثمائة، وأما خيله لم يذهب منها واحد سوى الذي مات في الحرب والذي أكلوه، وحاصل ما خلفه لأهل الجزائر مال لا يحصى.

كمل تاريخ النبلادور حين أتى الجزائر في المرة الأولى. وكتبته من مجلد فيه تواريخ بخط عجمي.

-مخطوط المحكمة-


شمال

قال ابن زاكور الفاسي يمدح الشيخ عمر بن محمد المانجلاتي[1] بالجزائر عام ١٠٩٤هـ:

حي على الأنس إن طيف الهموم ... وسل نفسك وانهج نهج من صبرا

ولا تصخ لدواعي البث إن ... إن دواعيه تستجلب الضررا

واذكر معاهد قد راقت نضارتها ... فإن في ذكرها أنسًا ومعتبرا

لله منا أصيلان جنيت بها ... في روضة اللهو من نخل المنى ثمرا

إن الأحبة يعدو عن وصالهم ... بعد يؤجج في أحشائنا سقرا

حيث ائتلفنا ولا واشٍ ينم بها ... نلنا عدا الأعطرين الورد والزهرا

ولا رقيب على الأفراح يحسدنا ... دانٍ خلا النيران الشمس والقمرا

وزهوننا بتلاقينا وألفتنا ... أغرى بنا الأعجمين الطير والوترا

فصاح ذاك على أفنان دوحته ... حي على الأنس إن طيف الهموم

وبث ذا ببنان الذي يحركه ... خذ ماصفا لك وانبذ كل ما كدرا

والبحر مثل مذاب التبر حاك به ... كف النسيم دروعًا حسنها سحرا

والورق تسقط في أمواجه دررًا ... كما سقطت على بحر العلا عمرا

حبر الجزائر والدنيا برمتها ... من عالج العلم حتى ذاع وانتشر

بدر الجلال ومصباح الكمال ... س الجهال الذي كل الورى بهرا

شيخ أحاط بأنواع المديح فما ... أبقى لمن بعده شيئًا ولا وذرا

إن تنم أهل العلا إلى محاسنه ... تجد جميعهم من بحره نهرا

ذو همة شغلت بالمجد عالية ... حم بها أحد النسرين فانكدرا

---

(١) عالم فقيه وأستاذ ماهر توفي سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م.

إلى شمائل أزرت بالنسيم ضحى وخلق كالخلوق قد هفا سحرا

من يبلغ الأهل أني بعد بينهم جالست بدر هدى بالشمس معتجرا

وقد ظفرت بما قد كنت آمله لما قضت منيتي من نزره وطرا

حتى لقد خلت آمالي قوائل لي: قدك ابن زكور هذا البحر فاقتصرا

من ذا يطاولني والمجد صافحني والبدر أقبسني والعلم لي سفرا

قد كنت قدمًا أرى خطب النوى فاليوم حين اكتسبت المجد لاضررا

ما أحسن البين إذ كانت إساءته تفضي إلى مثل مصباح الدجا

بقية السلف الماضي ونخبته لكن محاسنه أزرت بمن غبرا

قاضي القضاة الذي لا شيء يعدله في عدله الذي فشا في الناس

بحر العلوم التي قد غاضت منذ زمان وسيل الجهل فيه جرى

بدر الجزائر صان الله بهجته عن أن يرى بخسوف البدر مستترا

وبحرها العذب لا زالت جداوله تروض العالمين البدو والحضر[1]

ترجمة عبد الرحمن الثعالبي

نسبه

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف بن طلحة بن عمر بن نوفل بن عامر بن منصور بن محمد بن سباع بن مكي بن ثعلب بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد البر بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن أبي طالب.

---

(١) المنتخب من شعر ابن زكور تأليف عبد الله كنون الحمسي العرشتي (المغرب ١٣٩١).

مولده ونشأته

ولد الثعالبي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٤م بواد (يسر) على بعد ٨٦ كم بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر، ونشأ هناك بين أحضان أبويه نشأة علم وصلاح وأخلاق مرضية، وقد تلقى مبادئ قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة وضواحيها، وقد كان حاضرًا يوم غزا الإسبان (تدلس) في دولة بني عبد الواد (وإخوتهم من بني مرين)، ودخلها بعسكره ضحوة يوم الاثنين ١٢ من ذي الحجة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م، وكان عمره حوالي خمس عشرة سنة.

رحلته لطلب العلم

نزح الثعالبي من مسقط رأسه صحبة والده محمد بن مخلوف في أواخر القرن الثامن الهجري وأواخر القرن الرابع عشر الميلادي، طالبًا المزيد من العلوم والعرفان، باحثًا عن مظانها في مناكب الأرض، وقصد الغرب الأقصى حيث اجتمع ببعض علمائه الفطاحل وأخذ عنهم ما تيسر له أخذه، وقد سمع وروى هناك عن عالم الدنيا محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بالحفيد، وكان الثعالبي إذ ذاك يناهر البلوغ.

ثم يمم شطر بجاية صحبة والده أيضًا سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م (فمكثا بها زهاء سنة، ثم توفي والده ودفن هناك، وعلى أثر وفاة الوالد عاد إلى الجزائر قصد الزيارة لأقاربه، ثم رجع إلى بجاية أيضًا حيث قضى ما يقرب من سبع سنوات تلقى خلالها دروسًا شتى في مختلف الفنون عن زمرة من فطاحل العلماء.

وفي سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م انتقل إلى تونس حيث مكث حوالي ثماني سنوات انتفع خلالها بمعظم علمائها وأجازوه فيما هو أهل أن يجاز فيه، وفي سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م توجه إلى مصر، حيث استقبل استقبالاً كريمًا، وقد أقيمت له زاوية هناك، وما تزال تلك الزاوية وقفًا محبسًا على الثعالبي إلى يومنا هذا.

ومن هناك توجه صوب الحرمين الشريفين حيث أدى فريضة الحج، واغتنم الفرصة (فأخذ عن بعض علماء الحجاز وأجازوه في فنون شتى، ثم عاد إلى مصر).

وفي سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م رجع إلى تونس فوجد بعض شيوخه قد توفي (ومكث هناك حوالي سنة ملازمًا خلالها حلقات جامع الزيتونة) وفي أواخر سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م عاد أدراجه إلى بلده المحبوب بعدما غاب عنه حوالي عشرين سنة قضاها في اكتناز المعارف واغتراف العلوم، أنى كانت وحيث بانت.

وهكذا استقر بمدينة الجزائر، حيث راح يشتغل بعبادة ربه، وبث العلوم الشريفة بين أبناء ملته، وتحبير المؤلفات والمصنفات العديدة في شتى الفنون إلى أن ناداه أجله المحتوم صبيحة يوم الجمعة ٢٣ من شهر رمضان المعظم سنة ٨٧٥هـ / ١٥ مارس ١٤٧٩م، بعد أن قضى تسعين خريفًا كانت كلها طوعًا لمرضاة الله، ووقفًا على مصالح العباد.

ثم نقلت جثته الكريمة من منزله إلى مكان يقع على ربوة خارج (باب الواد) يعرف آنذاك بـ (جبانة الطلبة) ودفن هناك (ومنذ ذلك الحين أصبح ضريحه مزارًا يتبرك به، ولم يزل الزائرون يقصدونه ذكرانًا وإناثًا يوميًا طوال السنة إلى وقت غير معلوم).

وقد رثاه تلميذه المخلص الأديب الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري، ثم الزواوي بقصيدة من بحر الطويل، فقال في مطلعها:

لقد بان أهل العلم عنا وأقفرت	منـــازلهم إنـــا إلى الله نرجـــع
كما بان عنا شـهمنا العـالم الـذي	ســناه بــأنوار الحقيقــة يــسطع
أبوزيد المشهور بالعلم والتقى	لـه الفـضل فينـا والمقـام المرفـع

مؤلفاته

يعد الثعالبي أخصب إنتاجًا من علماء قطره ومتصوفيه، وذلك راجع -فيما نظن- إلى اعتزاله عن سواد الناس (وملازمته لمهنة التدريس في شتى الفنون المتداولة بين علماء ذلك العصر).

وقد نيفت مؤلفاته على التسعين، أكثرها ما تزال مخطوطة، وجلها يوجد بأرض السودان نذكر منها ما يلي:

١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن.

٢- تحفة الإخوان في إعراب آي القرآن.

٣- الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز.

٤- العلوم الفاخرة، في النظر في أمور الآخرة.

٥- كتاب المرائي.

٦- روضة الأنوار، ونزهة الأخيار.

٧- رياض الصالحين.

٨- الأنوار في معجزات المختار.

٩- الجامع الفرعي.

١٠- شرح مختصر خليل بن إسحاق المالكي.

١١- شرح علي ابن هارون.

١٢- شرح على غرار ابن عرفة.

١٣- شرح عيون مسائل المدونة.

١٤- جامع الأمهات في أحكام العبادات.

١٥- الجامع الكبير.

١٦- إرشاد السالك.

١٧- الأربعون حديثًا في الوعظ والرقائق.

١٨- الدار الفائق.

١٩- شرح المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع.

٢٠- الفهرسة.

٢١- مختصر الفهرسة.

٢٢- الرحلة.

٢٣- جامع الفوائد.

٢٤- كتاب النصائح.

٢٥- العقد النفيس.

٢٦- كتاب الإرشاد، في صالح العباد.

٢٧- جامع الخيرات.

٢٨- التقاط الدرر.

٢٩- المختار من الجوامع.

٣٠- جامع الهمم في أخبار الأمم.

٣١- نور الأنوار، ومصباح الظلام.

٣٢- الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.

وغير ذلك.

الإمام أبو عبد الله بن محمد بلخروبي[(١)]

الفقية الصالح أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها تعين للوفادة على مراكش سنة ٩٦١هـ، وفي المرآة: أن أبا عبد الله الخروبي قدم المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الأقصى، وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله، وفي قدمة الخروبي هذه إلى مراكش أنكر على الشيخ أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم، وقال: إنه بدعة، فقالوا: إن الشيخ الجزولي كان يفعله، فقال لهم: لعله بإذن والإذن له لا يعمكم فإن الإذن للنبي يعم أتباعه، والإذن للولي لا يعم أتباعه.

---

(١)ولد بكراكش (على ٤ كم غربي طرابلس الغرب) وذلك حوالي سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، وتتلمذ لأبيه علي الخروبي وللشيخ حاج قاسم وللشيخ الصوفي أحمد زروق البرنوسي الفاسي الذي علم بجاية. ثم قدم الخروبي إلى الجزائر حوالي ٩١٦هـ/ ١٥١٠م فعين للتدريس والإفتاء بالجامع الكبير، وكانت له علاقات متينة مع علماء العاصمة آنذاك مثل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف، كما كانت علاقاته بأتراك الجزائر طيبة فأرسله حسن باشا بن خير الدين في مهمة إلى المغرب الأقصى لدى السلطان السعدي مولاي محمد الشيخ؛ لإبرام معاهدة الهدنة وتسطير الحدود.
إلا أن الشيخ الخروبي عند وصوله إلى المغرب أهمل الوفادة وأفتى في حلق الشارب؛ مما أحدث صراعًا قلميًّا بينه وبين أنصار الشيخ القسطلي. وتوفي الخروبي بالجزائر حوالي ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م، ولا يعرف قبره.
وترك آثارًا منها: كفاية المريد قاسه الناس لشهرته بكتب الغزالي زمنها كتاب (عيون النفس).

وأنكر عليه مسائل كثيرة وبعث إليه رسالة أقذع له فيها، وقد وقفت عليها رحم الله الجميع بمنه، وتوفي الخروبي هذا سنة ٩٦٣هـ، ودفن خارج الجزائر، والله أعلم.

وفي (الجذوة) أنه من أهل الحديث والفقه والتصوف واقف على أغراضهم جمع في فن التصوف والأذكار والأوراد كتبًا منها: شرح الحكم لابن عطاء الله، ورسالة رد فيها على أبي عمر القسطلي المراكشي، وحدثني بعض الجزائريين أنه رأى تفسيرًا له على القرآن العظيم بجزائر مزغنة، وغير ذلك.

وكان جماعًا للكتب وكان خطيبًا بجزائر مزغنة، وكان له وجاهة عند أمراء بني عثمان، استعملوه في السفارة بينهم وبين أبي عبد الله المهدي الشريف الحسني، فورد المغرب ودخل مدينة فاس عاينت إجازته لشيخنا أبي عبد الله الحضري الوزوالي لما دخلها مؤرخًا لها سنة تسع وخمسين وتسعمائة ٩٥٩، وذهب إلى مراكش وخلف خزانة من كتب العلم أخذ عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزيتوني، وعن أبي العباس أحمد زروق وعن أبي حفص عمر العطاوي الراشدي عن عبد الجليل بن محمد الراشدي وأبي عبد الله بن مرزوق، وابن زكرياء المغراوي وأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنهم.

وأخذ أيضًا الخروبي عن عمر بن زيان المديوني عن أبي عبد الله بن يوسف السنوسي عن أبي إسحاق إبراهيم التازي صاحب وهران عن محمد بن واضح الشبي أجاز لي عنه شيخنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الترغي، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الحضري، وعاينت إجازته الشيخين معًا.

توفي بالجزائر بالوباء الذي كان بعد الستين وتسعمائة؛ لأن الوباء كان في مدينة فاس عام خمسة وستين، وانظر هل سبق من الجزائر أو من مدينة فاس.

(أبو العباس أحمد الناصري كتاب: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى)

في علماء الجزائر

... ومنهم الإمام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد بن الإمام الأكبر ذي الفضائل المشهور أبي عثمان سيدي سعيد بن إبراهيم[1] عرف بقدورة أتم الله نوره، شيخ الفقه والحديث، تفرع من شجرة علم، وتدرع برود وقار وحلم، فمحله من الجزائر محل السواد من الناظر، انتهت إليه خطابتها وفتياتها، وجعلت في يديه آخرتها ودنياها، فإليه يهرع عند أشباه النوازل ويفزع عند اشتداد الزلازل، وعليه يعتمد في رواية الآثار، وتصحيح أسانيد الأخبار، إلى فصاحة وألسن، جرى بهما في ميدان الإبداع طلق الرسن، وحلاوة وطلاوة، ألان بهما قلب كل ذي قساوة، وعبارة عليها رونق ونضارة، ولسان خلوب يقود عصبات القلوب.

هذا مع أنه لم يرتضع أخلاف الأدب، ولم يصطبح بسلافة المزري بالضرب، أما لو التبس بمور ذلك المور، واقتبس من نور ذلك الغور، فلا يمترى في أنه يطاول أهل المشرق والمغرب، ويصير نظيره كعنقاء مغرب، وإمامة والده أبي عثمان هي التي أرقته على غيره من الأعيان وأولته المراتب الخطيرة، والفضائل الشهيرة.

---

(١) تونسي الأصل جزائري المولد والمنشأ، درس على الشيخ محمد بن أبي قاسم بن إسماعيل المطماطي، وعلى الشيخ أبي عثمان سعيد المقري بتلمسان، ثم عاد إلى الجزائر وعلم بالجامع الأعظم إلى أن توفي ١٠٦٦هـ - ١٦٥٦م.

سعى مشعر كي يلحقوه فبرزت ... به غرر مشهورة وعلائم

سمعت من أملائه في مجلسه الخطير جملة وافية من الجامع الصغير، وأبوابها من صحيح البخاري يحمد مواردها المدلج والساري، سماع دراية، وتحقيق رواية، فرأيت من ظرفه ولطفه ما سحر وبهر، وتنزهت من فهمه وحفظه في جنة ونهر، ولما أزف رحيلي طلبت منه أن يجيزني بما ينقع غليلي.

(ابن زكور[1] نشر أزاهير البستان، ص ٢٦ - ٢٩)

أبناء علي

١- محمد بن علي ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م

محمد بن علي بن محمد المهدي الشهير بابن علي، فقيه فاضل، نشأ بمدينة الجزائر وأخذ عن مشائخها، وهو والد محمد العربي الآتية ترجمته، مات بالجزائر العاصمة، له (مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر) في الفقه الحنفي.

٢- محمد العربي بن علي ١١٦٤هـ، ١٧٥١م

محمد العربي بن علي بن محمد المهدي الشهير بابن علي، أبو عبد الله، شاعر، أديب، نشأ بالجزائر العاصمة، أثنى عليه عبد الرحمن الفاسي في رحلته، ووصفه (بأديب العلماء وعالم الأدباء)، وهو ابن محمد بن علي صاحب (مجمع الأنهر) السابقة ترجمته، (ديوان شعر) يشتمل على قصائد بليغة في المدائح النبوية.

(عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص ١٦١ - ١٦٨)

---

(١) سبقت ترجمته في باب الرحلات.

أصل اللفظ الفرنسي
تعجيم اللفظ الجزائر

نقلت -أو بالأحرى- حرفت الشعوب الأوربية الاسم العربي (الجزائر) بطرق شتى عندما اتصلت بسكان العاصمة، وقد يكون من المفيد أن نبحث ما هو أصل الصيغة التي تبناها الفرنسيس، وهل هي حقيقة خاصة بهم كما قد يظن ذلك بسهولة؟

ومعلوم أن عاصمتنا الأفريقية سماها الأسبان (ARGEL) والإيطاليون (ALGIERE) والإنكليز والهولانديون (ALGIERS)، (ALGIER) والألمان إذا اقتصرنا على هذه الشعوب.

وقد اتصل سكان الشمال منهم بالمصر الإسلامي بعد شعوب البحر الأبيض المتوسط، فقد تاجر هؤلاء فعلاً مع مدينة الجزائر منذ القرن الثاني عشر بواسطة ملاحي أسبانيا وسكان بيزة وجنوة، ومما يظن قبل إجراء أي تحقيق أن الأسماء التي عجم بها الأسبان، والفرنسيس ، والإيطاليون اسم الجزائر، وتبنوها منذ زمن طويل قد فرضت على سكان الشمال الذين لاءموا بينها وبين طريقة النطق الخاصة بهم، أما ما يخص السكان المجاورين للبحر الأبيض المتوسط فمن الطبيعي أن يبحث عن أقدم نقولهم في الوثائق الصادرة من تجارتهم يعني في الخرائط التي رسمت بواسطة البوصلة والتي تدعى (PORTULANS).

وأقدم وثائق خرائطية معروفة عليها تعجيم أوربي لاسم (الجزائر) هي خريطة تنتمي إلى القرن الثالث عشر حفظت في جنوة، وهي أطلس تمار

لوكسورو أو لوكسورس وخريطة المكتبة الوطنية المعزوة إلى بيزة، والتي يتراوح تاريخها بين عام ١٢٧٥، ١٣٠٠، ففي هاتين الخريطتين تسميتان مختلفتان: سميت الجزائر في الأولى (ALGUER)، وفي الثانية (ALGEZIRA).

ومن الواضح أن الصيغة الأخيرة هي مجرد تقليد للاسم العربي الذي يعني الجزيرة والذي ينبغي أن ينطق به على الطريقة الإيطالية (ALDJEZIRA).

والبكري الذي يذكر مع هذا الاسم جزائر بني مزغنة والذي يستعمل الجمع (الجزائر) يضيف مباشرة بعد ذلك(الجزيرة تدعى سطوفلا) (STOFLA)، ولا شك أن الملاحين تعودوا أن يعتبروا مجموعة الجزر الصغيرة في جملتها ولم تكن تعنيهم إلا بصفتها ملجأ طبيعيًّا تتحطم عليه أمواج الشاطئ، هكذا يفسر لفظ خريطة بيزة.

أما صيغة (ALGUER) فيظهر منها أنها تنتمي إلى كاتالونيا، أما في القرن الرابع عشر فقد واصل الإيطاليون دعوة الجزائر بأسماء تقترب من اسم (DGEZIRA) فأطلس جنوة المعزوة إلى بيتيروفسكونتي ١٣١٨م (PIETRO VESCONTIE 1318) يطلق على موقع الجزائر اسم (ZIRERA) والذي نجده أيضًا في أطلس بينلي (PINELLI) (القرن الرابع عشر)، وفي خريطة جنوة المنسوبة إلى جيوفاني دي كارينيانو ١٣٢٠م، ونقرأ على خريطة الإخوة بيزيقاني ١٣٦٧ (ZIZIERA) وعلى الخريطة البندقية لألبوتينو دافيرقا ١٤٠٩م يقرأ (ZICARA) وواضح أن كل هذه الصيغ متشابهة، أما على الخرائط التي من أصل كاتالوني أو ميورقي فالألفاظ تقترب بالعكس من الصيغة المذكورة من قبل: (ALGUER) وقد كتب (ANGELINE DULCERT) على خريطته سنة ١٣٣٩م: (aurger 1339)، ولكن يخبرنا هو نفسه كتابة أنها رسمت في ميورقة،

ولكن الصيغة التي تحملها وثائق هذا المصدر بصفة عامة هي (aldjère) وهي اختزال الاسم (ALDJEZIRA) ولفظ: (ALGER) هو الموجود على الخريطة الكاتالونية المشهورة المدعوة خريطة شارل الخامس ١٣٧٥ التي صنعها يهودي من ميورقة اسمه (ABRAHAM GRESQUES) وكان ينتمي إلى أسرة احترفت صنع الخرائط، وأن طائفة من وثائق القرن الخامس عشر تستخدم هذا اللفظ منها خريطة (MECIA DE VILADESTE) ١٤١٢ التي صنعها يهودي ميورقي أيضًا، ومنها خريطة (GABRIEL VALLASECCHA) ١٤٣٩ من نفس الأصل : كتب لفظ (ALGER) على خريطة متحف برلين (النصف الأول من القرن الخامس عشر) المنتمية إلى كاتالونيا على حسب ما يظهر كما هو مكتوب على خريطة (ANDREA BENINCASA GRATIOSUS) ١٤٣٥، وعلى خريطة (JAYME BERTRAN) الكاتالونية ١٤٨٢م، وعلى خريطة (JUAN DE LA COSA) نهاية القرن الخامس عشر، وعلى خريطتين أخريين من نفس المصدر إحداهما محفوظة في نابولي والأخرى في مودان.

ولفظ (ALGER) كتب أيضًا على خريطة محفوظة في المكتبة الوطنية والتي يظن (M. DE LA RONCLèRE) أنها رسمت بين ١٤٨٨ و ١٤٩٢ تحت إدارة كريستوف كلومب وخريطة (MARTIN BEHAÏM)، من نفس المصدر عليها لفظ (ALGIR) صيغة مؤلمة للفظ الجزائر.

والحاصل أن لفظ (ALGER) ظهر من جديد على خريطة رسمها (Cabot SEBASTIEN) وكان ربانًا أول لشارل لكان في النصف الأول من القرن السادس عشر، وليس بغريب أن تكون هذه الأخيرة الخريطة كولومبين أوحت بها في هذا الصدد وثائق من أصل أسباني.

وينتج بوضوح من استعراض كل هذه النصوص أن لفظ (ALDJERE) كان استعماله جاريًا في القرن الخامس عشر بين جغرافي كاتالونيا وبصفة محققة بين الملاحين، فصناع الخرائط من يهود ميورقة أو المتهودين منهم على حسب ما يظهر هم الذين ساهموا في نشر هذا اللفظ وإذاعته وفي إثباته.

وهكذا استدرجنا إلى الظن أن صيغة (ALGER) انتقلت منهم إلى الفرنسيس الذين غيروا النطق به فقط تغييرًا خفيفًا .

ألم تكن مدينتا ناربون (NARBONNE) ومونتبولي (MONTPOLIER) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على اتصال مستمر مع الموانئ الكاتالونية في البر والجزر، وطبيعي أن يسبقنا إلى هذا الأمر الكاتالونيون الذين اتصلوا . الأندلس اتصالاً مباشرًا أكثر.

وقد تغلبت الصيغة القشتالية (ARGEL) على الصيغة الكاتالونية في القرن السادس عشر عندما تحققت الواحدة الإسبانية. ولنلاحظ زيادة على ما مر أن صيغة (ALGER) تعادل من الناحية الصوتية صيغة (ALGER) بفضل التبادل الكثير الوقوع بين الراء واللام.

أما ما يخص الصيغة الإيطالية التي استخدمت (ALGIERO) عقب الصيغة (ZIZERA - ZIZARA - ZIZIERA) فهي توجد على سبيل التقريب في خريطة COUGLIELMO SOLERI التي رسمها حوالي ١٣٨٠ ميورقي متهود، وسمى نفسه -كما هو مشاهد- باسم إيطالي نصراني وطلين اسمه الأصلي فلفظ (ALGIER) الذي نقرؤه على هذه الوثيقة والذي يجب بدون ما ريب أن ينطق به نطقًا إيطاليًا (ALGIER) هو يطابق مطابقة مجردة للفظ الكاتالوني (ALDJERE) ويوجد لفظ (ALGIERI) على خريطة إيطالية يرجع تاريخها إلى

القرن الخامس عشر في مكتبة الفاتيكان، كما توجد على خريطة (BECCHI MAGLIA) من نفس العصر.

وفي الختام ينتج من فحص أقدم الوثائق الخرائطية أن الطرق المختلفة لتعجيم لفظ الجزائر تقررت وثبتت -على حسب ما يظهر- في القرن السادس عشر فقط لدى شتى الشعوب الأوربية، وقد كان للجغرافيين وصناع الخرائط خاصة الأثر الفعال حقًّا في تبني الصيغة النموذجية التي يظهر أن الصيغ الأخرى -وخصوصًا الصيغة الفرنسية- اشتقت منها.

(روني لسيس).

موقع مدينة الجزائر[1]

هل كان لقرية بني مزغنة البربرية الصغيرة التي صارت في القرن السادس عشر عاصمة قراصنة الجزائر حق يجعلها -بحكم موقعها الجغرافي- تستحق حظًّا مثل حظها؟

١- وأن تاريخ أصل مملكة الشمال الأفريقي لا يكشف لنا عن أية فكرة، ولا عن أي تدبير يعتمد على اعتبارات من هذا النوع والقرصان عروج لم يأت إلى الجزائر من تلقاء نفسه، بل جاء بدعوة من قبل سكان المدينة، وقد استقر أخوه خير الدين فيها نهائيًّا؛ لأنه وجد فيها ملاذًا كان استعمله قراصنة من قبل، ولأنه كان يأمل أن يتخذ منها مرفأً.

---

(١) الموقع الجغرافي ٣٦ درجة و ٤٧ دقيقة و ١٦ ثانية في خط العرض الشمالي، ٠ درجة و ٤٤ دقيقة وثانية واحدة في خط الطول الشرقي.

وعند النظرة الأولى لا يلحظ في شكل هذا الجانب من المغرب ولا في تركيبه ما يكون في بلاد الجزائر المعاصرة، فليس ثم اتجاه واحد من اتجاهات المسالك الطبيعية هذه التي توجه الناس نحو مكان ممتاز يصلح مبدأ للمرور وملتقى طرق له، أو تستطيع أن تحدوهم إلى أن يتخذوا من ذلك موقع عاصمة قد قيل كل شيء عن عدم وجود مركز جغرافي في بلاد البربر بوجه عام.

وفي المغرب الأوسط بصفة خاصة وعن المصاعب التي يعترض بها اتجاه التضاريس الموازية للشاطئ للتوغل العميق من الشمال إلى الجنوب، وعن الانعزال النسبي للسهول والأودية.

٢- هل يجب أن نقتصر على هذه النتيجة ونستسلم للخوف من حتمية جغرافية جد دقيقة وجد واهية؟

وعندما تكون القضية قضية عاصمة يكون للإنسان حسب ما يظهر الحق في الخروج من الإطار الشديد الضيق المتكون من أرباضها المباشرة، وفي احتضان طائفة من البلاد هي هنا المغرب الأوسط القطر الجزائري الطبيعي الذي يحده من الشمال إلى الجنوب البحر والصحراء، ومن الغرب إلى الشرق ملوية ووادي شرف أو تحده تخوم مجاورة، ولكن هذه المجموعة تنقسم إلى شطرين غربي وشرقي يتعاقبان في المنطقة التلية تحت خط الزوال لمدينة الجزائر تقريبًا.

يرى قوتيي (E. F. GAUTIER) ليدقق ويبرز خطًّا من خطوط الصورة -عند اتصال شطري بلاد الجزائر- امتداد خط قمة كبيرة حتى البحر يشخصه الهوقار ومدينة الأغواط والمدية حسب اتجاه صحراوي يقطعه عند ممر القنصاص الاتجاه الشرقي الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومن الصعب أن ننكر إمكان وجود مدن وعواصم مهيمنة هنا ويذكر التاريخ منها ثلاثًا ذات أهمية متفاوتة.

القيصيرة ومدينة الجزائر المعاصرة في مكان صالح للهيمنة، ويشير إليه التاريخ والجغرافية.

٣- ولكن إذا كان حظ مدينة الجزائر أطول في الزمن من حظ العواصم الأخرى، فذلك بفضل وجود دولة قوية قوة كافية لضمان احتلال عسكري متين استطاع عمل المهندس أن يحطم -في كنفه- الإطار الشديق الضيق الذي يظهر من الطبيعة أنها حصرته فيه، وبهذا الشرط فقط استطاع موقعها -الذي تلتقي فيه أقسام الجزائر الثلاثة الغربي والشرقي والصحراوي المقفر- أن يحظى بكل قميته حظوة حقيقية.

وبنوع الأشكال هذا الممتد على مساحات ضيقة نسبيًا من حيث تضاريس الأراضي ومناخاتها ومواردها الطبيعية الذي هو ميزة من الميزات الأساسية لبلاد الجزائر استطاع أن يساعد مساعدة كاملة في تنمية عاصمتها، وفعلًا لما أزيلت الحواجز الفاصلة بين جميع هذه الأجزاء وجدت مدينة الجزائر نفسها موضوعة وضعًا كاملاً يمكنها -علاوة على المحصولات الفلاحية في الساحل ومتيجة - من أن تصرف وتنقل غلال وادي شلف والسهول العالية في المدية وبرواقية وبويرة وسور الغزلان، وأخشاب وفلين غابات بلاد القبائل، وأصواف المنطقة الصحراوية وركاز مليانة وروينة .

لنوجه نظرنا الآن نحو الخارج نحو البحر: فمن المؤكد أن مؤسسي الجزائر كانوا ينظرون إلى هذه الناحية. واستطاعت ظروف تاريخية أن تحول لموقع مدينة الجزائر معنى جديدًا، وزادت طائفة من التطورات في قيمته بإقامة مرفأ كبيرًا مقام مرسى حقير.

الجزائر واقعة تقريبًا في منتصف الطريق الكائن بين الرأس الطيب ومضيق جبل طارق بين مدخل البحر الأبيض المتوسط الشرقي ومدخله الغربي.

لنلاحظ أيضًا أحداثًا ثانوية أخرى: خط الزوال لمدينة الجزائر يقطع جزيرة ميورقة إحدى جزر البابار التي لا تبعد عنها إلا مسافة ٣٠٠ كم تقريبًا، ثم خط يجمع بين رأس الناو (LE CAP DE LA NAO) ورأس كاكسين ويبرز إبرازا لا بأس به تخوم هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط الغربي حيث يتقابل الشاطئان الأسباني والأفريقي، ويتزايد التقارب بينهما من الشرق إلى الغرب.

وموقع مدينة الجزائر هذا بالقياس إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وإلى الجزر التي تمد في طولها كان له مفعول معروف معرفة جيدة على تعمير المدينة بهجرة اليهود وسكان الأندلس المسلمين أولاً، وهجرة الأسبان إليها من أيكانت أو من بور ماهون.

أما ما يخص الموقع الأوسط الذي بين قناة صقلية ومضيق جبل طارق، فإذا كان له أهمية ما فمن الناحية العسكرية قبل كل شيء، ومن المحقق أن أسطولاً تكون مدينة الجزائر ميناء قيد له يكون في وضع جيد ليحرس ويقطع الطرق الأكثر مباشرة من جبل طارق نحو البحر الأبيض المتوسط الشرقي، ومن أسبانيا الجنوبية نحو إيطاليا الجنوبية أو جزيرة صقلية.

ونحن أنفسنا لم نكد نستقر في مدينة الجزائر حتى خامرت أدمغة العسكريين ورجال البحرية والمهندسين منا فكرة إنشاء مرفأ إفريقي على غرار تولون.

ولا يلاحظ -من ناحية أخرى- ماذا كان يستطيع موقع مدينة الجزائر في البحر الأبيض المتوسط الغربي أن يخوله لها من فوائد اقتصادية من غير تنمية ما وراء البلاد الجزائرية.

وإن حادثًا أعطى لمدينة الجزائر معنى جديدًا هو حفر برزخ السويس الذي تم إنجازه سنة ١٨٦٩، والذي جعل طريق الهند في البحر الأبيض المتوسط، وجعل من مدينة الجزائر مرفأ توفرت فيه أحسن الشروط لرسو السفن والتزود من الوقود.

وهكذا تلاءمت تلاؤمًا مرضيًا الظروف والملابسات التاريخية والجغرافية لإنشاء مدينة الجزائر وتبرير هيمنتها على تراب الجزائر.

ر. لسيس (مدينة الجزائر) باريس ١٩٣٠: ص ٢٩ - ٣٧

رابح بونار

أبو راس المعسكري

وتاريخ مدينة الجزائر(١)

لقد كان عصر أبي راس العسكري عصر تدهور وانحطاط في الآداب والعلوم، كما كان عصر اضطراب سياسي واجتماعي، وقد استطاع أبو رأس بفضل موهبته وعبقريته أن يرتفع عن مستوى عصره الفكري، وأن يعيد للدراسات العلمية الفقهية واللغوية مجدها وجلالها، كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة، وتؤكده شهادات معاصريه من العلماء.

وقد حملنا هذا على أن نخصه بهذه الترجمة القصيرة وأن ننشر نبذته التاريخية حول مدينة الجزائر بمناسبة ذكراها الألفية.

ترجمته

أبو رأس هو محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي المعسكري، وقد ولد في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، ودرس في صغره بمعسكر ومازونة على علماء عصره.

ومنهم العلامة المشرفي، ثم ارتحل إلى تونس ومصر وأخذ فيهما عن علمائهما كالعالم الأديب الشاعر إبراهيم الرياحي، والشيخ مرتضى الزبيدي، والشرقاوي، وأجازوه ووصفوه بأوصاف علمية رفيعة.

---

(١)عن مجلة الأصالة -الجزائر- العدد ٨ السنة الثانية ربيع الثاني، جمادى الأولى، ١٣٩٢هـ / مايو - جوان ١٩٧٢م.

ثم عاد من المشرق إلى بلاده بعد أن استوعب دراسات عصره، وأحاط بالمذاهب الأربعة، ثم تخصص في المذهب المالكي، وتعمق في دراسة مختصر خليل بن إسحاق الذي اختصر مسائله واستوعبها، ثم انتصب للتدريس وإفادة الطلاب، وقد بلغ عدد طلابه المئات.

ولم يشغله التدريس عن التأليف، بل ألف كتبًا عديدة تزيد على خمسين كتابًا منها:

١- لب أفياخي في ذكر أشياخي.

٢- والسيف المنتضي فيما رويته بأسانيد المترضي.

٣- وتخريج أحاديث دلائل الخيرات.

٤- ودار السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.

٥- والزمرة الوردية في الملوك السعدية.

٦- ومروج الذهب في نبذة من النسب.

٧- وتفسير القرآن الكريم.

٨- وحاشية الخرشي.

٩- وحاشية المكودي.

١٠- وشرح العقيقية.

١١- والحاوي بين التصوف والتوحيد والفتاوي.

١٢- وحاشية على السعد.

١٣- ودرء الشقاوة في حرب درقاوة.

١٤- وذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.

وغير ذلك من كتبه الكثيرة.

وأهم هذه الكتب في رأيي كتبه التاريخية وهي ذات فائدة كبيرة قد لا يعدله في ذلك إلا الزياني صاحب (الترجمانة الكبرى) مع تفوقه عليه في الحفظ والتوفيق، ومن هذه الكتب كتابه (ذيل روض القرطاس) وقد تناول فيه تاريخ المغرب من القرن الثامن إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري، وهو كتاب هام لا نعرف عنه إلا اسمه.

وكذلك كتابه (الزمردة الوردية في الملوك السعدية) وهو كتاب يتناول تاريخ الملوك السعديين بالمغرب، وموضوعه هام، والفترة التي تناولها بالتدوين قليلة المصادر، وهذا ما يسبغ على كتابه أهمية بالغة، وهو مثل سابقه مخطوط لا نعرف عنه إلا اسمه.

وأخيرًا يأتي (شرح نفسية الجمان في فتح مدينة وهران)، وهذا الكتاب رغم تخصيصه بمدح محمد باي الكبير، وتسجيل مآتيه الحربية في فتح وهران وافتكاكها من يد الأسبان، أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فإنه يتناول أحداثًا كثيرة بالشرح والتعليق، ويؤرخ لوقائع مختلفة تتناول تاريخ القطر الجزائري عامة.

ومن هذه الاستطرادات ما ذكره حول تاريخ الجزائر.

وقد عمد أحد المعجبين به إلى جمع هذه النبذة، وأخرجها من الكتاب المذكور؛ لتكون خلاصة تاريخية خاصة بالجزائر، وجامع هذه النبذة غير معروف، وقد جمعها بعد وفاة مؤلفها أبي رأس بسنة واحدة، أعني: سنة ١٨٢٣م.

وأما أبو رأس فقد توفي سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢م وتضم هذه النبذة معلومات هامة عن مدينة الجزائر والدول التي تعاقبت عليها، وسيجد فيها القراء فوائد ومعلومات عن الجزائر والقطر كله لا يجدونها في غيرها من المراجع المختلفة مع الإيجاز، ومن حسن الصدف أن تنشر هذه النبذة في وقتها المناسب وهو الذكرى الألفية لمدينة الجزائر ليجمع الاحتفال بالمدينة بين شرف ما كتبه عنها مؤرخونا القدماء، وما يكتبه عنها كتابنا المحدثون وفي ذل -لا شك- تقدير كبير، واحتفاء بالغ بهذه العاصمة التاريخية الجليلة.

هذه نبذة أخرجت من تأليف الشيخ أبي راس سيدي محمد بن أحمد بن عبد القادر الناصري الغريسي نسبًا، رحمه الله ، في تاريخ الجزائر ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣م.

مدينة الجزائر

الجزائر علم مدينة عظيمة على شاطئ البحر بنتها ملوك صنهاجة، ومر لنا تاريخ بنائها، واسم بانيها وغير ذلك، فانظر إن شئت في شرح قولي متى أزالهم عنه يوسف إلخ.

ولم تزل في طاعة بني بلكين من صنهاجة ملوك أشير، والقيروان، إلى أن تغلب ابن عمهم حماد[١] على جبل كتامة، وبنى القلعة المارة الذكر، وكثر جنوده وخفقت بنوده، واستولى على باجة وبجاية ودلس ونحوهم، وكانت الجزائر من جملة أعماله، ثم زحف إليه باديس بن المنصور[٢] بن بلكين بن زيري بن مناد، فهزمه من مجانة إلى وادي شلف ونزع إليه عامة عسكره، ثم رجع جادا السير إلى قلعته وباديس في أثره، وحاصره إلى أن هلك، وبويع ابن باديس وهو المعز[٣] ابن ثماني سنين، فاتفق مع حماد، وعاد ملك الجزائر له.

ولما هلك ولي ابنه القايد وزحف إليه ابن زيري بن عطية المغراوي، فصالحه القايد أيضًا، وبقي على ملكه بالقلعة والمدية والجزائر إلى تخوم مغراوة، وتحت حكمه وعلى أمره إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة، وولي مكانه ابنه محسن، ثم قام فيهم الناصر بن علناس بن حماد، فبنى جبل اللؤلؤة ببجاية من أعظم قصور الدنيا في حدود سبعين وأربعمائة.

قال ابن خلدون في بعض كلامه على المغرب: (بجاية اختطها الناصر بن علناس، ثم لما مات الناصر ولي ابنه المنصور).

---

(١) حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية، أعلن استقلاله عن بني زيري سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤م، ودام في الملك إلى سنة ٤٠٩هـ / ١٠٢٨م، راجع: تاريخ الجزائر للميلي ص١٣٥.

(٢) باديس هو رابع ملوك بني زيري، وكان شجاعًا جواد محسنًا، ثار عليه حماد فحاربه وحاصره بالقلعة، ومات في أثناء حصاره له سنة ٤٠٦هـ/ ١٠٠٥م.

(٣) هو المعز بن باديس، تولى الملك بعد أبيه باديس سنة ٤٠٦، وتوفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م، وبلي بفتنة الهلاليين.

بنو حماد والمرابطون

ولما استولى يوسف بن تاشفين على تلمسان، وغلب عليها أولاد يحيى الأفريني سنة أربع وسبعين[1] وأنزلها محمد[2] بن تينعمر المسوفي، ونازل بلاد صنهاجة كالجزائر ونحوها وزحف إليه المنصور[3] وخرب ثغوره، وحصون ماخوخ، وضيق عليه فصالحه يوسف، وانقبضت يد المرابطين عن بلاد صنهاجة.

والمنصور هذا هو الذي وقعت حروب بينه وبين ماخوخ، انجلت عن قتل ماخوخ، ولحق ابنه بتلمسان مستصرخًا بابن تينعمر، فزحفا إلى الجزائر وحصروها يومين؛ فمات ابن تنعمر وولي يوسف ابن تاشفين مكانه أخاه تاشفين بن تينعمر، ففتح أشير والجزائر ورجع إلى تلمسان.

ثم إن المنصور زحف من بجاية بأمم المشرق إلى تلمسان، ونزل وادي الصفصيف، فلقيه تاشفين بجنوده فانهزم تاشفين ولجأ إلى جبل الصخرة، وعاثت عساكر المنصور بتلمسان، فخرجت إليه حواء زوجة تاشفين أميرهم متوسلة له بوسائل القربة الصنهاجية التي بينهم، فأكرم مثواها، ورجع إلى القلعة وقدم على المنصور معز الدولة بن صمادح من المرية، لما هلك الأندلس يوسف ابن تاشفين، فأقطعه دلس وأنزله بها.

---

(١) أي: سنة ٥٧٤هـ، ١١٧٨م، ويوسف بن تاشفين هو أشهر ملوك المرابطين، توفي بمراكش سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م، وقد فتح تلمسان سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، وفتح الأندلس وغيرها ووصل في فتوحاته إلى مدينة الجزائر.

(٢) صوابه: تينعر كما جاء في مراجع مختلفة.

(٣) المنصور هو الملك الحمادي السادس، تولى الملك سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، توفي سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م.

ولما هلك سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ولي ابنه باديس، وكان عظيم البطش، شديد البأس، ثم ولي أخوه العزيز[١] وتزوج بنت ماخوخ، وطال أمد ملكه، وكان العلماء يتناظرون في مجلسه، ونزلت جربة على حكمه، وتونس، وسكنت العرب في أيامه القلعة.

وفي أيامه وصل المهدي بن تومرت إلى بجاية قافلاً من المشرق سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وغير المنكر بها، فسعى به عند العزيز فخرج إلى بني ورياكل، وقام فيهم يدرس العلم، وطلبه العزيز فمنعوه، وقاتلوا دونه إلى أن رحل إلى المغرب، وهلك العزيز سنة خمس عشرة وخمسمائة، فولي بعده ابنه يحيى وهو الذي اتخذ السكة من ملوكهم، وكان ديناره مكتوبًا فيه ثلاثة أسطر ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ والسطور (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، يعتصم بحل الله: يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور.

ودائرة الوجه الآخر بعد البسملة: ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وفي سطوره الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبد الله أمير المؤمنين العباس، وكان مشتغلاً باللهو والصيد والنساء.

لما أدبرت الأيام عن قبائل صنهاجة وكان عامله على الجزائر أخوه القايد بن العزيز بن المنصور، ولما فشل ريح بني عمه أولاد باديس بأفريقية وضايقهم جرجيس بن منجايل[٢] أحد رؤساء الكفرة (حكام صقلية) بعث يحيى

---

(١) الأمير العزيز تولي الملك سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، توفي سنة ٥١٥هـ/ ١٢١١م.

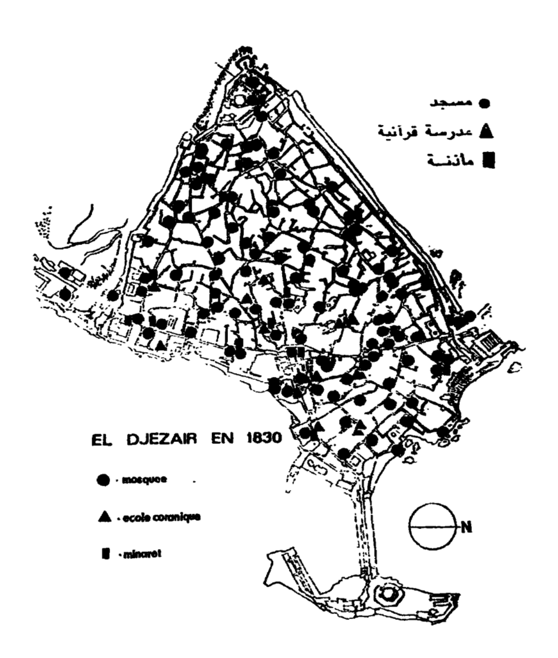
(٢) يعني به: القائد النورماندي بصقلية، وقد استطاع أن يحتل شواطئ تونس، ومنها مدينة المهدية.

بالأساطيل في البحر، وأتى بالحسن آخر ملوك أفريقية من بني عمه، وأنزله بالجزائر مع أخيه القايد.

وسبب غزو الكفرة لثغره أن علي بن يوسف بن تاشفين أغزى محمد بن ميمون صقلية وفتح قرية منهل وسبا أهلها، فلم يشك طاغيتهم روجار أن ذلك بإملاء الحسن؛ فجهز ثلاثمائة مركب وأمر عليها جرجيس المذكور، وفيهم عدد كثير من النصرانية، فيهم ألف فارس فملكوا قصر الدماس، ثم رجعوا إلى صقلية بعد أن استحر القتل فيهم، ولما زحف الموحدون للجزائر فر منها القايد أخو يحيى، فقدم أهل الجزائر الحسن المذكور على أنفسهم، ولقي عبد المؤمن فأمنهم، وصبح ببجاية من الغد، فزحف إليه يحيى، فانهزم وملك عبد المؤمن بجاية، وذهب يحيى إلى أخيه الحارث ببونة لما لم يجد السبيل إلى بغداد، ثم ذهب إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن فخلى له الأمر، ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين[1]، ونقله إلى مراكش فسكنها، ثم انتقل إلى سلا فسكن قصر بني عشر[2] وهو آخر ملوك صنهاجة بالقلعة وبجاية والجزائر، وانقطع ملكهم إلى الآن، بل عفا رسمهم وخمل ذكرهم وانغمروا في الناس فلا يعرفون وكذا بنو عمهم ملوك إفريقية.

(١) يعني سنة ٥٢٧هـ ١١٥٢م.
(٢) هكذا ورد في الأصل مطموسًا.

COMEDOR


مسجد
عدرسة قرآنية
مائذنة
EL DJEZAIR EN 1830
mosquee
ecole coranique
minaret
N

غريبة

غريبة ولم سمي هذا القصر بسلا قصر بني العشرة أن امرأة وضعت عشرة أولاد ببطن واحد، فجعلهم أبوهم على مائدة، وذهب بهم إلى الأمير فأعطاهم ألف دينار، فيبني لهم أبوهم عشرة دور، انظر بعض شروح الفرائض، ولما كان زمن السلطان الباني لهم الدور فيه تناقض مع زمن سكنى يحيى بها لم نذكره، والله أعلم.

الجزائر تحت حكم الموحدين

ثم انتظمت الجزائر في ملك الموحدين[1] كغيرها من المغربين بل والمغرب الأدنى أيضًا؛ لأنهم ملكوا طرابلس مرات وتونس أكثر أيامهم، وأول خلفائهم، ثم لما ركد ريحهم ودخل الهرم دولتهم سنة الله التي قد خلت من قبل.

استقل أبو زكرياء الحفصي من الموحدين بولايته إفريقية لما بلغه أن المأمون أحد ملوك بني عبد المؤمن غير معالم شيخهم المهدي، وغير ضرب الدرهم المربع الذي يعرف عندنا بالدرهم المؤمني الذي هو مكتوب فيه كما هو مشاهد إلى الآن: (الله ربنا ومحمد نبينا والمهدي إمامنا)، وقطع اسمهم من الخطبة

---

(١) قام ملك الموحدين سنة ٥١٥ وسقطت دولتهم ٦٦٨هـ ١٢٦٩م وخرجت عنهم الجزائر سنة ٦٣٣هـ ١٣٢٥م.

وأثبت ذكره بعد ذكر الإمام المهدي بن تومرت مقتصرًا على لفظ الأمير فقط، ورفع إليه بعض شعرائه بيتًا، وهو:

صل أمير المؤمنين فأ نت أحق بها في العالمين

فأبى عن ذلك إلى آخر دولته، ودخلت الجزائر في ملكه، وتلمسان والزاب وغيرهم، وتداولها بنوه إلى أن تضعضعوا وشردهم الداعي بن أبي عمارة، وبسببه افترقت كلمتهم كما هو شأن الدنيا.

الجزائر تحت حكم بني عبد الواد

وطمع في الجزائر بنو عبد الواد فغزاها السلطان أبو حمو موسى[1] بن عثمان بن يغمراسن من أعيان ملوكهم لما سمع بابن علان تغلب عليها في حدود سنة خمسة وسبعمائة، ولما خلا له الجو بفتنة محمد بن أبي عصيدة سلطان تونس، وأبي زكرياء الأوسط سلطان بجاية فأخذها منه في سنة إحدى عشر وسبعمائة على يد قائد حروبه ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن وكان ذلك. أي: أخذها أيام السلطان أبي اللحيان من ملوك تونس، ولما حضر يوسف بن يعقوب المريني تلمسان في القرن الثامن، كان أبو زكرياء صاحب بجاية مظاهرًا لعثمان بن يغمراسن والسلطان محمد بن أبي عصيدة سلطان تونس وتلميذ ومحضون الولي الصالح أبي محمد المرجاني في حصار تلمسان[2] فبعث لهم كتائب بني مرين، فأوقع بهم وهزمهم ثم إن أبا عصيدة صاحب تونس، بعث إلى يوسف

---

(١) تولى أبو حمو موسى الأول الملك سنة ٧٠٧هـ وقتل سنة ٧١٨هـ ١٣١٨م ومن آثاره بناء قصر على وادي نهل قرب مازونة وتأسيس مدينة أقبر (تاريخ الجزائر للميلي ج ص ٢٦١).

(٢) العبارة فيها غموض ويريد بها أبو رأس أن زكرياء كان مواليًا لتلمسان وأن أبا عصيدة كان منابذًا لها ومساعدًا للمرينيين على فتحها.

يغريه بغزو بجاية فسرح يوسف العساكر لنظر أخيه أبي يحيى، فضايقوا بجاية وعاثوا في تلك الجهات، ثم انقلبوا إلى يوسف، وهو معسكر في تلمسان.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة أرسل محمد بن أبي عصيدة هدية ضخمة إلى يوسف أغرب فيها بسرج وسيف ومهامز مرصعة بالياقوت والجوهر، مع رئيس الموحدين أبي عبد الله بن أكمازين، ورجع بهدية ضخمة من عند يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلاثمائة بغل.

وفي أيام ابن أبي عصيدة قتل علماء تونس هداج بن الكعوب بسبب إهانته المسجد، فإنه دخله بأخفافه فقيل له في ذلك، فقال هكذا والله دخلت بها على السلاطين، فقتل في بعض زقاق تونس بأمر أبي عصيدة وقد ذكره الونشريسي في كتابه المعيار قلت: وهداج هذا هو ابن عبيد بن أحمد بن كعب من بطون سليم، وقومه يقال لهم الكعوب مشهورون بأرض إفريقية، وهو لذلك سيدهم واستمرت الجزائر في طاعة بني عبد الواد ملوك تلمسان من سنة إحدى عشر إلى أن استولى أبو الحسن المريني عليها وعلى إفريقية وطرابلس سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكان دوخ تلمسان قبل ذلك فكانت لدولته أذل ولأمره أطوع، ولما جرت بأبي الحسن الوقعة المشهورة بالقيروان (٧٣٩هـ)، واستقل ابنه أبو عثمان فارس بملك المغرب راجع بنو عبد الواد ملكهم واستقلت قدمه بعد عثمان وقد دخل أبو الحسن الجزائر، وجمع جموعًا وزحف لتلمسان وكان المصاف للقتال بتاسالة فكانت على أبي الحسن، وقتل ابنه الناصر، وخلصه أنزمار السويدي إلى جبل المصامدة بإزاء مراكش، وتزاحف مع ابنه أبي عنان حتى مرض ومات سنة اثنين وخمسين وسبعمائة (٧٥٢هـ- ١٣٥١م) في جبل عبد العزيز بن محمد الهنتاتي الذي أجاره وناصره وقات معه ولده، وكان عنده في غاية الرفعة، وتحفظ به في مرضه ومات بمئونته، وجعله فوق أعواد نعشه،

وبعثه إلى السلطان أبي عنان ابنه، فلقي النعش باكيًا راجلًا حافيًا منكبًا من مصيبته، وهو يقبل الأرض بين يدي جنازته، وعفا عن عبد العزيز وأحسن إليه فكان له بعد ذلك يد عليه.

ثم إن أبا عنان لما استقام له المغرب زحف إلى تلمسان ففتك بهم واستلحمهم حتى كاد أن يستأصله وذلك في سنة ثلاث وخمسين من القرن الثامن (٧٥٣هـ -١٣٥٢م) واستولى على المغرب الأوسط، فكانت الجزائر له طوع اليد وولي عليها عاملًا، وبعث إلى أبي عبد الله الذي ملك بجاية من الحفصيين يقيم الرصد على بني عبد الواد، فبعث العيون فعثروا على محمد بن سلطانهم أبي سعيد بن عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أبي ثابت أخيه، وعلى وزيرهم ابن داود فأوثقم، ثم بعث بهم إلى أبي عنان فسألوا عن أبي ثابت بعد قتل أبي سعيد ليميزوه من يحيى بن داود، لعدم معرفتهم له فقال الوزير: أنا أبو ثابت وهذا يحيى فقتلوا الوزير[1] وخلوا عن أبي ثابت فجاد يحيى بنفسه لنجاة الأمير، وهذا أمر غريب لم أطلع على مثله إلا في قضية كعب بن أمامة لما أثر بالماء غيره، ومات عطشًا وبقيت تلمسان خرابًا مدة سنين، وكان رجل يقال له موسى بن صالح مشهور بالكهانة عنده علم من الحدثان يقال إن تلمسان يحرثها غلام أسود على ثور أسود فحرثت على هذه الصفة بسبب هذه الواقعة سن ستين أو إحدى وستين[2] وكانت هذه تلمسان الجديدة يقال لها تكرارت ومعناه المعسكر؛ لأن عسكر يوسف بن تاشفين نزل هناك، وقد نبى لهم موضع

---

(١) هذا خبر غريب مخالف لما هو معروف من أن أبا ثابت عرف وأخذ وقتل ولم يقتل أحد مكانه.

(٢) إن تخريب تلمسان على يد أبي عنان إنَّما كان عقب احتلاله لها سنة ٧٥٢هـ ومات قبل سنة ٧٦٠هـ وأما ما أثبته هنا أبو راس فهو منه.

مشور أبو حمو المشهور إلى الآن فصار أهل المدينة ينتقلون حتى دثـرت القديمـة بسبب إنشاء الجديدة، ولما مات أبو عنان عادت دولة بني زيـان بمجـد ملكهـم وواسطة عقدهم السلطان أبي ثابت المتقدم وراجع ملكه.

ومن جملته الجزائر والحاصل أن الجزائر كان ملوك تلمسان، وملوك إفريقية يتداولون عليها، فتكون لمن غلب عليها ومرة يتغلب عليها بعض مـشائخها إلى أن دخلها ملوك الأتراك سنة خمسة عشر وتسعمائة (٩١٥هـ).

دخل الفقيه الأعظم العلامة الأكـرم سـيدي أحمـد بـن القـاضي أحـد أبـاء المغارسة ملوك الزيانيين بتلمسان في شأنه وأشار إليهم بحرمه ومناجزته، وكـان هذا العالم من أهل مجاجة[1] وقد ذكر صاحب الدرر المكنونـة في نـوازل مازونـة في نوازل النكاح وما يتعلق به وبنوه وأخوته وقومه وهـم الـذين آووا- الـشيخ علي أبهلول الوطاسي وأخذوا عنه العلم الظاهر والباطن ووقفوا عليه الأوقـاف وبعد موته رضي الله عنه خلفه ابنه الشيخ محمد بن علي والشيخ أبـو عـلي فكـان الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر صاحب المغرسة أحد تلامذتهما نفعنـا الله بهـم أجمعين، فكان الشيخ من أكابر رؤساء تلك الأرض وأكثـر أغـراء[2] بنـي زيـان بخير الدين فلم ينجح له شيء لأن أمر بني زيان قد ولي الأدبار وضعف ملكهم وتقلص ظلهم لا سيما وقد أخـذت مـن أعمالهـم وهـران يومئـذ وكـان بـذلك العصر في تلك الأرض علماء أعلام وفقهـاء عظـام مـنهم مـن ذكرنـا وغـيرهم كالإمام المغيلي المدفون بتلمسان والونـشريس صـاحب المعيـار المـدفون بفـاس وأبي عبد الله المغراوي وقد بنى له بحافة شلف قبتان وقبلهم مـن أهـل التاسـع

(١) هناك من يذهب إلى أن أحمد بن القاضي المعني هو الذي ينتسب إلى جرجرة وكانت له إمارة بكوكو القريبة من عين الحمام أو ميشلي.
(٢) هكذا بالأصل ولعل صوابه وأكثر غزو بني زيان بياضي بالأصل.

سيدي أحمد المريض مستوطن أحد مداشر وانشريس وكان معاصرًا لابن عرفة وقبله من أهل السابع أبو العباس أحمد الملياني كان صاحب فقه ورواية وقد ذكره في المعيار وكذا ذكره صاحب الدرر وقد انتهت إليه في عصره رياسة الشورى بالمغرب الأوسط وكان ابنه أبو علي خلوًّا من ذلك منهمكًا في الرياسة فلما رأى فتن مغراوة مع يغمراسن استولى على مليانة وبويع له بها فجهز إليه المنتصر سلطان تونس جيشًا لنظر أخيه الأمير ففتح مليانة عنوة، وفر أبو علي للعطاف، وعقد لبني منديل على مليانة وقد كان قبلهم بنو ورسفين منهم مسكنهم البادية والإمام المازوني المذكور هو الذي جعل كتابًا في نسائب[1] قبائل أهل المغرب الأوسط وقد ذر فيه أن المحال أهل البطحاء من هلال، كما قال ابن خلدون: وإن الذين يقال لهم المضارب كبني دقيش وبني حميرة العبد وبني هداج من بني مخزوم، من ذرية صعصعة بن حارثة ومن ذرية هشام بن إسماعيل المخزومي، وقد أجمل ابن خلدون. والمشاهد الآن من إقرار المحال للمضارب بالسيادة والتعليم والتسليم لهم يشهد للمازوني.

وقد كان قبل تلاشي أمرهم وركود ريحهم لا يزوجون بناتهم للمحال من أن المحال لا يتوهمون ذلك، ولا يطمعون فيه، تعظيمًا لهم وقد أخذ ذلك عن آبائهم ومن الضارب نفر قبيل الشكالة ونفر بأولاد فارس ونفر بأولاد سلي وكلهم درس ذكرهم، وعفت مراسملم.

وقد يقال: إن الوالي الصالح سيدي الناصر بن عبد الرحمن المدفون بالصحراء بالواد المشهور من بني مخزوم والله أعلم بذلك، ولنرجع إلى ما خرجنا عنه.

---

(١) هكذا بالأصل والأصوب أنساب بدل نسائب.

ثم إن خير الدين نافسه أيضًا محمد بن علي من رؤساء عرب إفريقية، وسعى به إلى ملوك بني حفص بتونس، وكانت بينهم حروب يقال: إن محمد بن علي هلك فيها، ثم إن أهل المغرب الأوسط وفدوا على خير الدين وأتوا به إلى أرضهم فاستعمل في طريقه على قلعة بني راشد أخاه إسحاق، ولما دخل تلمسان استعمل عليها أخاه عروج، ثم بعد منصرفه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم وخطب على منبر الجامع الأعظم، وذكر شأن ملك الجزائر، ورغب الناس في ملك آل عبد الواد، وهجموا على عروج فأخرجوه منهم، ثم زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعة من المترشحين للمُلك من بني زيان، ونحو الستين من بني عمهم أولاد عبد الواد، وأكثر من ألف من أهل البلد، وعاث في تلمسان، ثم سكنت الفتنة، ولما رأي المسعود استقامة عروج بتلمسان، دخل وهران فزحف بالنصارى إلى إسحاق بالقلعة ورموا عليها من البراق، ولما علم أهلها قوة العدو وضعفهم صالحوه على تسليم البلد.

ثم لما خرجوا غدروا بهم وقتل إسحاق، وقال العلَّامة الصباغ: وكان أبي ممن قتل يومئذٍ، ثم زحف بالنصارى لتلمسان لحصار عروج، فلما طال أمر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة راضيًا من الغنيمة بالسلامة، فلحقوه بجبل بني موسى، وقتلوه، ومن معهم يوم عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (٩٣٥هـ- ١٥٢٨م) بعد ما ملكها نحو السنة، وقيل: إن عروج لما دخل تلمسان وعاث بها ثاروا[١] عليه أهل البلد وأخرجوه منها وخافوا من عودته ففزعوا إلى ولي الله ابن ملوكة فدعا عليه، فهلك بجبل بني ورنيد، والله أعلم.

---

(١) هكذا بالأصل على اللغة المرجوحة.

ورأيت في بعض فتوحات الجزائر أن خير الدين دخل تلمسان مرتين مرة لما استعمل عليها أخاه ومرة بعد موته، وقد عمل بها حامية من الأتراك في المرة الثانية، فهي باقية إلى الآن فأذهب فتنتها، وحسم داءها فلم يعد، ثم إن خير الدين شمَّر للمدافعة عن الجزائر في البر والبحر، وقد كانت المرسى إذ ذاك للأسبانيين من جزر الكفرة، وكان لهم بها حصن هو الذي فيه الفنار الآن، وكانوا مدتهم مع المسلمين بين نفرة واستقامة، وصلح وغدر، وكان حصنهم يدور به الماء من البحر.

وأما الطريق التي به الآن فإنها عملتها الأتراك ويذكر أن بني مزغنة قبل بناء بلكين بن زيري الجزائر كانوا يؤدون الخراج لأهل البرج[1] وكذا أكثر متيجة، فلما بناها بلكين الصنهاجي وحصنها بالأسوار وأنزل بها الجيوش انتصرت النصارى على عادتهم، ورضوا بدل الخراج بالبيع والشراء معهم، ولم يزل خير الدين يحاصره ويقاتله، ويعالجه، إلى أن فتحه سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م) وقطع طمع بني زيان من تلمسان سنة ستة وخمسين، وقد رأيت في بعض فتوحات الجزائر في سيرة خير الدين الأولى سنة خمس عشرة من العاشر، وبنى لها السور سنة أربع وعشرين منه (٩٢٤هـ) وانظر قوله بنى السور مع ما مر لنا أن يحيى ابن غانية طلب منديل ابن عبد الرحمن على سور الجزائر أول القرن السادس، ولعله السور الثاني، أو أن خير الدين رم الأول، والله أعلم.

هذا وقد كان النصارى من كل جنس يغزونها قديمًا والحرب بيننا عليها مستديمًا، وأول غزو النصارى لها بعد استيلاء الأتراك عليها سنة خمس وعشرين وتسعمائة (٩٢٥هـ - ١٥١٩م) في ثلاثمائة وعشرين جفنا، فهزمهم الله

(١) يبدو أن في هذا مبالغة لأن هذا البرج إنَّما بني قبل مجيء الأتراك بسنوات قليلة.

بعد ما قتل منهم خلق كثير يزيد على عشرة آلاف، وغزوها مرة أخرى أيام خير الدين فهزمهم الله، وأسر المسلمون منهم نحو الثلاثة آلاف، ثم غزاها الطاغية بنفسه لما استولى المسلمون على برج المرسى وذلك سنة ثمان وأربعين (٩٤٨هـ - ١٥٤١م) كما مر في زهاء سبعمائة سفينة فبعث الله ريحًا كسرت مراكبهم، ومن خرج منهم للبر قتل، حتى إن الطاغية رجع في اثنى عشر مركبًا وكل هذا أيام خير الدين رحمه الله، وله لقبان الأول باشا كما هو معروف في نواب العثماني على الأقطار، والثاني دولاتلي ونظير هذه الغزوة غزوة قسطنطين ابن هرقل لما أخذت إسكندرية، واستولى المسلمون على كنيستها العظمى، وقد كان المسلمون أخذوها قبل ذلك في خلافة عمر، ثم رجع لها النصارى بعد ذلك أول خلافة عثمان، فأخرجوا منها أيضًا، وحلف عمرو ابن العاص ليتركنها كبيت الزانية تؤتي من كل جهة فلما سمع قسطنطين بهدم حصونها غزاها في ألف مركب في الشتاء فأغرقتهم الريح كلهم إلَّا مركبة نجا الصقلية، فأدخلوه الحمام ووثبوا عليه، فقتلوه جزاء له على فعله وغزوه في ذلك الفصل، وغزا أيضًا الإنكليز في أيام رمضان باشا في ثلاث وعشرين مركابًا عظامًا فرموها بالبونبة فلم تفد شيئًا وذلك سنة إحدى وسبعين وألف.

وغزاها الفرنسيون سنة ثلاث وتسعين وألف (١٠٩٣هـ - ١٦٨٢م) في خمسة وعشرين مركابًا في ولاية حسن باشا، ورموها بالبونبة فهدموا أكثر دورها، وبعض مساجدها، وكذا رموا على شرشال، واقتنص المسلمون مركبًا لهم فيه جملة من أكابرهم ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا ورجع الكفرة بلا نائل، ولم يحصلوا منها على طائل، ثم غزاها أيضًا الفرنسيون في العام الذي بعده في أيام الباشا المذكور في زهاء ثمانين مركبًا ورموا بالبونبة في ثالث الأيام من قدومهم، فأتت قدرة بونبة بدار الإمارة فضاقت مذاهبه، وصالحهم من ساعته على أن يسرح لهم الأسارى بلا مشورة أحد من أهل دولته وعلى أن يبذل له ما

صرفوه في تلك الغزوة، ورجع أعداء الله مسرورين، وبعد ذلك بيسير قتله الأتراك وولوا حسن باشا، وكان قبل الإمارة يعرف حسن رايس فبعث للعين من ساعته ابعث أسارى المسلمين أن شئت تمام الصلح، على أن لا شيء لك فلما سمع اللعين غزاها من عامه فهدم منها نحو الثلاثمائة دار، واستشهد فيها نحو الأربعين، ثم رجع عدو الله من غير طائل، ثم غزاها الإسبانيون سنة تسع وثمانين ومائة وألف (١١٨٩هـ - ١٧٧٨م) في ولاية محمد باشا، وخرجوا إزاء الحراش في البر وجعلوا ترسًا من حطب ولوح وغير ذلك وأوقدوا نار الحرب وباتوا ليلتهم في موضعهم، فلما كان قبيل الفجر صبيحة يوم الأحد هزمهم الله، ومات منهم ما لا يحصي عددهم إلَّا الله تعالى، ورجعوا خائبين ولم ينالوا خيرًا واستشهد من المسلمين نحوا أربعمائة حفرت لهم مقبرة بإزاء عين الربط[1] وقد أتوا الغزوة في خمسمائة مركب وبقيت عظامهم ماثلة في رمال الحراش إعصارًا وقد حضر هذه الوقعة المنصور بالله أبو الفتوحات سيدي محمد بن عثمان باي معسكر فظهر من إقدامه واعتنائه مقامات تعد من مفاخر دولته وذكرا له آخر الأيام، ثم غزاها الإسبانيون أيضًا سنة سبع وتسعين (١١٩٧هـ- ١٧٨٣م) فهدموا بالبونبة أزيد من مائتي دار، وطلبوا الصلح فلم يجابوا ورجعوا خائبين ثم غزاها أيضًا السنة التي بعدها فزحف لهم المسلمون في البحر وردهم على أعقابهم فرجعوا بلا طائل، ثم جاءوا سنة تسع وتسعين أي: من هذا القرن طالبين للصلح في الحال، باذلين القناطير من الأموال راضين بدخولها للتجارة لما أيسوا من الظفر وقدموا في ذلك علجة من بيوتهم على عادتهم الذميمة لعنهم الله فأبرم الصلح بينهم وبين المسلمين وكل ذلك أيام محمد دولاتلي ومات رحمه الله سنة خمس ومائتين وألف (١٢٠٥هـ- ١٧٩٠م) أيام السلطان سليم بن السلطان مصطفى العثماني.

---

(١) عين الربط تقريبًا ميدان المناورات وما يتصل بها.

رابح بونار

مدينة الجزائر

تاريخها وحياتها الثقافية[1]

تمهيد

تعترض كل دارس للتاريخ ظاهرة غريبة وطريفة وهي ظاهرة التشابه بين نشأة المدينة وتاريخ تطورها وعمرها الزمني، وبين نشأة الإنسان وحياته واجتيازها بمراحل زمنية طبيعية محددة في سجل الوجود.

وقد نجد هذا التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء، وازدهار وانكماش، وقوة وضعف وهذا ما نلاحظه عند دراستنا لبعض المدن التي برزت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالقطر الجزائري ثم تراجع أمرها، وانحسر مدها، أو انقرضت من الوجود تأسست في منتصف القرن الثاني الهجري ، واستبحر عمرانها، وخدمها السعد حينًا ثم اعترتها الشيخوخة والانقراض في منتصف القرن السابع الهجري.

وكذلك مدينة طبنة التي مثلت دورًا كبيرًا في عهد الولاة ثم تلاشى أمرها بعد القرن الخامس الهجري وكذلك مدينة (قلعة بني حماد) التي تركز فيها مجد بني حماد في القرنين الخامس والسادس، ثم أسدل الزمن عليها ستار العفاء والاندثار.

---

(١) عن مجلة ((الأصالة)) الجزائر العدد ٨ السنة الثانية ربيع الثاني جمادى الأولى ١٣٩٢هـ ماي جوان ١٩٧٢م.

وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك مدن ثانوية في العصر الإسلامي لم يكن لها ما تستحقه من عمران وازدهار حضاري، ثم لم تلبث أن بزغ فجر سعادتها، وأشرقت شمس حضارتها وعمرانها وخدمها السعد في جميع مجالاتها الحيوية.

وهذا ما ينطبق على كثير من مدننا التاريخية التي كان لها جلال وصيت في القديم، ثم ازدادت جلالًا ورقيًا في مسيرتها الزمنية الطويلة، ونجد في طليعة هذه المدن (الجزائر) العاصمة، ثم تليها مدن تاريخية أخرى كوهران وقسنطينة، وعِنَّابة، وتلمسان والمدية ومليانة، وبسكرة وبجاية وغيرها.

وقد اخترنا في هذه الكلمة أن نتناول مدينة الجزائر العامرة بالدرس والتحليل، وأن نتناولها من جانبها التاريخي والسياسي، ومن جانبها العمراني والمعماري وأخيرًا نتناولها من جانبها العلمي والثقافي.

روعة وجمال

إن (الجزائر) عروس البحر الأبيض المتوسط بحق، وهي منارة جلاله، ومسرح أنسه وملتقى حضاراته.

وإذا قُدِّر لزائرها أن يصعد إلى جبل بوزريعة الذي يحتضنها كما تحتضن الأم الرءوم ولدها، ويلقي ببصره الفاحص على مبانيها وعماراتها بدت له المدينة في شكل مثلث هندسي بديع تنحدر مبانيها من أعلى القصبة إلى أن تنبسط على حافة البحر الذي يداعبها بأمواجه في كل آونة، وبدت له منارات مساجدها مرتفعة وضَّاءة ترسل بأشعتها الوهاجة، وبنغمات مؤذنيها المدوية إلى الآفاق فتخلب الألباب، وتحسر العيون وتطرب الآذان.

وإذا نظر إليها من الحراش خُيل إليه أنه يرى نسرًا طويل الجناحين يتحفز ليطير بعد أن كان جاثمًا بسفح جبل بوزريعة، وقد استطال جناحاه حتى غطيا ما بين حي (سانت أوجين) وحي (سلام باي)[١].

وإذا رآها ليلًا من بعيد فإن مشاعره تستغرقها نشوة من الإعجاب والإجلال، وأن تفكيره تستهويه عظمتها وجلالتها التاريخية ومعالم حضارتها.

تأسيسها وتاريخها

إن تاريخ المدينة يمثل مرحلتين منفصلتين فهناك تاريخ تأسيسها القديم الذي يعود إلى العهد الفينيقي، وإلى ما بعد تأسيس (قرطاجنة) سنة ٨١٤ ق.م[٢]، حيث انتشر الفينيقيون بسواحل المغرب كله وأسسوا مراسيه، ومنها مرسى الجزائر (أيكوسيم)، وهناك تاريخ حديث لها في العهد الإسلامي وهو الذي أسبغ عليها طابعها الخاص، وأبقى على معالم حضارتها التاريخية ويبتدئ ذلك بتاريخ تأسيسها الثاني على يد بلكين بن زيري- سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م وقد مرَّ عليها منذ تأسيسها إلى الآن ١٠٥٣ سنة.

ومن عوامل الاحتفاء بها أن تقام لها ذكرى مرور عشرة قرون ونصف، وأن ينوه ببعض معالمها التاريخية التي ما تزال تحتفظ بطابع العهد الزيري الحمادي الذي أسست فيه كالجامع العتيق الذي يعود إلى فترة التأسيس.

(١) أما اليوم فقد تغير اسم الأولى إلى حي بلكين، والثاني إلى حي المدنية.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ٦، ٤٠٧ نور الدين عبد القادر صفحات من تاريخ الجزائر ص١٤-١٥.

نظرة تاريخية

إن الجزائر لا يعرف عنها شيء كثير في العهد الفينيقي، وإنما يعرف عنها أنها أسست في هذه الفترة بعد تأسيس قرطاجنة سنة ٨١٤ ق.م.

وأطلق عليها الفينيقيون اسم (أيكوسم) ثم جاء الرومان وأطلقوا اسم أيكوزيوم أي: مدينة العشرين؛ لأن الخرافة التاريخية تقول: إن هرقل الليبي قد مرَّ بها مع أصحابه وكان عددهم عشرين فسميت المدينة باسمهم العددي، وهناك من ذهب إلى أن اسم المدينة هو (أيكوسيم) استنادًا إلى العملة التي عُثِرَ عليها في حفريات سنة ١٩٤٠م، ومعنى هذا الاسم أنها جزيرة الشوك أو جزيرة الطير وهذا الإطلاق أقرب إلى الصواب[١].

في العهد الروماني

(١٤٦ق.م- ٤٢٩م) وتقدمت مدينة الجزائر وكانت لها في القرن الأول مشيخة تحكمها كما كانت فيها كنيسة، وأسقفة، وبقيت آثار هذه الكنيسة إلى القرن الخامس على ما ذكره البكري ولما ثار الوطني فيرموس على الرومان بالقبائل الكبرى احتل مدينة الجزائر سنة ٣٧٣م وبعد انهزامه أمامهم عادت المدينة إلى حكم الرومان.

وشارك أسقفها فيكتور في المجمع الذي انعقد بقرطاجنة بأمر من الملك الوندالي هنريك عام ٤٨٤م ثم تضاءل أمرها في العهد البيزنطي.

---

(١) صفحات من تاريخ الجزائر لنور الدين عبد القادر ص١٤-١٥.

في العهد الإسلامي

ولما ظهرت الدعوة الإسلامية بمكة والمدينة واستقر أمر المسلمين فكَّر الخليفة الثالث في فتح شمال إفريقيا، وبعث جيشًا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفتح إفريقية ثم عاد إلى المشرق وترددت الجيوش الإسلامية بعد ذلك على شمال إفريقية حتى فتحت أراضيه كلها، ويرجح أن الجزائر فتحت ما بين سنتي ٨٨-٩٥هـ على عهد ولاية موسى بن نصير، وحينما فتحها المسلمون لم يجدوا بها إلَّا أطلالًا ماثلة لما مرَّ عليها من فتن وخراب في العهدين الوندالي والبيزنطيني، وأهمل المسلمون الأوائل أمرها؛ لعزوفهم عن سكنى المدن *الساحلية.*

في العهدين الفاطمي والزيري- الحمادي

ولما قامت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث الهجري (٢٩٦هـ) وهي دولة معمارية أخذ التفكير في تأسيس المدن أو تجديدها يزداد ويقوى، وكان عاملهم على الجهة الغربية وهو زيري بن مناد متأثرًا بهذا الاتجاه المعماري فأسس مدينة أشير في أوائل القرن الرابع الهجري.

ثم أذن لولده وولي عهده بلكين بن زيري أن يؤسس المدن الثلاث: الجزائر والمدية ومليانة، وأسس (الجزائر) سنة ٣٣٩هـ كما أسس المدينتين الأخرين حوالي هذا التاريخ وبعد تأسيس مدينة الجزائر نسبت إلى قبيلة بربرية كانت تنزل بجوارها وهي قبيلة مزغنة الصنهاجية فقيل في الجزائر: جزائر بني مزغنة.

وحكم الحماديون بعد ذلك مدينة الجزائر -حينما استقلوا بالجهة الغربية لإمارة بني زيري-ودامت تحت حكمهم حتى سقطت دولتهم سنة ٥٤٧هـ.

وصارت الجزائر في هذا العهد مدينة تجارية هامة وعاد مرساها مرفأً بحريًّا ممتازًا، وكان أسطول الحماديين يتردد عليه كثيرًا ويؤثره على غيره من المراسي.

ويذكر أبو راس: أن يحيى بن عبد العزيز الحمادي قد استقبل الحسن الزيري لما تغلب النورمان على عاصمة المهدية بتونس ولجأ إليه، فأنزله مدينة الجزائر مع أخيه القائد واليها، ولما هاجم عبد المؤمن مملكة الحماديين نازل الجزائر أولًا واحتلها، ونقل الحسن الزيري منها إلى المغرب، ثم زحف منها إلى بجاية واحتلها أيضًا سنة ٥٤٧هـ.

في العهد الموحدي

(٥٤٧-٦٢٦هـ) عادت الجزائر في هذا العهد مدينة تابعة لولاية بجاية، ونعمت بالرخاء والازدهار الاقتصادي حتى اندلعت ثورة بني غانية سنة ٥٨١هـ فتعرضت المدينة لاحتلالهم المتكرر حوالي سنة ٦٢٣هـ وما بعدها.

في العهدين: الحفصي والزياني (٦٢٦-٩٢٢هـ)

ولما تقلص نفوذ الموحدين عن المغرب المتوسط انتهز أبو زكرياء الحفصي الفرصة حوالي ٦٢٦هـ واحتل مدينة الجزائر كما احتل بجاية، وصارت المدينة تابعة له وللحكم الحفصي بتونس وبجاية حينًا، ثم انتهز سكانها الفرصة فاستقلوا بحكم مدينتهم من عام ٦٦٢هـ إلى عام ٦٧٦هـ.

وظهرت بها إمارة صنهاجية، وهي إمارة مليكش التي مرَّ بها العبدري، وهجا أميرها حوالي سنة ٦٨٨ ثم عادت المدينة إلى حكم الحفصيين واعترفت بالتبعية السياسية لهم؛ ولكنها لم تلبث أن تنكرت لهم تحت زعامة ابن علان أميرها، واستقل هذا بأمرها مدة ١٤ سنة.

وكانت الدولة الزيانية قد استفحل نفوذها تحت حكم أبي حمو الأول (٧٠٧- ٧١٨هـ) فنازلها بجيوشه واحتلها وألحقها بحكم تلمسان سنة ٧١٢هـ ودامت تابعة لبني زيان إلى أن سقطت دولتهم على يدي أبي الحسن المريني سنة ٧٣٧هـ، ثم صارت تابعة له وللمرنيين بعده.

وبعد قيام دولة أبي حمو الثاني سنة ٧٦٠هـ استرد هذا الأمير (الجزائر) وحاول سالم التومي أن يتمرد عليه وأن يستقل بالمدينة فكاده واعتقله، ثم قتله واستراح من تلونه[١].

مدينة الجزائر تتحول إلى جمهورية أريستوقراطية

وظلت مدينة (الجزائر) تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى إلى أن استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع الهجري وعادت أشبه ما تكون بجمهورية أريستوقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة، وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحد رجال حكمها وشوراها.

وبعد وفاة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي سنة ٨٧٥هـ عاشت المدينة تحت نفوذ الثعالبة، وتولى حكمها شيخهم سالم التومي وتعرضت المدينة في أوائل القرن العاشر لهجمات الإسبان مما اضطر سالم التومي إلى الاستنجاد بالتركين المجاهدين: عروج وخير الدين، وكانا قد استقرأ بمدينة جيجل واستدعاهما

---

(١) المقتول يومئذٍ هو سالم بن إبراهيم بن نصر شيخ الثعالبة وكان ذلك كما ذكره ابن خلدون سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م وهو غير سالم التومي الذي ذكره الكاتب والذي كان على رأس مشيخة الجزائر أيام مقدم الأتراك إلى هذه المدينة في أوائل القرن العاشر الهجري وقضى عليه عروج... راجع كتابنا تاريخ الجزائر العام جـ٢ ص ١٧٦ط بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م وص ٢٩٥ من طبعة الجزائر ١٩٥٥م.

للقدوم إلى الجزائر لمحاربة الإسبان ومدافعتهم عن المدينة، وبذلك تبدأ المدينة مرحلة جديدة هامة من حياتها.

وصف المدينة من خلال ما كتبه عنها الرحالون

يذكر ابن حوقل في القرن الرابع أن المدينة كانت مسورة وكان بها أسواق كثيرة ومزارع متعددة، ومواشٍ متعددة وكانت تنتج السمن والعسل بوفرة.

ويذكر البكري في القرن الخامس أن المدينة كان بها آثار قديمة ومنها بقايا كنيسة عتيقة كانت فيها.

ويذكر الإدريسي في منتصف القرن السادس أن التجارة في المدينة كانت رابحة، وإن صناعتها كان مزدهرة كما أن إنتاج العسل والسمن فيها كثيرًا يتزود به منها إلى البلدان.

ولاحظ صاحب الاستبصار في القرن السادس ما لاحظه الإدريسي قبله.

وتحدث أبو الفداء عن ازدهار تجارتها وتقدم اقتصادها في القرن الثامن الهجري[1].

في العهد التركي (٩٢٢- ١٢٤٥هـ)

وهو عهد طويل يستغرق نحو ٣٢٣سنة، وفيه عادت المدينة عاصمة للقطر الجزائري كله، يرسل منها الباشوات والدايات أوامرهم إلى ولايات القطر كله،

---

(١) أبو الفدا إسماعيل: تقويم البلدان ص١٢٥ صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص١٢٧.

وكانت تضم إدارات الحكومة، وأجهزة السلطة المركزية، واتسع حجم المدينة في هذا العهد، واستبحر عمرانها، وبلغ عددها أحيانًا ١٥٠ ألف نسمة، وصار شكلها أشبه ما يكون بمثلث هندسي[١]، وكانت الجهة العليا منها مشحونة بالسكان من عامة الشعب.

أما الجهة السفلى المواجهة للبحر منها فقد كانت مركز سكنى الباشا أو الداي، ورؤساء البحر وأصحاب الثروة، وقناصل الدول الأجنبية.

وكان يحيط بالمدينة سور ينحدر من القصبة إلى البحر ما بين باب الواد حيث موقع ثانوية الأمير عبد القادر الآن، وما بين المسرح البلدي الذي يحاذي باب عزون[٢]، وكانت عناصر سكانها تتألف من بربر صنهاجة كبني مزغنة أهلها الأصليين، ومن العرب الثعالبة وغيرهم، ومن الأتراك الذين جاء بهم عروج وخير الدين أو من الوافدين عليها بعد ذاك ومن مولديهم بعد تزوجهم بالأهليات.

وكان فيها إلى جانب هؤلاء السكان طوائف من الزنوج واليهود والمسيحيين.

حكامها الأتراك

لما تعرضت المدينة في أوائل القرن العاشر لهجومات الإسبان الذين احتلوا مدينة وهران ومرساها اضطر شيخها سالم التومي إلى دفع إتاوة لهم، ورأى بعد حين أن النجاة من غزوهم لا يتأتى إلَّا بالاستعانة بالأخوين التركيين عروج

---

(١) صفحات في تاريخ الجزائر.

(٢) المصدر السابق ص٧.

وخير الدين. واستقدمهما سالم التومي وأهل المدينة وجاء الأخوان إليها سنة ٩٢٢هـ وبدءا معًا حياة كفاح وجهاد مرير، وحاربا الإسبان بمعونة الجيش الوطني في مواقع مختلفة، واستشهد عروج في مدافعته بتلمسان، وبقي خير الدين أميرًا على الجزائر ثم ألحق إمارته بالدولة العثمانية وبذلك دخلت المدينة في طور جديد.

واكتسبت طابع قوة حربية وصيتًا حربيًّا وسياسيًّا واسعًا بحوض البحر الأبيض المتوسط وتعاقب على الحكم فيها خلفاء خير الدين كحسن أغا (١٥٣٣-١٥٤٤م) الذي صدَّ حملة بحرية كبيرة زحف بها الإسبان إلى المدينة ليحتلوها. واندحروا أمام أسوارها وقوة دفاعها[1] وأصبحت المدينة بعد هذا الانتصار كما يقول محمد ابن رقية: تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمان الأقطار، وشاع انتصارها في مشارق الأرض ومغاربها -وكان أسطولها القوي يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط.

وقد نبغ في البحرية من القادة المشاهير علي بتشيني وقلج علي، والرايس حميدو، وغيرهم.

وقد اشتهر من داياتها السياسيين الحازمين:

١- خير الدين باشا.

٢- حسن أغا (١٥٤٤-١٥٧٣م).

---

(١) صفحات في تاريخ الجزائر ص ٥٥ توفيق المدني (محمد عثمان باشا ص٢٩) محمد ابن رقية التلمساني الزهرة النائرة نشر سليم بابا عمرو ص١٩.

٣-حسن باشا ابن خير الدين (١٥٤٤-١٥٦٨م).

٤- قلج علي (١٥٦٨-١٥٧١م) وكان قائدًا حربيًّا بحريًّا كبيرًا.

واشتهر من داياتها:

- علي بتشيني الذي أسس مسجده الشهير بنهج باب الواد.

- رمضان أغا الذي شرع في تأسيس جامع الحواتين أو الجامع الجديد (١٦٦٠-١٦٦١م).

- محمد بكتاش باشا (١٧٠٧-١٧١٠م) الذي اشتهر بتشجيعه للحركة العلمية وبفتحه لمدينة وهران الفتح الأول.

- محمد عثمان باشا (١٧٦٦-١٧٩١م) وهو أعظم دايات الجزائر، وقد صدَّ حملات عديدة للإسبان على مدينة الجزائر، واستطاع أن يفتح مدينة وهران على يد واليه على المقاطعة الوهرانية محمد باي الكبير وآخر هؤلاء الدايات هو حسين باشا (١٨١٨-١٨٣٠م) وقد وقع احتلال الفرنسيين للمدينة على عهده في ٥ جوليت سنة ١٨٣٠م.

وخضعت المدينة بعد ذلك لاحتلال مرير دام من سنة ١٨٣٠إلى سنة ١٩٦٢م.

المدينة تحت الاحتلال الفرنسي

حكم الفرنسيون المدينة حكمًا عسكريًّا، ثم حولوه إلى مدني بعد حين، وحاول الثائر المقراني أن يسترد المدينة من يد الفرنسيين في ثورته سنة ١٨٧١م؛ ولكنه لم ينجح في ذلك لأسباب مختلفة.

ثم ظهرت فيها ضروب من المقاومات السياسية الشعبية كحركة الأمير خالد عقب الحرب العالمية الأولى، ونشاط حزب الشعب منذ سنة ١٩٣٦م، وجهود جمعية العلماء منذ سنة ١٩٣١م وحركة أحباب البيان والحرية التي خلفت حركة النواب، وكان مركز هذه الحركات التحريرية هو مدينة الجزائر.

كما كانت نواة جبهة التحرير الوطني الأولى لتنظيم الثورة المباركة التي اندلعت في غُرة نوفمبر سنة ١٩٥٤م -منبعثة منها، وشهدت المدينة بعد ذلك معارك عنيفة ضارية، وضروبًا من الفداء والاستبسال في القصبة وبلكور[1] وباب الواد وغيرها من أحيائها المختلفة، إلى أن جاد الله بالاستقلال المنشود سنة ١٩٦٢م وتحققت أماني الشعب بعد ضروب من التضحية والجهاد التي دامت نحو ثماني سنوات، وبعد أن ضحَّى الشعب فيها بمليون ونصف مليون شهيد.

المدينة في عهد الاستقلال

وشهدت المدينة قيام الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، واستأنفت حياة جديدة كلها عز وكرامة ورقي وازدهرت تجارتها واستبحر عمرانها، وكثر سكانها حتى بلغ عددهم الآن ما يربو على مليون ونصف مليون.

وهي الآن تسير بخطى فسيحة في نشاطها المعماري وتزهو اشتمالها على الإدارات المركزية للحكومة وعلى المؤسسات الثقافية العالية لمختلف

(١)هي ضاحية الحامة، أما اسم (بلكور) فهو علم لضابط فرنسي كان يعمل بمكتب عربي Bureau arab بمدينة القل فأطلق اسمه على هذه الناحية.

الدراسات العلمية وعلى المتاجر الواسعة والمعامل المتعددة والمؤسسات الرحبة كما تزهو بكثرة أحيائها واتساع رقعتها التي تكاد تبلغ ما جاورها من الضواحي لتحيلها إلى أجزاء فرعية منها.

الحركة المعمارية في المدينة

تبتدئ الحركة المعمارية في الجزائر بتاريخ تأسيس المدينة على يد بلكين بن زيري سنة ٣٣٩هـ ولكن آثار هذا العهد الزيري والحمادي لم يبقَ منها إلَّا الجامع الكبير الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م[١] وكذلك جامع سيدي رمضان الذي يعود تاريخ تأسيسه إلى هذا العهد وكلاهما يمثل الفن المعماري البسيط ولكنه رغم بساطته يتسم بالروعة والإبداع.

أما في العصر التركي فقد لبست المدينة حلة معمارية قشيبة بمساجدها الزاهرة، ومآذنها العالية (وحصونها العاتية وقصورها الخلابة).

وقد لاحظ جورج مارسي: إن أول ما يلفت انتباه المسافر عندما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركي الذي يتجلى فيما تركوه من آثار معمارية زاهية[٢]، والفن المعماري للجزائر على عهد الأتراك يمتاز بالنقش والزخرفة وضروب الإبداع الفني، وتمثل المساجد والزوايا والمعابد جزءًا كبيرًا من هذا الفن المعماري، وقد بلغ عددها في العصر التركي حسب ما جاء في وثيقة عثرنا عليها بقسم الوثائق تحت رقم ٣٥٠ نحو ٩٨ مسجدًا وزاوية.

ويذكر هايدي أنه كان بالجزائر عقب الاحتلال الفرنسي ١٣ مسجدًا كبيرًا،

---

(١) راجع دراستنا وبحثنا حول الجامع الكبير بهذا الكتاب.

(٢) وزارة الأخبار: المساجد في الجزائر ١٩٧٠م ص٤٥.

و ١٠٩ مسجدًا صغيرًا و ٣٢معبدًا، و ١٢ زاوية[١] وقد اندثر جل هذه المساجد والزوايا بعد مدة قليلة من الاحتلال الفرنسي تحت ستار توسيع الطرقات وتنظيمها وتحت ستار أسباب أخرى لا مبرر لها.

ويبدو الفن المعماري في المساجد الباقية كما في الجامع الجديد الذي بُني سنة ١٠٧٠هـ-١٦٦٠م وهو يمتاز بمنارته التي كان يبلغ ارتفاعها ٢٩.٥م ثم صار ارتفاعها بعد الردم ٢٥م، وبالزخرفة البديعة التي تعلوها، كما يمتاز بمحرابه المزخرف بضروب النقش الجميل، ويمتاز أيضًا بمنبره المصنوع في إيطاليا، والحافل بضروب الأناقة والجمال.

وجامع القائد صفر ويعود تاريخ تأسيسه الأول إلى سنة ٩٤٠ وأعيد بناؤه سنة ١٢٤٢هـ.

وجامع كيتشاوة الذي أسس سنة ١٢٠٩هـ ١٧٩٤م وهو يشمل على آيات الفن المعماري البديع.

وجامع علي بتشيني وقد أسس حوالي سنة ١٠٣١هـ ١٦٢٢م وهو يشتمل على شواهد الفن المعماري الرائع وصحنه المربع الكبير وهو يمثل روعة فنية لا نظير لها، ويزيده جمالًا قببه المثمنة الأضلاع والمرتكزة على دعائم غليظة وما تشتمل عليه من آيات الفن المعماري التي تسحر الأبصار، وتخلب الألباب[٢].

---

(١) المصدر السابق ص٤٦.
(٢) المساجد في الجزائر ١٩٧٠م.

حياة (الجزائر) الثقافية

حياة المدينة العلمية والثقافية منذ تأسيسها على يد بلكين إلى الآن هي حياة خصبة متعددة الجوانب متنوعة الموضوعات، ونحن في هذه الكلمة نحاول أن نلقي أضواء خاطفة على لمحات من هذه الحياة الثقافية؛ لأن التوسع فيها يستوجب تأليف كتاب خاص بها.

وقد نبغ في هذه المدينة في مختلف عصورها أعلام في الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والكلام والطب، على أن الواقع يدعونا إلى أن نؤكد أن جُلَّ من نبغ فيها كان من الفقهاء والمتصوفة أو من الأدباء الكُتَّاب والشعراء.

وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هي المساجد التي كانت تؤدي دورًا تعليميًّا من جهة، ودورًا تعبديًّا من جهة أخرى، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور أيضًا، وإلي جانبها نجد الكُتَّاب القرآني ويدعى في الجزائر بالمسيد (تصغير المسجد) وهو عبارة عن مدرسة ابتدائية يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم وقراءاته المروية، أما نبغاء هذه المدينة فإننا سنذكرهم حسب ترتيبهم الزمني ونذكر كلمة موجزة عن كل واحد منهم.

١ – أبو محمد بن أحمد بن فرج الجزائري المتوفى سنة ٣٦٨هـ وكان راوية للحديث[1].

ونبغ فيها في القرنين السادس والسابع.

---

(١) ياقوت الحموي معجم البلدان جـ٢ ص١٣٢.

٢- عبد الرحمن بن السطاح المتوفى سنة ٦٢٩هـ ببجاية وكان أديبًا فقيهًا[1].

٣- وعبد الله بن حجاج بن يوسف الجزائري وكان نحويًا فقيهًا روى عن الجزولي وغيره وتوفي ببجاية سنة ٦٤٠هـ[2].

٤- وأبو محمد عبد المنعم الجزائري وأخذ عن ابن منداس الجزائي، واشتهر بالشعر والترسل الديواني.

٥- أبو عبد الله محمد بن العطار الجزائري شاعر المدائح النبوية[3]، ومن شعره قوله:

أهدت لنا طيب الروائح يثرب ... فهبوبها عند النسيم يطرب
رقت فرق من الصبابة والأسى ... قلب بنيران البعاد يعذب
شوقًا إلى أسنى نبي حبه ... كنز النجاة فنعم هذا المطلب

٦- ومحمد بن منداس المتوفى سنة ٦٤٣هـ وكان أديبًا لغويًا ومحدثًا.

٧- ومحمد بن أحمد الإريسي المعروف بالجزائري وكان كاتبًا بارعًا شاعرًا، ومن شعره قوله:

أدرها فقد هبت نسيمة دارين ... ونم بسر الروض نشر الرياحين

وقوله من قصيدة أخرى:

---

(١) الحفناوي: تعريف الخلف جـ٢ص١٩٨ - الغبريني عنوان الدراية ص١٥٦.
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٢٤٧ وعنوان الدراية ص١٥٦ سنة ٦٨٠هـ.
(٣) المقري: نفح الطيب جـ١٠ ص٣٢٧.

لعلك بعد الهجر تسمح يا بدر بوصل فقد أودى بمهجتي الهجر[١]

ونبغ فيها بالقرن الثامن:

٨- محمد بن حسن اليحصبي البروني الذي حاز رياسة الفقه في القرن الثامن بمدينة الجزائر، وانتقل بدعوى من أبي حمو الثاني إلى تلمسان، ومات بها في أواخر القرن الثامن الهجري.

ونبغ في القرن التاسع أعلام في الفقه والتصوف والكلام من أشهرهم:

٩- عبد الرحمن الثعالبي صاحب المؤلفات الكثيرة الذي ولد سنة ٧٨٥هـ والمتوفى سنة ٨٧٥هـ وقد اشتهر بمؤلفاته الجليلة في التفسير والوعظ والفقه والتراجم والتصوف ونحوها[٢].

١٠- وشيخه أبو جمعة وكان مشهورًا بعلمه وتقواه[٣].

١١- وأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، كان فقيهًا متكلمًا، وأديبًا شاعرًا، وقد اشتهر بلاميته في التوحيد وكان صديقًا للثعالبي، وقد رثاه بعد وفاته بقصيدة مطلعها:

لقد جزعت نفسي لفقد أحبتي وحق لها من مثل ذلك تجزع

وتوفي سنة ٨٨٤هـ[٤].

---

(١) عنوان الدراية ص٢٠٢-٢١١

(٢) تعريف الخلف جـ١ ص٦٣.

(٣) صفحات من تاريخ الجزائر ص٢٤٠- تعريف الخلف جـ٢ ص٤٧٠.

(٤) تعريف الخلف جـ١ ص٢٣.

في العصر التركي

ونبغ في هذا العصر كثير من العلماء والأدباء في قرونه الثلاثة، ومن أشهر من نبغ فيه:

١٢- سيدي محمد الشريف الزهار دفين الجزائر المتوفى سنة ٩٤٨هـ وكان تلميذًا لسيدي أحمد بن يوسف الملياني الصوفي الكبير[١].

١٣- والشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها وكان محدِّثًا فقيهًا صوفيًّا وتولى السفارة عن باشا الجزائر إلى المغرب وتوفي سنة ٩٦٣هـ وله كتب في التصوف[٢].

١٤- والشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري السلجلماسي الذي استقر بمدينة الجزائر وتولى التدريس بمساجدها وتخرج عليه طلبة كثيرون، منهم سعيد قدُّورة، وترك مؤلفات متعددة وتوفي سنة ١٠٥٧هـ.

١٥- وأبو عثمان سعيد قدورة الذي أخذ عن شيوخ الجزائر وتلمسان وتولى الفتوى والتدريس بالجامع الأعظم وتوفي سنة ١٠٦٦هـ ودفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري الصوفي، وله شرح على متن السلم للأخضري، وشرح على عقيدة السنوسي، وتوفي سنة ١٠٨٠هـ[٣].

١٦- وأبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري الذي ترجم له المحبي وأثنى عليه كثيرًا والشيخ البابلي كان يقول فيه ما وصل إلينا من المغرب أحفظ من

---

(١) تعريف الخلف جـ ص٤٦٩.
(٢) تعريف الخلف جـ٢ ص٢٨٣.
(٣) تعريف الخلف جـ١ ص٢٣.

المقري ولا أذكى منك، وتوفي سنة ١٠٨٠هـ[١].

١٧- والشيخ محمد بن علي وكان عالمًا جليلًا، وتوفي سنة ١٠٩٣هـ.

١٨- والعلَّامة يحيى الشاوي الذي نشأ بالجزائر وأخذ بها عن سعيد قدورة وعلى بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي ومحمد بن محمد بهلول الزواوي السعدي وأجازه شيوخه وارتحل إلى مصر سنة ١٠٧٤هـ واستجاز علماءها وأجازوه وظهر عليهم بحفظه، وله من المؤلفات في بيان ما للبخاري من التصحيح وحواشي علي التسهيل والألفية لابن مالك وتوفي على ظهر البحر سنة ١٠٩٦هـ ونقل إلى مصر ودُفِنَ بها[٢].

١٩- والشيخ محمد بن عبد المؤمن وكان فقيهًا قاضيًا للمالكية وتوفي بمدينة الجزائر سنة ١١٠١هـ.

٢٠- وأبو عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة وكان عالمًا فقيهًا تولى الإفتاء بالجامع الأعظم وتوفي سنة ١١٠٤هـ.

٢١- والشيخ عبد الرزاق بن حميدوش الجزائري وعاش في القرن الثاني عشر واشتهر بكتابه الطبي (كشف الرموز والأعشاب).

٢٢- وعمر بن محمد المانجلاتي وكان فقيهًا أصوليًّا أخذ عنه ابن زاكور وأثنى عليه كثيرًا، وختم عليه جمع الجوامع سنة ١٠٤٤هـ[٣].

---

(١) الكتاني (فهرس الفهارس والإثبات) جـ ص١٩٠.
(٢) فهرس الفهارس والإثبات جـ٢ ص٤٤٦.
(٣) تعريف الخلف جـ ص٢٩٥.

٢٣- ومحمد بن سيدي ابن علي الأديب الشاعر المفتي وكان شاعرًا كبيرًا وإمامًا فقيهًا وكان صديقًا لابن عمار الذي روى له كثيرًا من شعره، وساجله في كثير من قصائده[1].

٢٤- والعلَّامة أحمد بن عمار الجزائري العالم الأديب الرَّحالة وكان من نوابغ عصره، رحل إلى المشرق في أوائل سنة ١١٦٦هـ واشتهر برحلته التي بقي منها نبذة قليلة، وتوفي أواخر الثاني عشر الهجري[2].

٢٥- وعلي بن محمد الجزائري المتوفى سنة ١١٨٥هـ وكان يعرف بابن الترجمان، وانتقل إلى المشرق (وجال في أنحائه، ثم استقر أخيرًا بالآستانة وشارك مع الجيش العثماني وأسر ومات بالتراب الروسي)[3].

٢٦- وأحمد الغزال الجزائري وكان تلميذًا للعالم الأديب أحمد بن عمار وقد مدح شيخه بقصيدة جاء فيها:

فاكرم به من ماجد وابن ماجد أنعم به من سيد وابن سيد
له خضعت أرباب علم لعزه فكيف وفيهم قام أعظم مرشد

وأجابه تلميذه ابن الشاهد بقوله:

عسى أن يلم الشمل بعد تبدد عشية هذا اليوم أو ضحوة الغد[4]

٢٧- ومحمد بن الشاهد الجزائري وكان أديبًا شاعرًا[5] وقد ترك قصائد

(١) فهرس الفهارس والإثبات جـ٢ ص٤٤٦.
(٢) تعريف الخلف جـ٢ ص٨٣-٨٧.
(٣) تعريف الخلف جـ ٢ص٢١٥.
(٤) تعريف الخلف جـ ٢ص٢١٥.
(٥) تعريف الخلف جـ٢ ص١١٥.

كثيرة في المدائح النبوية، ومن شعره في ذلك قوله:

محمـــد روح الوجـــود وسر الأكـــــوان
إمـــام أصـــحاب الســجود فمالـــه ثـــان
محمـــد خـــير الـــورى نبينـــا الأواه
محمـــد بـــدر سرى ســبحان مـــن أنـــشاه
ومثلـــه لـــيس يـــرى أثنـــى عليـــه الله

٢٨- ومحمد بن رجب الجزائري، وقد اشتهر بكتابه في الطب ومدافعة الوباء الوافد عام ١٢٠٠، وجاء في أول كتابه هذا:

(الحمد لله وحده... لما جاء الطاعون في شعبان سنة ١٢٠٠هـ ببلدنا الجزائر اشتغلت بمطالعة كتب عديدة في الطب منها القانون لابن سينا، والتذكرة للأنطاكي، وألفت هذا الكتاب، وسميته بالدر المصون في تدبير الوباء والطاعون) وأدرك الشيخ العهد الاستعماري ومات في القرن التاسع عشر الميلادي[1].

٢٩- وسيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي دفين الجزائر وقد توفي بالجزائر أو ببلاد القبائل سنة ١٢٠٨ ودفن بمقبرة الحامة التي سميت باسمه، وهو ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر وبلاد السودان[2].

---

(١) تعريف الخلف جـ٢ ص٤٢٧.
(٢) تعريف الخلف جـ٢ ص٤٥٠.

في عهد الاحتلال الفرنسي

على الرغم من مضايقة الفرنسيين للحركة العلمية ودراسات اللغة العربية والدراسات الإسلامية والتفنن في سُبل القضاء عليها، فإن السند العلمي لم ينقطع ومن الدراسات الفقيهة واللغوية قد واصلت نشاطها الفعَّال، وتحدت العراقيل التي كانت تعترضها، وكانت المساجد والزوايا هي المراكز الثقافية في هذا العصر وغزت اللغة العربية المدارس الرسمية الثلاث للحكومة، واستقرت أقدامها في المدارس الحرة التي أنشأها الوطنيون بعد الحرب العالمية الأولى ونبغ في هذه الفترة جماعة من أعلام الفقه والأدب والتاريخ في هذه المدينة ومن هؤلاء الأعلام في القرن التاسع عشر:

٣٠- حمود المقايسي الجزائري المتوفى سنة ١٢٤٥هـ[١].

٣١- والإمام الجليل الكبابطي المتوفى بالإسكندرية بعد الاحتلال بقليل.

٣٢- والإمام حميدة العمالي مفتي المالكية بالجزائر المتوفى سنة ١٢٩٣هـ وكان مدرسًا ممتازًا بالجامع الأعظم وتخرج عليه كثير من شيوخ ذلك العصر، وقد ترك مؤلفات منها كتاب في القضاء، ودرس فيه خصائص القضاء وحلية القاضي وشروطه[٢].

٣٣- والشيخ القزادري وكان تلميذًا للعمالي، وإمامه بالجامع الأعظم، ومدرسًا بالمدرسة الثعالبية.

---

(١) تعريف الخلف جـ٢ ص١٤٠.
(٢) تعريف الخلف جـ٢ص ١٤٩-١٥٠.

٣٤- وحسن بن بريهات وكان عالمًا جليلًا، وأديبًا فاضلًا نافس شيخه حميدة العمالي في الدراسات الدينية والفقهية وقد نبغ في الأدب والشعر، ويذكر الحفناوي أنه كانت له يد طولى في الآداب العربية والعلوم الدينية، وله قصيدة في مدح أقوم المسالك في أحوال المالك لخير الدين باشا التونسي سنة ١٢٨٤هـ وقد ترك هذا الكتاب عقب صدوره صدًا عميقًا في نفوس المثقفين بالمغرب كله لطرافة موضوعه في ذلك العصر، ولتعرضه للمباحث السياسية والاجتماعية بأسلوب عصري فلسفي، ومن قصيدته في مدح الكتاب ومؤلفه قوله:

لله درك خير الدين من علم	أبدى منار الهدى للناس في القنن
نهجت نهجًا قويًا قلَّ سالكه	إلى السياسة كي ينجو من الفتن
حق على ملة الإسلام شكركم	ورعي تأليفكم بالقلب والأذن
عليك مني سلام الله ما طلعت	شمس وما غرَّد القمري في فنن

ونبغ في القرن العشرين أعلام كثيرون في الفقه والدراسات العلمية والأدبية من أشهرهم:

٣٥- مصطفى بن الخوجة[1] الذي ولد بالعاصمة سنة ١٨٦٥ ودرس بها على شيوخ عصره كالمفتي علي بن الحفاف والشيخ سعيد بن زكري، ومارس الصحافة بجريدة المبشر من سنة ١٨٨٦م إلى سنة ١٩٠١م ثم عُين مدرسًا بجامع سفير سنة ١٨٩٥م وأقرأ فيه التفسير والفقه وتوفي سنة ١٩١٥م وكان المترجم متضلعًا في العلوم اللغوية والفقهية وترك من المؤلفات الجليلة رسالة الاكتراث في حقوق الإناث، وهي رسالة غريبة في موضوعها، وبادرة حسنة في التآليف الاجتماعية، وكتابه إقامة البراهين العظام، على نفي التعصب في الإسلام.

---

(١) اسمه الصحيح محمد بن مصطفى ابن الخوجة.

٣٦- والشيخ محمد بن سعيد بن زكري الزواوي الذي استقر بالعاصمة ودرس بالجامع الأعظم، وتولى إمامة جامع سيدي رمضان والإفتاء المالكي وتوفي سنة ١٩١٤م وله من المؤلفات رسالة أوضح الدلائل.

٣٧- والحفناوي أبو القاسم الذي انتقل إلى الجزائر وشارك في تحرير الجريدة الرسمية وتوفي عام ١٩٤٠م[١] وقد اشتهر بكتابه الجليل: تعريف الخلف برجال السلف.

٣٨- والدكتور محمد بن أبي شنب المتوفى بالجزائر سنة ١٩٢٩م وكان متخصصًا في الدراسات اللغوية والأدبية، وهو أول جزائري نال درجة الدكتورة في اللغة العربية من الجامعة الجزائرية واشتهر بدراساته الاستشراقية وبأبحاثه الكثيرة باللغة العربية والفرنسية وبمؤلفاته الكثيرة ومنشوراته المتعددة[٢].

٣٩-ومن أعلام الجزائر الذين وضعوا أسس النهضة الحديثة في المجالين العلمي والأدبي، وفي مجال الفكر الإصلاحي الحديث العلَّامة الجليل، والأديب العبقري الموهوب والخطيب المصقع، والكاتب المترسل المبدع، جاحظ عصره، وزمخشري زمانه، وحافظ وقته الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دفين مقبرة سيدي محمد بالحامة، ويعد الشيخ البشير قائدًا عبقريًا في الإصلاح الديني مع صديقه الإمام عبد الحميد بن باديس ومفكرًا مجددًا، وناقدًا موجهًا في

---

(١) الواقع أن تاريخ وفاته كان يوم الجمعة ٢١ذي الحجة ١٣٦٠هـ-١٠ جانفي ١٩٤٢م ودفن بمقبرة قرية (الديس) قريبًا من بلدة (بو سعادة).

(٢) انظر: (ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب) لعبد الرحمن الجيلالي ط الجزائر ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

الدراسات النقدية، والشعرية، ومحاضرًا ممتازًا، ولا يمكن لأي باحث أن يفي حق الشيخ وفضله على النهضة الحديثة في صفحات قليلة أو كلمات عابرة يكتبها عنه، وقد توفي الشيخ بعد جهاد مرير وجهود بنَّاءة متواصلة في رئاسته لجمعية العلماء وإدارته لعشرات مدارسها الحرة -في شهر ماي سنة ١٩٦٥م وترك مؤلفات متعددة ومن أشهرها عيون البصائر الذي طبع منذ سنوات.

٤٠- والشيخ الطيب العقبي، وقد التحق بالعاصمة وقام فيها بنشاط فعَّال في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي وكان له تأثير كبير على التمكين لهذه الحركة الدينية كما كان له فضل مشكور على النهوض بالصحافة الوطنية وتوفي قبل الاستقلال بقليل[1].

٤١- والشيخ العربي التبسي الذي التحق بالعاصمة بعد إدارته لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، وتولى رئاسة جمعية العلماء بعد الشيخ البشير الإبراهيمي وأشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة، وأقام بالجزائر بعد اندلاع الثورة التحريرية وجاهد فيها جهاد الأبطال حتى اختطفه المظليون من جيش الاحتلال ونقلوه إلى معتقل مجهول وقتلوه شهيدًا رحمه الله سنة ١٩٥٨م.

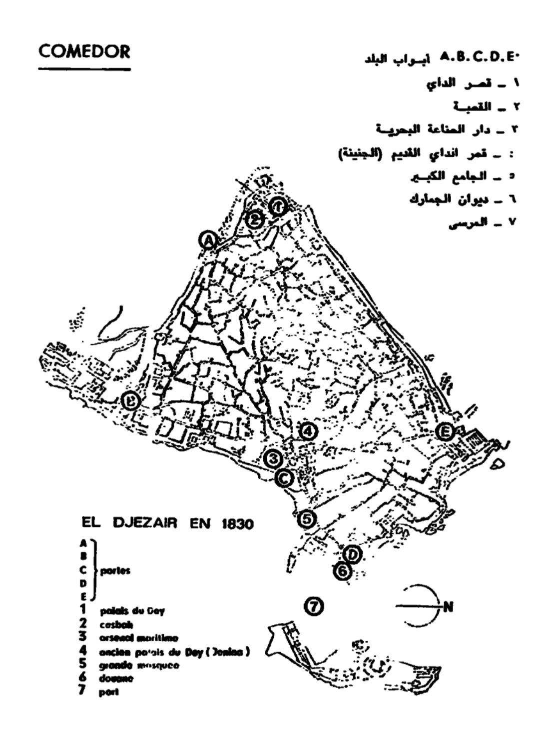
هكذا كانت مدينة الجزائر طيلة هذه القرون التي مرت بها في العهد الإسلامي تزخر بنشاط سياسي فعَّال، وبحركة عمرانية ومعمارية متواصلة وبحركة علمية مبدعة وتضم تحت كنفها طائفة من الأفذاذ في الفنون العلمية المتنوعة كانت تعتز بهم في مسيرتها الزمنية المتواصلة، وتباهي بعبقرياتهم غيرها من مدن القطر الجزائري.

---

(١) قُبض إلى رحمه الله ليلة الأحد ٢٦ ذي القعدة ١٣٧٩هـ/ ٢٢-٥- ١٩٦٠م، ودفن ظهر الغد بمقبرة (غار القطران) غربي ضاحية بلكين -بالعاصمة.

كما كانت تعتز بزعامتها السياسية التي تسلمت مقالدها منذ العصر التركي في أول القرن العاشر إلى الآن.

وهي لهذه الأمجاد كلها تستحق أن تقام لها ذكريات، وأن تشرف بالتنويه والإكبار وأن يخصَّ تاريخها الحافل بالدرس والتحليل والتعليق ليستوحي منه أبناؤها أمجاد عزهم وكرامتهم وأصالتهم.


COMEDOR
A.B.C.D.E· أبـواب البلد
١ ـ قصـر الداي
٢ ـ القصبـة
٣ ـ دار الصناعة البحريـة
٤ ـ قصر الداي القديم (الجنينة)
٥ ـ الجامع الكبيـر
٦ ـ ديوان الجمارك
٧ ـ المرسى
EL DJEZAIR EN 1830
A B C D E portes
1 palais du Dey
2 casbah
3 arsenal maritime
4 ancien palais du Dey (Jenina)
5 grande mosquee
6 douane
7 port
N

المهدي البوعبدلي

العيد الألفي

للجزائر والمدية ومليانة

وحياة مؤسسها بولوغين بن زيري(١)

قبل أن أتعرض للحديث عن شخصية هذا البطل الفذ، الذي استطاع بما توفر لديه من عبقرية وشجاعة، أن يحقق انتصارات رائعة، ويوحد بلاد المغرب، ويكون دولة عظيمة دامت قرنين متتابعين، أحدثكم بإيجاز عن مكانة هذه الدولة التي تكونت من أفراد قبيلة بربرية لها مكانتها في التاريخ.

كان لهذه الدولة صلة بتاريخ البلاد قبل الإسلام وبعده إذ مما لا شك فيه أن معظم القبائل البربرية التي استوطنت الجزائر، ومنذ عشرات القرون، وتكونت منها إمارات ودول ساهمت في تغيير مجرى وجه التاريخ البشري العالمي، وأثرت في مسيره، وذلك أنه لما اندلعت الحرب بين دولتي العالم العظيمتين إذ ذاك: قرطاجنة ورومة، حوالي القرن الثالث قبل المسيح، وانتقلت رحاها من أوربا إلى الشمال الإفريقي كان لأمراء البربر الدور الحاسم في ترجيح إحدى الكفتين إذ هم الذين أمدوها بالرجال والعتاد، وعلى سبيل المثال نذكر أن الملك البربري سيفاكس (Syphax) جند ستين ألف مقاتل لمحاربة سيبيون (Scipion) المشهور بالإفرقي والملك يوبا الأول (Yuba 1er) جند ثلاثين ألف فارس

(١) محاضرة الأستاذ المهدي البوعبدلي التي ألقاها في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بقصر الصنوبر بالعاصمة من ١٣ جمادى الثانية إلى ١ رجب ١٣٩٢هـ/ ٢٤ يوليو إلى ١٠ أغسطس ١٩٧٢م.

لمحاربة الملك الروماني سيزار Cesar.

وقد اشتهر من قادة البربر ملوك عظام، ورؤساء أبطال وإن كان الكثير منهم اعترف بالتبعية لقرطاجنة أو لروما إلَّا إنهم كانوا مستقلين في تصرفاته الداخلية، كما سينيسا Massinissa وميسيبا (Miscipa) ويوغرطة Jugurtha الذين حكموا من المحيط الأطلسي إلى ليبيا(١).

وفي عهد روما لما استولت على سواحل البلاد وتلوها، بقي جُلّ القبائل محتفظين باستقلالهم الداخلي، وكثيرًا ما ثاروا على الحكومة المركزية، وضيقوا الخناق على مراكزها الاستعمارية، قال ابن خلدون: ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر في ضواحيهم صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة، وخراجا معروفًا مؤقتًا، يعسكرون معهم في حروبهم، ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك، حتى جاء الله بالإسلام.

أدرك الإسلام بعض هذه الإمارات بعد الفتح كمغراوة وجراوة (قوم الكاهنة) وبني يفرن، فأقر بعضها على الحكم كمغراوة التي أسر زعيمها، وأرسل مع الأسرى إلى الخليفة عثمان بن عفان، فمن عليه بعد إسلامه، وأقره على حكم قبيلته.

إن كثيرًا من أسماء هذه القبائل تغيرت، وكذلك بعض المواقع الجغرافية تبدلت، ولهذا فإن بعض الاختصاصيين في البحوث التاريخية، وحاولوا أن يربطوا صلة أسماء هذه القبائل بعد الفتح، ومواقعها، بأسمائها ومواقعها القديمة، ومازالت الجهود مبذولة لإدراك هذا الهدف، تابعت هذه القبائل

---

(١) (الجزائر) لستيفان قزال Stephane Gsell.

مجالات نشاطها، في ميادين الجهاد بعد دخولها في الإسلام، وأمكنها أن تثبت وجودها وحيوتها، وأن تضع بصماتها -على حدٍّ تعبير المعاصرين- على كثير من صفحات التاريخ الإسلامي بل التاريخ العالمي، نجد كثيرًا من الباحثين في تاريخ هذه الفترة خصوصًا، الأجانب منهم يرون لزامًا ربطها بالتاريخ العالمي العام؛ لأن هذه الناحية لم تقتصر على إمداد الدولة الإسلامية الناشئة بالأبطال الذين شاركوا في فتح بلاد الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل كان لهم الفضل في تطور الاقتصاد العالمي، والتقدم الحضاري فبفضل موقعهم الجغرافي أمكنهم أن يتوسعوا في فتوحات بلاد الصحراء والسودان، ويكتشفوا مراكز تجارة الذهب التي خططوا لها الطرق، ومهدوها للقوافل التجارية، تلك التجارة التي اهتم بها تجار العالم الغربي والشرقي، وتدفق بسببها سيل القوافي البرية والبحرية، من مختلف الأجناس، على البلاد طيلة قرون، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل في موضعه.

امتازت هذه الدولة أيضًا بأنها كانت صلة وصل، بين المشرق والمغرب، خصوصًا بين المشرق وبلاد الأندلس رغم ما كان يسود علائق البلدين من توتر.

إن الاهتمام بآثار هذه الدولة في الميدان السياسي والاقتصادي لا زال محل اعتناء الباحثين إلى زماننا هذا من ذلك البحث القيم الذي نشره أحد كبار المؤرخين في أواخر القرن الماضي، وبالضبط سنة ١٨٧٨م في (المجلة التاريخية) تحت عنوان (معركة بواتي) (Poitiers) والأسباب الحقيقية في توقف الاحتلال الإسلامي أحدث هذا المقال هزة عنيفة في الأوساط العلمية، خصوصًا وأن صاحبه من غُلاة اليمين، أثبت هذا المؤرخ أن انسحاب الجيش الإسلامي من معركة بواتي، وقطع تتبع الفتوحات، لم يتسبب عن انتصار ملك فرنسا، شارل

مارتيل[1] فقط، كما هو مجمع عليه عند المؤرخين، بل هناك أسباب أخرى بينها، وبعدما نوقشت في (جمعية البحوث التاريخية) اعترف لصاحبها بصحة وجهة نظره، وستتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل في ختام بحثنا إذ له علاقة بالموضوع.

ولما كان مجال هذا البحث محدودًا فإني سأكتفي بالإشارة إلى بعض النقاط الرئيسية، وأركز البحث عن بلكين ودولته، ونبذة من مآثره حسب الترتيب المذكور في العنوان.

بلكين وبيئته

هو بلكين بن زيري بن مناد بنَ منقوش البلكاني الصنهاجي وقبيلة صنهاجة من أشهر وأقوى القبائل البربرية في الجزائر كان موطنها بعد الفتح يشمل معظم تلول الجزائر بين جبال الأوراس ومدينة تنس، وقد ذكر مؤرخهم أبو الفضل[2] ابن النحوي صاحب المنفرجة الشهير، إن بطونهم تنتهي إلى سبعين والرياسة في ثلاث فرق: منها بلكانة[3] التي ينتمي لها بلكين.

كانت صنهاجة قبيلة بدوية تسكن السهول والجبال إلّا إنها مقيمة، لم يتحدث عنها التاريخ بجدة، في القرنين التاليين للفتوحات إلى أن ولي مناد جد بلكين عند أمراء الدولة الأغلبية أو آخر القرن الثالث الهجري، فظهرت نسبته إلى هذه القبيلة وقيل: سبق ذكرها في أوائل عهد الدولة الرستمية حيث انتصر

---

(١) لم يكن هذا ملكًا وإنما كان في الواقع حاجبًا أو محافظًا للقصر.

(٢) أبو الفضل بن النحوي هو يوسف بن محمد ٤٣٣-٥١٣هـ دفين قلعة بني حماد.

(٣) بلكانة هكذا أثبتها ابن خلدون في ديوان العبر وأبو راس في عجائب الأسفار والمستشرقون يكتبونها (تلكانة)، وتبعهم كتابنا المسلمون وهو غلط وتصحيف.

لهم أحد رؤسائها، كان مناد سُنيًّا وزعيمًا دينيًّا ، وبعد وفاته خلفه ولده زيري على رياسة قبيلته، اشتهر زيري بالفروسية والبطولة، وشن الغارات على أعداء القبيلة من مغراوة حيث كانت الحروب بينهم سجالًا.

اتخذ زيري هذا حصنًا (بالجبل الأخضر) جنوب مدينة المدية في أول عهده، ثم لما اشتهر أمره، وصادف ظهور الدولة الفاطمية، اتصل بثاني ملوكها القائم بأمر الله، فاعترف له برياسة قومه وساعده على تأسيس وتوسيع إقطاعه بالجبل المذكور سنة ٣٢٤هـ وهذا الحصن هو الذي استحال إلى مدينة أشير الخالدة،كانت صنهاجة متاخمة لقبيلتي كتامة، التي كانت تحدها شرقًا، ولقبيلة مغراوة الزناتية التي تحدها غربًا.

وكتامة هم أخوة صنهاجة عرف موطنهم ابن خلدون بقوله: (يمتد من دلس غربًا إلى عِنَّابة شرقًا إلى الأوراس جنوبًا، وكانت لهم مدنهم: بجاية، ايكجان، سطيف، باغاية، نقاوس، باللزمة، قسنطينة، القل وجيجل وعدَّ ابن حزم منهم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم ولم يزالوا على هذه الحالة من لدن ظهور الملك، وملك المغرب إلى دولة الأغالبة، ولم تكن الدولة تسومهم بهضيمة، ولا ينالهم تعسف؛ لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق).

أما مغراوة التي كانت تحد صنهاجة غربًا فإن موطنها كان يمتد من مليانة إلى تلمسان شمالًا وهي بعكس صنهاجة من القبائل الرحل، لعبت أدوارًا هامة في تاريخ البلاد حيث أسست دولًا بالمغرب وليبيا والجزائر من عهد الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن التاسع.

أما تقسيم البلاد السياسي عند ظهور دولة بلكين فكان على ما يلي: فالقطاع الوهراني وسهول شلف من القطاع الجزائري، كان يتقاسمهما بقايا الأدارسة ومغراوة، وكانت تاهرت الرستيمة، وإمارة بني يفرن بتلمسان ومعسكر القريبتي العهد بالسقوط، على يد جوهر الصقلي قائد الفاطميين.

كانت إمارتا بني يفرن ومغراوة، يعترفان الولاء لملوك الأندلس، كما كانت علائق الدولة الرستمية بملوك الأندلس ودية، ولهذا أحدث سقوطهما وتوغل جوهر في غزواته على المغرب الأقصى، أسوأ الأثر عند ملوك الأندلس الذين أحسوا بالخطر، الذي كان يهدد دولتهم، فحرضوا أمراء مغراوة، وأعانوهم على محاربة الفاطميين وذلك في عهد الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٣٥٠هـ.

استؤنفت الحرب بينهما وكانت خاتمتها المعركة الحاسمة، التي انهزم فيها جيش مغراوة على يد بلكين قائد الجيش الفاطمي، فقد الجيش المغراوي في هذه المعركة جُلَّ رؤسائه، منهم محمد الخير بن خزر، رئيس الدولة وقائد الجيش الذي انتحر في ساحة الوغى لما تيقن الهزيمة، وذلك سنة ٣٦٠، وبين تاهرت واللطحاء، خصص لهذه المعركة كثير من المؤرخين فصولًا، تحدثوا فيها بتفصيل وسجلوا انطباعاتهم حيث كانت سببًا في القضاء على دولة مغراوة بالجزائر ما يزيد على القرن ووصفها ابن خلدون على عادته بعباراته البليغة منها (بعد العهد بمثلها) وبقيت عظامهم ماثلة بمصرعهم عصورًا إلخ.

أسباب اختيار بلكين

تساءل كثير من الباحثين، عن الأسباب التي جعلت الفاطميين يختارون بلكين، ويقدمونه على غيره، من قادة جيوشهم الكتاميين، المدينين لهم بإنشاء

دولتهم، وبسط نفوذها وبني حمدون مؤسسي مدينة المسيلة[1]، الذين انتصروا للفاطميين من عهد عبيد الله المهدي مؤسس الدولة، أما بلكين ووالده، فالكل يعلم إنهما لم يعترفا بالفاطميين إلَّا في عهد حروبهم مع أبي يزيد بن مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي.

والجواب أن علائق كتامة بالفاطميين طرأ عليها التوتر لما حاصرهم بالمهدية.

والضعف، وسوء الظن من الجانبين بعد ما قتل الفاطميون أبا عبد الله الشيعي، ووصل بكتامة إلى أن حاولوا التمرد والثورة، وثاروا بالفعل.

كما أن بني حمدون رغم أن أميرهم حينئذٍ جعفر بن علي كان أخًا من الرضاع للخليفة المعز لدين الله وتربى معه بالمسيلة، ووقف في حروبهم مواقف جليلة وشارك نفس زيري في معركة أبي يزيد وأبلى فيها البلاء الحسن وسجلها شاعر بلاط ابن هانئ في قصيدته المشهورة التي افتتحها بقوله:

بلى هذه تيهاء والأبلق الفرد فسل أجمات الأسد ما فعل الأسد

كان زيري وابنه بلكين، بعد نيلهما تلك المكانة عند الفاطميين، غير مرتاحين لتصرفات جعفر بن علي من الأندلسي وذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك راجع للتنافس وقد حاول المعز إصلاح ذات البين بين بلكين وجعفر إذ تربى معهما فجمعهما مرارًا عنده، إلَّا أنه لم يتوصل إلى نتيجة، وفي تلك الأثناء شاعت الاتهامات حول جعفر بأن له اتصالات مريبة بزناتة، وعيون ملك

---

(١) أسس عبيد الله المهدي المسيلة سنة ٣١٥هـ اتخذها مركزًا للزاب بدلًا من طبنة والذي تولى بناءها وإمارتها حمدون بن علي المشهور بابن الأندلسي ورثها أبناؤه من بعده.

الأندلس، وقد تحققت هذه التهمة عندما التحق جعفر ببقايا جيش مغراوة المنهزم في طريقهم إلى المغرب، بعد أن تظاهروا على أن يقصد زيارة المعز بالقيروان لم ينخدع زيري لادعاء جعفر، وتحقق لديه أنه يريد التخلص من مراقبته ومراقبة ابنه، ليفلت من عواقب التهم الموجهة نحوه، ولهذا نصب له كمينًا ليصده عن وجهته، فالتقى الجيشان، جيش زيري، وجيش جعفر، فهزم زيري وقتل جعفر زيري بيده ثم حزَّ رأسه وبعثه إلى ملك الأندلس أسوة بما فعله زيري برءوس أمراء مغراوة الذين بعثهم إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى القيروان إثر هذه الأحداث بقي بلكين في الميدان من دون مزاحم، وقد روعي في اختياره أيضًا أنه كان يرأس جيشًا برهن في حروبه المتعددة تضامنه وبطولته وطاعته المثالية لرئيس العشيرة وكان الجيش الوحيد الذي هزَّ مغراوة كما تحقق الفاطميون أن جميع محاولات ملك الأندلس المختلفة الوسائل التي استعملها لإغراء زيري وكسب تأييده ارتطمت بإبائه وشهامته ووفائه.

بلغ نبأ هزيمة جيش زيري، وموته أثناء المعركة لولده بلكين، وهو بأشير، فبادر إلى تتبع آثار مغراوة وأنصارهم من قبائل زناتة، وقد اختلفت روايات المؤرخين فاخترنا من بينها رواية ابن حيان[1] الأندلسي القريب العهد بتلك الأحداث الذي قال عنها: (ووردت معد المعز) النكبتان معًا:

فساد ابن الأندلسي وخلعه وهزيمة زيري وقتله، فاشتد ذلك عليه وأقلقه وقلد بلكين العملية معًا، وأنجده الشيعي بالمال والرجال، وأخرجه إلى المغرب في أول سنة ٣٦١ فأوغل في ديار زناتة، وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقًا لا

(١) أبو حيان بن خلف بن حيان القرطبي (٣٧٧-٤٦٩هـ) نقل عنه صاحب مفاخر البربر.

يحصيهم إلَّا الله، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة باغاي وبجاية، وبسكرة، وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر، ثم انثنى على بواديها وصحاريها... إلخ.

وقد وصف ابن خلدون هذه الحادثة بمزيد من الضبط والتوسع، وهي تختلف في بعض الجزئيات عن ابن حيان كما أن بلكين بمجرد ما وصله خبر موت والده التحق بمغراوة وزناتة ولم ينتظر إذن الخليفة وإنما عندما سمع المعز ما وقع (حمد عمله) وضم له ولاية الزاب خلفًا بجعفر، بخلاف ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن جعفر جرد من علمه قبل الحادث، وقصد ابن حيان وغيره بالمغرب في هذه الواقعة المغرب الأوسط لا الأقصى، فبلكين انتقم من زناتة بعد موت أبيه بالتراب الجزائري ولم يذهب إلى المغرب الأقصى في الفترة التي تفصل بين انتصاره على مغراوة وتوليته الخلافة أي ما بين سنة ٣٦٠، ٣٦٢.

شخصية بلكين

تولى بلكين خلافة المعز لدين الله بإفريقية سنة ٣٦٢ قال ابن خلدون: واستقدمه السلطان لولاية إفريقية بعد سنة إحدى وستين، ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه، وقد لقبه (بسيف الدولة) وعرب اسمه (بيوسف) وكنَّاه (أبا الفتوحات) وكانت كلها ألقابًا في موضعها اختار بلكين الإقامة بأشير عاصمة والده وعشيرته بدلًا من القيروان، التي عين فيها كاتبه الخاص عاملًا، وقد اعتنى بأشير فحصنها بل أحدث فيها مدينة أخرى أو (قصبة) وقد اضطربت أقوال المؤرخين، لما اطلعوا على أقوال بعض الرحالين القدامى، ينسبون بناء مدينة أشير لبلكين، والكل يعلم أن أشير بناها وأسسها والده،

زيري حتى إن بعض الرحالين كانوا يعرفونها (بأشير زيري) وخلد هذه التسمية الشاعر السُّني ابن عيشون حيث قال:

يأيها السائل عن غربنا ... وعن محل الكفر أشير
عن دار فسق ظالم أهلها ... قد شيدت للإفك والزور
أسسها الملعون زيريها ... فلعنة الله على زيزي

والحقيقة أنه اشتبه عليهم ما زاده بلكين من الإصلاحات والربض و (القصبة) وقد روى ابن الأثير أن بلكين لما غزا تاهرت وتلمسان التي حاصرها خرج إليه أهلها، فعفا عنهم إلَّا أنه نقلهم إلى مدينة أشير، فبنوا عندها مدينة سموها تلمسان ثم قال في موضع آخر: (ذهب بهم إلى أشير، فاستهوته ناحية بها عيون جارية، تسقي بها أرضها، فأسس مدينة أشير، وبقي معهم وذلك سنة ٣٦٤هـ).

وقد تحققت هذه النظرية وزال اللبس عندما اكتشف الأثريون أخيرًا، آثار الحصن الذي بناه زيري، أول الأمر لما كان رئيس عصابة ويسمى (بعش العقاب) ثم اكتشفوا أسفال منه، وبقربه، حصنًا ثانيًا محاطًا بآثار قرية متوسطة، وهو مدينة أشير، التي بناها زيري بعدما اتصل بالفاطميين واعترفوا له برياسة قومه وهي ما يعرف الآن بأشير، وبالقرب منه بنحو الميل آثار مدينة مسورة، داخل سورها عيون جارية، وآثار بناءات متعددة، كانت تعرف قبل استقلال البلاد (ببنية) وهي أشير بلكين اختار بلكين الإقامة بأشير طيلة مدة حكمه، ولم تستهوه قصور الفاطميين برقادة، وصبرة، والمهدية، إذ كان بقدر اهتمامه بالقيام بواجباته كخليفة، و ممثل لأعظم دولة عرفها التاريخ، كان يحافظ على زعامة عشيرته، التي يرى أنه مدين لها قبل كل أحد، بما وصل إليه، إذ كان شعاره

الذي يتجلى على تصرفاته، أنه (ليس من الأمراء الذين يولون بكتاب) أو (يعزلون به) وقد صرح بذلك حفيده المعز بن باديس علانية، لوفد القيروان الذي زاره باشير وقال له: (لا أشكر على هذا الملك إلَّا الله تعالى، وليست ممن يولي بكتاب، أو يعزل بكتاب، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي وهم ورثوه عن آبائهم وأجدادهم).

اهتم بلكين طيلة مدة حكمه بشئون قبيلته فحافظ على تضامنها، تماسكها، كما أنه بنى صرح الدولة وركزه على قواعد متينة، لم يستهوه نعيم الملك، ولا نشوة الانتصارات المتتابعة على أعدائه، فيخلد ككثير من الملوك والسلاطين إلى حياة الرفاهية والمتعة، بل ضرب عنها صفحات وداوم على سيرة نشأته الأولى متقشفًا زاهدًا، وقضى معظم أوقاته على صهوة جواده، يجوب الفيافي والقفار ويقاسم جيشه مرارة الحياة وحلوها (يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون) لا يستبد عليهم برأي ولا يقطع أمر من أمور الدولة أو القبيلة إلَّا بعد مشاورتهم وموافقتهم وأدركه الموت وهو في وسطهم بعد ما قضى معهم خمس سنوات في صراع مرير، مليء بالمفاجآت، بعيدًا عن أهله.

أما سيرته وعلاقته من الدولة المركزية فإنه كذلك كان يراعي في تصرفاته ما يوجبه عليه منصب ممثل الخليفة الملتزم للتبعية الروحية، الوفي المطيع لمن وضعوا فيه ثقتهم، وبقدر ما كان يتسامع ويتغافل عند ما تتدخل الخلافة الفاطمية في شئون دولته، كان يتصلب ويثورا أن وصلت هذه التدخلات إلى الأمور الجوهرية، التي تمس مصلحة دولته، أو شرف منصبه ومع هذا نجده يختار حلول اللين والحكمة، من ذلك أنه لما مات المعز لدين الله وخلفه ولده العزيز الذي كان يتتبع بمزيد الحذر تطور حالة بلكين ونمو دولته، بما زاده فيها بعد توغله في فتوحات بلاد المغرب الأقصى، كاتبه ليرسل إليه ألف فارس مع

قادتها الذين عينهم بأسمائهم واحدًا واحدًا، أدرك بلكين مقصد الخليفة، فأجابه بجواب له مغزاه وأثره، إذ قال له:

(إن وجودي كل هذه المدة بـالمغرب، سببه أن ملـك الأنـدلس ولى أمـراء مغراوة وزناتة تحت قيادة جعفر بن علي (قاتل أبيه) على بلاد المغرب، واستولوا على كثير من الجهات التي كانت تابعة لنا، وقد تتبعتهم وفرقت جموعهم.

أن جُلَّ قادة الجيش الذين ذكرتهم، وأمرتني بإرسالهم، هم عمـدتي في هـذه الغزاة، فإن كانت مصلحة الدولة تقتضي إرسالهم ولا بد فإني سـأرافقهم، إذ لا فائدة في بقائي بعدهم).

ثم واصل غزوته من دون التفات إلى أوامر الخليفة، كـما بـرهن أنـه لم يكـن هدفه طيلة المدة التي قضاها بالمغرب، الانتقام الشخصي من جعفر (قاتـل أبيـه) إذ إنه لما قتلـه المنـصور بـن أبي عـامر الـذي كـان يـشرف عـلى المغـرب إذ ذاك لأسباب، وبعث رأسه إلى بلكين (استرضاء كما عبر عن ذلك صـاحب (البيـان المغرب) لم يكترث به ولم يعره أدنى التفات).

أمكن بلكين في هذه الغزوة التي لم يكن فيها معه إلَّا سـتة آلاف فـارس، أن يسترد جميع الجهات التي احتلها أمراء مغراوة وزناتة، بإعانـة ملـك الأنـدلس، وقد ألجأ بقيتهم إلى التحصن بسبتة، واستغاثتهم بملك الأندلس الـذي أرسـل إليهم مددًا ضخمًا، وجنَّد لأغاثتهم جميع مجاهـدي زناتـة ومغـراوة المـرابطين في ثغر الأندلس، وعين لهم أعظم وأشهر قادة المملكة الأندلسية وهو المنصور ابـن أبي عامر، وصف هذا المعسكر ابن حيان فقال: (وجاء بلكين في بعض الأيام في جريدة من خيله حتى أشرف على معسكرهم أعلى جبل النور المطل عـلى سبتة، فعاين من معظم عسكري (أي: المنصور بن أبي عامر) واتصال مـدد الأنـدلس

وابيضاض مجراهم بانتظام الشرع من تلقائهم، ما هاله، فأسر ذلك في نفسه، ثم انصرف للتشاور مع أصحابه فقال له أحدهم: (أرى أن تنصرف عن القوم فقد أقمتهم بين البحر والسيف، ولا مهرب منها، فسيقاتل كل منهم، قتالًا مستميتًا، وخلفك من قبائلهم، وعشائرهم، من قد طويت الديار دونه، فإن انكسر أطبقوا عليك، فعسر تخلصك، وإن ظهرت فبعد صبر، يذهب فيه من يعز فقده من رجالك، ولا يسد موضعه فأطرق (بلكين) طويلًا، ثم دعا بالسيف فضرب عنقه، وقال: (خشيت أن يشيع رأيه في زناتة فتأخذ به وكرهت مع ذلك حياة مثله).

كان بلكين أشد ما يمقت، المثبطين، وقدر روى ابن خلدون هذه الأحداث بمزيد من التفصيل، والتوضيح ولا يسعنا تتبعها.

دامت غزوة بلكين في المغرب خمس سنوات متواصلة حتى إن بريد الخلافة كان يصل إليه رأسًا إلى المغرب، ثم يرسل إلى القيروان (قيل: من سنة ٣٦٨ إلى ٣٧٣ أو من سنة ٣٦٧ إلى ٣٧٢) وعلى كل حال فقد توفي في طريق رجوعه منها بين سجلماسة وتلمسان، لأسباب يطول ذكرها.

نقتصر على هذا القدر من حياة هذا البطل الذي خلّد له التاريخ صفحات العظمة، والمجد والخلود، وجعله في مقدمة مصاف أبطال العالم، وبناة الدول ولا زال كبار المؤرخين والباحثين يخصونه الدراسات القيمة ويرى الكثير منهم، أنه من أعظم الملوك والأبطال، وأن دولته أعظم الدول البربرية الإسلامية.

وقبل أن نواصل الحديث عن مآثره، خصوصًا البلدان التي أحدثها، وأسسها في عهد والده: الجزائر، والمدية، ومليانة سأذكر باختصار تطور حالة

المملكة بعد وفاته التي انقسمت إلى دولتين، ثم أتحدث عن قطع الصلة بين أحفاده وبين الخلفاء الفاطميين بالقاهرة.

المنصور بن بلكين

خلف المنصور والده، إذ عينه في قيد حياته واليًا لعهده وأقره الخليفة العزيز الفاطمي على هذا التعيين، ولقبه، على عادتهم بعدة ألقاب: (أبا الفتح المنصور) (وعدة العزيز بالله) إلَّا أن هذا الالتفات، والتقدير، لم يمنعاه من تتبع مناوراته أو (الافتزاز والكيد) حسب تعبير بعض المؤرخين التي بدأها مع والده بلكين، إذ بمجرد ما نصب المنصور، بعث الخليفة أحد كبار قواده، باتفاق مع عامل القيروان إلى قبيلة كتامة ليهيئها للتمرد، والثورة على المنصور، حيث كانوا رغم ما وقع بينهم وبين الخلفاء الفاطميين إثر إعدامهم لأبي عبد الله الشيعي، يرون أنهم أحق وأسبق من بلكين في منصب الخلافة بإفريقية، كان القائد الموفد من طرف الخليفة العزيز، هو أبو الفهم الخراساني الشيعي وكانت مهمته محاطة بالتستر والكتمان، وقد نجح فعلًا حيث أمكنه أن يكوِّن جيشًا كامل العدة وقوي تسيير شئون كتمة، وضرب السكة باسمه إلخ، فلما بلغ الخبر إلى المنصور أعلم بدوره الخليفة العزيز، الذي أرسل إليه رسولين حملا معهما رسالة يأمره فيها بأن لا يتعرض بسوء إلى أبي الفهم الثائر ولا إلى قبيلة كتامة، وإلا فإنه سيقاد مكبلًا من عنقه إلى القاهرة، أمام هذه الوقاحة والتحدي جهز المنصور جيشه وقاد معه الرسولين وقصد كتامة بميلة (مركزهم الحربي الرئيسي إذ ذاك)، فهدم سورها واحتلها ثم لحق بجيش كتامة فكانت الملاقات قرب سطيف فهزم جيشهم، وألقى القبض على القائد أبي الفهم فأعدمه، ثم قدم جثته (للعبيد) (فشرحوا لحمه وأكلوه) على ما ذكره جل المؤرخين، وكان ذلك بمحضر الرسولين اللذين أوصاهما بأن يبلغا للخليفة ما شهداه.

وموقف العزيز من المنصور في هذه الأحداث أنه كان يتيقن نجاح أبي الفهم في مهمته وأنه أمكنه أن يسيطر على الموقف حيث أطاعه أفراد القبيلة والتفوا حوله، كما أطاعوا داعيتهم السابق أبا عبد الله الشيعي، إلَّا أن التاريخ لا يعيد نفسه في كثير من الأحيان، وبنو زيري يختلفون كثيرًا عن الأغالبة، ثم ذهب المنصور إلى القيروان فعزل عاملهم عبد الله بن الكاتب وكل من ساعده من الإطارات في قرية أبي الفهم وأقام بالقيروان بدلًا من أشير التي صارت من ذلك العهد العاصمة الثانية للدولة.

إن إقامة المنصور بالقيروان أمكنه من القبض علي زمام شئون الدولة وتسييرها بعد تطهيرها من جميع العناصر الموالية للعزيز الفاطمي، أفلتت من يده زمام قيادة العشيرة، وكانت النتيجة أن تآمر عليه بعض أعمامه وإخوته ، وقد تغلب على إخماد نار ثورتهم، بفضل إعانة أخيه حماد الذي استعمل في قمعهم منتهى الصرامة، حتي أنه لما قتل أحد أخوته المتمردين، قدَّم جثته (للكلاب) بدلًا من (العبيد) فكان جزاؤه أن عقد له المنصور على ولاية أشير وتاهرت ، مات المنصور سنة ٣٨٥هـ وخلفه ولده باديس.

باديس بن المنصور بن بلكين

لما خلف باديس والده، أقر عمه حمادًا على ولايته وفي عهده رجع إلى الجزائر زيري بن عطية المغراوي أمير المغرب، بعد أن خلف أحد أقاربه، رجع زيري لأخذ ثأره من صنهاجة الذين قضوا على دولتهم، وقد أعانه على ذلك ملك الأندلس، فنزل بتنس، وأمكنه أن يحتل تلمسان فعندئذٍ جهز باديس جيشه وجعله تحت قيادة عمه حماد، فخاض معه معركة بوادي مينا قرب تاهرت، كان الحظ في صالح زيري بن عطية الذي ألجأ حمادًا إلى التحصن بأشير

مدة، وحاصره بها، إلى أن اشتد عليه المرض، أثر الجروح التي أصابته في مختلف الحروب التي خاضها بالمغرب والأندلس والجزائر، فتوفي عند منصرفه سنة ٣٩٠هـ في أثناء هذا الحصار فكر حماد في تعزيز حصن أشير بحصن قريب من مواطن زناتة فكان اختياره لحصن جبل كيانة[1] الذي صار فيما بعد (قلعة بني حماد).

أسس حماد (قلعة) سنة ٣٩٨هـ بإعانة ابن أخيه باديس واختار لها موضع جبل كيانة الذي سبق أن لقي فيه حتفه أبو يزيد الخارجي سنة ٣٣٦هـ وحتى عرف بحصن أبي يزيد، وهو سفح الجبل وقد بني على أنقاض حصن قديم من عهد الرومان.

كانت القلعة في أول عهدها حصنًا حربيًّا ثم استحالت في عهد أولاد حماد وأحفاده عاصمة ممتازة كانت علائق باديس بعمه حماد حسنه جدًّا حيث جدد له ثقة أبيه المنصور وأقره على ولاية أشير وتاهرت وأعانه على تأسيس (القلعة) وتوسيع الإمارة بما ضمه إليها بعد موت عطية بن زيري المغراوي، كما عينه خليفته وممثله بالقطاع الغربي كله ولما عين باديس أحد أولاده وليًّا لعهده (على العادة المتبعة إذ ذاك) ووافقه على هذا التعيين الخليفة الفاطمي، لم يرض ذلك أفراد الأسرة، الذين ثاروا على باديس، وكان في مقدمتهم هذه المرة حماد، أعلن حماد ثورته على الخليفة الفاطمي وعلى باديس في آن واحد، فخلع طاعة الفاطميين وانتقم من أنصارهم وأمر خطباء ولايته بلعنهم، ثم اتصل بالخليفة العباسي وقدم له ولاءه، وبادله الرسائل وصار خطباء مساجد الإمارة يدعون

(١) جبل كيانة كثيرًا ما يسمونه جبل كتامة وهو غلط كما هو موجود في تاريخ ابن خلدون طبعة بولاق وديوان ابن هانئ وكذلك نجد (جاكانة) يذكره بعض الكتاب (تلكانة) مقلدين في ذلك المصادر الفرنسية.

للخليفة العباسي بعد لعن الخليفة الفاطمي (ذكر المؤرخون أن هذه الرواية انفرد بها ابن خلدون دون بقية مؤرخي هذه الفترة الكثيرين).

أما إعلانه الثورة على ابن أخيه باديس فقد كان رد فعلها ورود باديس على رأس جيشه واحتلاله لأشير ثم حصار حماد بالقلعة، وفي أثناء الحصار مات باديس فجأة، فمر الخطر الذي كان يهدد إمارة حماد، إذ قيل: إن حمادًا كان على وشك الاستسلام.

احتفظ حماد بإمارة القلعة وسجل التاريخ انقسام دولة بني زيري التي كونها بلكين إلى قسمين من ذلك العهد أي من سنة ٤٠٦هـ.

انقسمت مملكة بني زيري، فكان قسمها الشرقي وقاعدته القيروان، يتداول على حكمه بنو باديس، والقسم الغربي وقاعدته (قلعة بني حماد) ثم بجاية، يتوارثه بنو حماد، مات باديس سنة ٤٠٦ وخلفه ولده المعز ابن باديس.

المعز بن باديس

عندما تولى كان عمره ثمان سنوات وكفلته أمه (فنجحت باتفاق جل المؤرخين)، سار المعز بن باديس على سنن سلفه، وفي عهده قطع الصلة نهائيًّا بالفاطميين وذلك سنة ٤٣٣هـ أي في عهد الخليفة أبي تميم بعد المستنصر بالله وكانت نهاية هذه الصلة خطبة عيد النحر، بجامع القيروان لما لعن الخطيب الخلفاء الفاطميين من أعلى المنبر وقال: (اللهم العن الفسقة الكفار والمارقين والفجار، أعداء الدين وأنصار الشيطان) وختمها بالدعاء للخليفة العباسي، ثم أمر بضرب السكة وقد عثر على دينار ذهبي يرجع إلى ذلك العهد بمتحف

برلين[1] مؤرخ في سنة ٤٣٣هـ كما أمر العز كبار الدولة باستبدال ثيابه البيضاء، باللباس الأسود في المواكب الرسمية وإحراق بنود الفاطميين مما هو مذكور بتفصيل في كتب التاريخ المتداولة.

وهكذا انتهت التبعية الثقيلة، التي ألتزم بها بنو زيري للخلفاء الفاطميين وحافظوا عليها طيلة سبعين سنة، كانت هذه النهاية نتيجة حتمية، منتظرة برهنت على أن وسائل القمع والضغط التي استعملها الخليفة أبو القاسم القائم بأمر الله لفرض مذهب الشيعة لم تؤت ثمرتها المرجوة، كان أول رد فعل ثورة أبي يزيد التي أمكنه أن يخفي شخصيته ومذهبه في بدايتها فجلب جُلَّ السكان خصوصًا الفقهاء المالكيين الذين كانوا يتزعمون المعارضة ومقاومة المذهب الشيعي منذ ظهوره نجح أبو يزيد في ثورته التي ظهر فيها بمظهر المؤمن الصالح فاتبعها جميع عناصر السكان بقطع النظر عن خلافاتهم المذهبية وكان ختامها حصار المهدية الذي أشرف فيه الفاطميون على الاستسلام، ولولا مدد زيري بن مناد ومواقف جيشه الباسل الذي أنقذهم.

نجحت ثورة أبي يزيد ولو لقي فيها حتفه إذا استمرت المقاومة، وتوالت الانتفاضات التي كانت تجتاح البلاد المرة بعد المرة، في مختلف الجهات وهي وإن كانت تختلف قوة وضعفًا فقد وصلت إلى نهايتها حيث قاطع السكان صلاة الجمعة بالمساجد الرئيسية التي كان الخطباء يدعون فيها للخلفاء الفاطميين، ومقاطعة صلاة الجمعة في ذلك العهد لها وزنها، وقد خصص هذا الحادث أي ثورة السكان ورفضهم للمذهب الشيعي بعدة تآليف.

---

(١) ذكر هذه الرواية الناصري في الاستقصا.

بلكين ومآثره

أسس بلكين في عهد والده وبأمر منه مدن الجزائر لمدية ومليانة، قال المؤرخ أبو راس[1] الناصري في حديثه عن زيري بن مناد: (واختط ابنه بلكين بأمره الجزائر في وسط القرن الرابع وكانت قبل فيها اخصاص يسكنها بنو مزغنة وكذلك اختط بلكين مليانة في خمس وخمسين من الرابع بإذن من أبيه أيضًا، ولمدية في ذلك التاريخ أيضًا وهذه المدن التي بنتها ملوك صنهاجة من أعظم مدن المغرب لهذا العهد).

وقال ابن خلدون: (وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط) وقد علمنا أن بني مزغنة بطن من بطون صنهاجة كان موطنهم بالجزائر وضواحيها، ولا زالت قبيلة تحمل هذا الاسم بنواحي طابلات تبعد عن الجزائر بنحو ٦٠كلم وكانت بعض المزارع بسهول متيجة تسمى (أحواش مزغنة) قبل الاحتلال الفرنسي كانوا يتقاسمون حكم الجزائر ومتيجة مع إخوانهم الصنهاجية (بني خليل) وبني جعد (إلى أن اكتسحت قبيلة الثعالبة العربية في أوائل القرن السادس متيجة، بقيت ضواحي الجزائر تحتفظ إلى الآن ببقايا قبيلة (بني خليل) (وبني جعد) و (حد صنهاجة) قرب مدينة الأخضرية بولاية تيزي وزو.

كان موقع (جزائر بني مزغنة) على ما حققه الأثريون في سفح القصبة أي: ساحة الشهداء والجامع الأعظم المالكي إذ بنيت القرية على أنقاض المدينة الفنيقية التي أسسها هرقل الليبي وأصحابه العشرون فردًا وسميت

---

(١) محمد أبو راس الناصري ١١٦٥-١٢٣٧هـ مؤرخ له عدة تأليف منها (عجائب الأسفار).

(أيكوسيوم) الذي يدل باليونانية على عدد عشرين إشارة إلى بناتها كما ذكر ذلك المؤرخ اللتيني صولان (المتوفى في القرن الثالث بعد المسيح) وقد وصفها الاصطخري في أوائل القرن الرابع فقال: (وجزائر بني مزغنة مدينة عامرة، يحف بها طوائف من البربر، وهي من الخصب والسعة على غاية ما تكون المدن كما وصفها ابن حوقل عندما زارها في عهدِ بلكين أي: حوالي سنة ٣٦٧هـ) فقال: (وجزائر بني مزغنة مدينة عليها سور في نحر البحر، وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة، وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة وأكثرهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز إلى القيروان وغيرها ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجئوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن يقصد بالجزيرة (برج الفنار) المشهور عند الأوربيين باسم بينون) Penion وعرفها البكري وتعريفه عام شامل حيث ذكر بتفصيل بعض الآثار القديمة التي بقيت تحتفظ بها ولم يتعرض لها من عرفها قبله فقال: (قديمة البنيان، فيها آثار للأول وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب قد فرش بحجارة ملونة صغار، مثل: الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمن، ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي بها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص، كثير النقوش والصور، أي: اتخذت ساحتها مصلى للعيدين).

وقال ابن خميس فيما نقله المؤرخ أبو راس وكان ذلك في أواخر القرن الرابع (أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين وهران خزر، وجزائر بلكين، كانت تنسب

لبلكين إذ ولاه أبوه نائبًا عنه بولايتها حيث كانت قاعدة ولاية بني مزغنة ذكر (صاحب البيان المغرب) أن أميرها حمزة بن إبراهيم (صاحب جزائر بني مزغنة) كان من جملة زوار الملك الناصر بقرطبة سنة ٣٣٧هـ كانت مدينة الجزائر تابعة (للقلعة) ثم لبجاية بعد ما انقسمت دولة بني زيري، إلى عهد الموحدين وفي أواخر القرن الخامس عندما هاجم الملك يوسف بن تاشفين اللمتوني الجزائر وحاصر أشير -وقيل: احتلها- رد هجومه المنصور بن الناصر الحمادي إلى أن وصل إلى تلمسان التي ترك يوسف بن تاشفين قريبه تاشفين بن محمد عاملًا عليها، ولما احتل المنصور تلمسان وشرع جيشه في نهب المدينة خرجت إليه زوج العامل المذكور، وذكرته بأواصر القربى الصنهاجية فأمر المنصور جيشه بالكف عن النهب والخروج من المدينة وكان هذا سبب رجوعه من متابعة يوسف بن تاشفين الذي سبق لأحد أفراد ملوك بني حماد محاربته في أول عهده حتى احتل فاس، وهو بلكين بن محمد الذي خلفه الناصر بن علناس مؤسس الدولة.

بقيت الجزائر تابعة لبجاية طيلة مدة تداول حكم الموحدين وبعد انحلال الدولة، كانت تارة تخضع لبني زيان، وتارة لبني حفص ثم لأمراء مازونة من بني منديل لما أحيوا إمارة مغراوة في أواخر القرن السادس، ثم لبني غانية وكانت قبيلة الثعالبة التي استوطنت متيجة وأجلت منها قبائل صنهاجة هي التي تحكمها عند احتلال الأتراك أي: الأخوين عروج وخير الدين.

والحديث عن احتلال هذين الأخوين لعاصمة الجزائر المرتبط بتأسيس دولة الأتراك بالجزائر، واتخاذها عاصمة تعرض له الباحثون منذ قرون، ولا زال لم ينضب معينه، ومع هذا بقيت بعض الجوانب كثيرًا ما تحتاج إلى إثارتها لإنارة بعض الباحثين وتذكيرهم، وتصحيح بعض الأخطاء منها أن عروج

وخير الدين احتلا الجزائر بطلب من أهلها ورضاهم؛ ولهذا قوبلا بالحفاوة والأفراح مقابلة أخوة مسلمين جاءوا لإنقاذه من خطر الصليبية، التي انتقلت حروبها من المشرق إلى المغرب ولنقتصر على تصحيح هذا الرأي، بروايات بعض المؤرخين المعاصرين لهذا الاحتلال، قال ابن عسكر في (دوحة الناشر) في ترجمة الزعيم الشهير أحمد بن القاضي الزواوي رئيس القبائل الكبرى بجبل كوكو قال: (وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيطانهم عليها وعلى المغرب الأوسط إلى الآن، لحسن ظنه بهم ومحبته الجهاد في سبيل الله)، وقال صاحب الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة، بعد أن حقق أن احتلال عروج وخير الدين لعاصمة الجزائر كان سنة ٩٢٥هـ وأن أهلها أرسلوا إلى عروج وأخيه وهما بجيجل رسالة من جملة ما قالوا فيها: (أخذتم بجاية وجيجل من أيدي النصارى، ونصرتم الدين فهنيئًا لكم أيها المجاهدون، ولا بد أن تقدموا إلينا لتخلصونا من أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة؛ لأننا في محنة عظيمة وذل شديد) وهناك وثائق تدل على أن عروج اتصل ببعض الشخصيات الدينية عندما كان يدخل بعض قرى الشواطئ متنكرًا، ونجد أثر ذلك في قصيدة الشيخ التواتي التي خاطب بها سكان وهران، حذرهم قبل احتلال الإسبانيين للمدينة، وقال فيها:

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلدتكم من قبل أن تتردى

وقال:

ولا يحمي مرساكم ضعاف ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة

فإن لهم بالطعن والضرب خبرة ... وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة

قال صاحب (الثغر الجماني)[1] يقصد بأهل الجزيرة عروج وأخاه وقد وصف صاحب (الثغر الجماني) هذه مدينة الجزائر في عهد الأتراك فقال: هي اليوم قاعدة ملك الأمراء العثمانيين في المغرب الأوسط كانت تعرف بقلعة بني مزغنة وهم من طوائف صنهاجة وحصنوها أتم تحصين، وأحاطوا بها من جميع جهاتها الأسوار المنيعة والأبراج الهائلة وأناطوا بها المدافع الضخمة فهي الآن بحيث لا تنال، ولا يطمع في أخذها إلا من يطمع في المحال.

استحالت الجزائر في عهد الأتراك إلى عاصمة المملكة وخططت حدودها التي بقيت إلى عهد الاحتلال الفرنسي، كما نظمت الإدارة رغم توالي وتسلسل هجومات الصليبيين، التي باءت كلها بالفشل طيلة ثلاثة قرون، عززت الجزائر مركزها بعد أن انضمت إلى الخلافة العثمانية، فحصلت على اطمئنان السكان، ورضاهم وتأييدهم، بلغت قواتها البرية والبحرية وهيمنتها على حوض البحر الأبيض ما خصص له المؤلفون على اختلاف أجناسهم مئات التآليف، وعلى سبيل المثال وتتميمًا لموضوع بحثنا نذكر أن غنائم الأسطول الجزائري بلغ في مدة ثمان سنوات أي: من سنة ١٦١٣ إلى ١٦٢١م:

٤٤٧ سفينة هولاندية
١٩٣ سفينة فرنسية
١٢٠ سفينة إسبانية
٦٠ سفينة إنكليزية
٥٦ سفينة ألمانية

زيادة على ما أضاعوه في البحر وفي شواطئ إسبانيا وجزر ميورقة وقد ألف

(١) لأحمد أبي سحنون الراشدي، طبع تحت إشراف وزارة التربية والتعليم الأصلي والشئون الدينية وبتحقيق الأستاذ المهدي البوعبدلي، قسنطينة الجزائر سنة ١٩٧٣م.

صاحب (الزهرة النائرة) المذكورة تأليفه لتسجيل هجوم القائد الشهير دوري Doria الإسباني سنة ١١٨٩هـ الذي حضره المؤلف وهو مشهور عند الجزائريين بواقعة الحراش، وبهذه المناسبة سجَّل معظم الهجومات التي سبقته كما تعرض لإحصاء هذه الهجومات صاحب (الثغر الجماني) وغيرهما من المؤرخين وقد امتازت جل هذه الروايات بعدم المبالغة حيث نجدها كثيرًا ما تتفق مع روايات المؤرخين الإسبانيين والفرنسيين.

ولم تكن الجزائر في الميدان العلمي الحضاري بأقل منها في الميدان الحربي، إذ كان ريع أحباسها وافرًا ضخمًا ساعدها على تشجيع الثقافة ونشرها، وصف الجزائر في عهدها التركي كثير من الرحالين والسفراء والتجار والقسيسين والأسرى وهاجر منها كثير من العلماء والأدباء إلى المشرق والمغرب وتبادلوا التآليف والإجازات مع علماء القطرين الشقيقين المغرب وتونس، ونفس المواد التي كانت تُدرس ببعض معاهد الجزائر هي نفس مواد الدراسة بجامعتي القرويين والزيتونة ولهذا لا نوافق من صوروا الجزائر في ذلك العهد بصورة تتنافى مع الواقع ونلفت نظر المستمعين الذين يهمهم الاطلاع على تفاصيل بعض ما ذكرناه خصوصًا في وفرة ريع الأحباس والتقدم الحضاري المتجلي في الفن المعماري أن يطلعوا على التآليف الخاص بالأحباس والمعاهد لدفولكس المسمى، المعاهد الدينية بالجزائر وكتاب (ورقات الجزائر) لكلان سجل فيه صاحبه تاريخ بعض المساجد والقصور.

وكان تاريخ جامع كتشاوة الشهير لفت أنظار الباحثين بعد الاستقلال واسترجاعه.

وإنني نظرًا لضيق المجال فإنني خصصته ببحث مستقل.

المدية

ومن مآثر بلكين مدينة المدية، كما ضبطها ابن خلدون وهي كبقية مآثر بلكين ووالده قبله، مركز حربي، لم تشتهر كمدينة لها أهمية إلَّا بعد ستة قرون أي: في العهد التركي حيث اتخذت قاعدة لباي الولاية، أما قبل، فإنها كانت قلعة حربية ضمن أربع قلاع[1] تابعة لإمارة بني توجين، تلك الإمارة التي تكونت في عهد باديس حفيد بلكين، وفي نفس الظروف التي تكونت فيها إمارة بني زيري، تقدم لنا أن حمادًا لما شق عصا الطاعة على ابن أخيه باديس، وحاصره هذا الأخير بالقلعة حصارًا طويلًا مات أثناءه، أعانه بنو توجين فراعى لهم هذه الإعانة وأقطع لهم هذه الإمارة التي صارت تعرف بإمارة بني توجين تارة، وبإمارة وانشريس مرة أخرى، وقد عرفها الإدريسي بمزيد من التفصيل لعبت هذه الإمارة أدوارًا هامة في التاريخ وحظيت بشهرة لم تحظ بها كثيرٌ من الدول، ففي إحدى قلاعها اختار ابن خلدون التفرغ والإقامة لتأليف كتابه المشهور، كما نزل بها وأقام مدة الإمام المهدي بن تومرت في طريق رجوعه من ملالة إلى المغرب وفيها تعرف بالقائد الشهير عبد الله بن محسن الوانشريسي المكنى بالبشير، ورافقهم إلى المغرب وقد عينه الإمام قائد جيشه عندما تكونت دولة الموحدين، وعدوا في مجلس العشرة، وقد استشهد في حروبهم الأولى مع المرابطين بالمغرب في عهد ابن تومرت كما ساهم جيش من هذه الإمارة في الدفاع عن تونس لما حاصرها ملك فرنسا الصليبي Louis saint وكان قائد جيش وانشريس صهر المستنصر بالله الحفصي هو أحد الأفراد الثلاثة الذين حضروا إبرام معاهدة الصلح سنة ٦٦٩، كانت قبيلة حصين العربية هي التي

---

(١) القلاع الأخرى هي: تاقدمت قاعدة الإمارة وتاوغزوت المشهورة بقلعة ابن سلامة وتافرقينة.

استوطنت ناحية المدية منذ فارقها الثعالبة ولا زال أفراد هذه القبيلة بتلك النواحي إلى زمننا هذا.

مليانة

ومن مآثر بلكين، مليانة التي أسست قرب حي روماني يحمل هذا الاسم، وقد أسسها بلكين في القمة المحللة على قبيلة واريفان مركز ومسقط رأس الطبقة الأولى من أمراء مغراوة -بني خزر- وقد استفادت مليانة من موقعها الجغرافي الذي خلد اسمها، إذ كانت من المحطات الشهيرة في طريق الجزائر والمغرب ولهذا نجد ذكرها ووصفها عند معظم الرحالين منهم الأديب أبو علي الحسن بن لفكون القسنطيني في رحلته الشهيرة التي قال فيها:

وفي أرض الجزائر هام قلبي بمعسول المراشف كوثري

وفي مليانة قد ذبت شوقًا بلين العطف والقلب القسي

وفي تنس نسيت جميل صبري وهمت بكل ذي وجه وضي

بقيت مليانة تابعة للجزائر إلى العهد التركي فنالت حظوة ورحل إليها كثير من العلماء فأسسوا المعاهد وتركوا عدة تأليف منهم ابن لفكون القسنطيني[1].

الخلاصة

والخلاصة أن تاريخ دولة بني زيري مرتبط بتاريخ البلاد السياسي والثقافي، والاقتصادي، إذ في عهدها ظهرت العاصمتان العلميتان (قلعة بني

---

(١) كان من أدباء أواخر القرن السادس وقد ذهب من قسنطينة، مسقط رأسه إلى مراكش عند خلفاء بني عبد المؤمن فنظم رحلته وكتب إما الخلود حيث أثبتها جل مؤرخي الآداب العربية ومنهم المقري في (نفح الطيب).

حماد وبجاية) اللتان كانتا من أشهر وأرقى عواصم العالم خصوصًا بعد خراب القيروان وصقلية وانحلال دولة بني أمية بالأندلس، وكانت مكانتها الاقتصادية ممتازة، وصف الإدريس بجاية في عهدة بقوله: (وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برًّا وبحرًا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير، تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود، وتباع البضائع، بالأموال المقنطرة... وبها دار صنعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن... وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة إلخ).

وقد علمنا أن أسطول الدولة الذي أنشأه بلكين ابتداء من سنة ٣٦٥ بلغ في عهد المعز بن باديس مائتي قطعة سنة ٤٣٩ لما عزا البزنطيين باصطنبول ومدينة القلعة وإن كانت كما قال فيها الحموي في معجم البلدان بعد أن شبهها بقلعة أنطاكية) وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن، إنَّما اختطتها حماد للتحصن والامتناع) شاءت الأقدار أن تتمصر وترث القيروان وصقلية بعد تسرب الخراب إليهما، وقد وصفها ابن خلدون بقوله: (فاستبحرت العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع إلخ).

وقال البكري: (أصبحت مصدر التجار، وبها تحل الرحال، من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب) وقد خلد الأدباء والشعراء وصف قصورها ومساجدها بعد خرابها ومنهم المؤرخ الشهير أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي صاحب كتاب (النبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة) وهو من سلالة حماد مؤسس القلعة كما خلد وصف قصور بجاية ابن حمديس الصقلي.

كانت الحياة الاقتصادية مزدهرة بفضل العلائق التجارية التي كانت تربط هذه الدول بدول العالم برًّا وبحرًا، فإن جل الرحالين الذين زاروها متفقون على تقدمها في الميدان الاقتصادي وعلى استغلال سكانها للزراعة وتربية المواشي والصناعة وأن معظم أراضي الجنوب التي نراها اليوم مراعي قاحلة كانت تنتج جميع أنواع الفواكه والخضر والحبوب وعلى سبيل المثال تذكر أن المسيلة ونقاوس وطبنة كانت تنتج القطن الجيد وكانت مجانة تنتج الزعفران وذكر اليعقوبي: أنها كانت تحتوي على معادن الفضة والحديد والرصاص كما كان بالبلاد معامل لصنع أنواع الزجاج الجيد والخزف ونحت الحجارة والخشب والمرمر والدباغة وتسفير الكتب وتذهيبها وقد بلغت منتهى الجودة والشهرة كما كانت القالة تصدر المرجان الأحمر إلى كثير من البلدان ومنها المحيط الهندي إذ لم يكن في العالم إذ ذاك إلّا المرجان الأبيض لهذا كله لا نستغرب عند ما نطلع على الرفاهية التي وصل إليها السكان حينئذٍ وبلغ ثمن العمامة ستمائة دينار كما ذكر صاحب (الاستبصار).

ومما يؤيد ما ذكرنا هو ما تعرض إليه كتاب (الإسلام في عظمة الألى بين القرن الثامن والحادي عشر) لموريس فبعد أن ذكر أن محور الاقتصاد Mourice Lember لومبار العالمي فقدته أوربا بعد سقوط روما وورثه المسلمون بعد الفتوحات قال: (ففي الشرق الإسلامي كانت توجد المراكز الحيوية للحياة الاقتصادية والثقافية، وأما الغرب فكان فارغًا حيويته الاقتصادية بعد سقوط روما).

ثم يذكر بلاد البربر فيقول: إنهم كانوا يمتازون بعد دخولهم في الإسلام بقوتين لها أهمية.

أولًا: الطاقة البشرية التي كان لها الفضل والدور الحاسم في الفتوحات الأولى بالأندلس وصقلية وحتى مصر في عهد الفاطميين وخصوصًا الصحراء والسودان.

ثانيًا: استحواذ الجزائر واحتكارها لتجارة السودان خصوصًا استحواذها على طريق الذهب التي كانت أهم مواردها والكتاب الذي طبع منذ سنة بباريس قيم في بابه إذ أثبت أن الإسلام اهتم كثيرًا في أول عهده بتنظيم الاقتصاد العالمي ولم يكتف أو يقتصر على نشر الدعوة فقط بل كان القيام بالدعوة الإسلامية يتماشى مع النظام الاقتصادي جنبًا لجنب، أو قدمًا بقدم.

بقي لنا أن نضيف إلى مآثر هذه الدولة امتدادها إلى الأندلس حيث لجأ إليها بعض أفرادها من إخوة بلوغين بعد ثورتهم على المنصور بن بلوغين وقد قمعهم حماد وقتل منهم أخاه ماكسن فحينئذٍ هاجر أخوه زاوي ابن زيري ابن مناد وأبناء ماكسن إلى الأندلس لخبر يطول وساعدهم القدر فأسسوا أعظم دولة عندما انهارت الدولة الأموية وظهرت دول ملوك الطوائف فكان نصيبهم بلاد البيرة وغرناطة وجيان ومالقة والمنكب وهم الذي مصروا مدينة غرناطة وأسسوا بها القصور وكان آخر ملوكهم بها الأمير عبد الله الصنهاجي صاحب المذكرات الشهيرة وقد احتفظت غرناطة ببعض آثار هذه الدولة إلى يومنا هذا كما احتفظت الجزائر بالكثير منها كالكتابة المنقوشة على باب مقصورة جامع عقبة بن نافع بالزاب التي يرجع عهدها إلى الملك المعز بن باديس وكتابة اسم المعز على المنارات النحاسية المعلقة في سقف المسجد.

وجامع أبي مروان بعنابة وجامع تنس وكثير من الآثار التي نقلت إلى بعض المتاحف كما احتفظت صقلية ببعض القصور التي قلد فيها ملكها روجار

المسيحي المغرم في عهده بقصور بجاية فبنى ما يشابهها (كقصور القبة) (وقصر عزيزة) اللذين مازالا إلى يومنا هذا ولنرجع إلى الحديث عن الطاقة البشرية التي تحدث عنها المؤرخون فإنها لم تستفد منها فتوحات الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط بل لعبت دورها الفعَّال وتركت آثارها أو بصمات أصابعها في جل حروب الأندلس التي كان سكان المغرب يتسابقون إليها برسم الجهاد والرباط في القصور وكانت شهرتهم البطولية جعلت ملوك الأندلس يجلبونهم في شتى الوسائل ويولونهم قيادة الجيوش إلى أن انحلت الدولة الأموية فزاحموا الأمراء واقتطعوا لأنفسهم دولًا بعد انهيار وانحلال الدولة الأموية في عهد ملوك الطوائف فإنهم زاحموا الأمراء واقتطعوا لأنفسهم دولًا وقد أحصى هذه القبائل واحدة واحدة الشيخ الشطيبي الأندلسي (ترجمه ابن عسكر في دوحة الناشر) في تأليفه (عقد الجمان) وأما تجنيد ملوك الأندلس لهم (فقد ذكره المؤرخ الأندلسي ابن حيان فقال: (إن جماعة من زناتة وصفوا لأمير المؤمنين الحكم بالشدة والشجاعة في الحروب فاستقدمهم واتخذهم جنودًا إلى أن توفي ابن عامر وتفرقت الجماعة وانشقت العصا فتسابقوا إلى مزاحمة الأمراء وأسسوا كثيرًا من هذه الدول إلخ).

وهذا لا يمنع من الاعتراف، رغم ما ذهب إليه كثير من الباحثين والمؤرخين، بأن جل هؤلاء البرابر كانوا يجلون العرب وملوكهم وأمراءهم ذلك الإجلال الذي وصل في كثير من الأحيان إلى التقديس، وقد قاطع زيري بن عطية المغراوي المنصور بن أبي عامر لسبب واحد هو استبداده بالملك هشام المؤيد في صغره مما هو معروف وكان زيري وفيًّا للأمويين وقد حكي عنه أنه لما كان محاصرًا لأشير بعد رجوعه من الأندلس وسمع بمرور وفد الحجاج الأندلسيين الآيبين من الحج فاتصل بهم وسألهم عن أحوال بلادهم وختم

حديثه معه بتصريحه المشهور الذي قال فيه: (يا معشر الأندلس، الحمد لله الذي جعل الهزيمة علينا معشر البرابر عبيد الدنيا ولم يجعلها عليكم فكان يستأسد العدو وتخرب الجزيرة ولكن الله أنصر لدينه وأحوط على أمة محمد نبيه صلى الله عليه وسلم).

ولنختم هذه الدراسة بما كنت وعدت به في مستهلها وهو نظرية المستشرق ايرنيست ميرسي Ernest mercier الذي تعرض لتاريخ معركة بواتي Poitiers وقال: إن سببها لم يكن انتصار شارل مارتيل، وإنما هناك أسباب أخرى، ونوقشت آراؤه في جمعية البحوث التاريخية في باريس وحكم بصحتها، تعرض لها الكاتبان موريس مرسى وأندري سقان في نشرة عنوانها (معركة بواتي والأسباب الحقيقية في انسحاب الغزاة العرب) ومن جملة ما دعما به رأي المؤرخ قولهما: (إن هذه النظرية ألقت أضواء على حادث تاريخي هام كان يعتقد أنه لا صلة بينه وبين التاريخ العام بل كان هذا المقال كقنطرة بينه وبين التاريخ العام ولهذا فإن هذا البحث في نظر فلسفة التاريخ له أهمية عظمى إلخ).

ثم ذكرا: (أن من جملة أسباب انسحاب الجيش الإسلامي يرجع إلى قطع مدد الجيش البربري لموانع كثيرة، منها الاضطربات التي اجتاحت البلاد إذ ذاك) ولسنا في حاجة إلى مناقشة هذه الآراء والذي يهمنا منها وله صلة بموضوع بحثنا هو أن هذه الطاقة البشرية كان لا يستهان بها، ولهذا لم يسلم هذا الباحث ومن انتصر له أن هزيمة معركة واحدة -لم يتفطن لها قادة جيش الملك الفرنسي أنفسهم- تتسبب في انسحاب الجيش الإسلامي وإننا في هذا المقام لا نريد تتبع ما استنتجه المستشرق لدعم آرائه فنوافقه أو نخالفه وإنما سقنا رأيه هذا للدلالة على أن هذه الطلقة البشرية كان يقرأ لها ألف حساب في ذلك العهد وأن سمعة الجيش الإسلامي القائم وتفوقه عمت جميع الأوساط

والطباقات وليست من مبالغات المؤرخين المسلمين، وأن رغم مرور القرون عليها فقد بقي الاهتمام بها متواصلًا حتى إن أحد كبار الكتاب الفرنسيين Piérre Gaxotte عضو الأكاديمية الفرنسية ومحرر جريدة الفيقارو ردد صدى هذا المقال ودعمه منذ سنوات قليلة؛ لأنه نشر مقالًا بالجريدة المذكورة المؤرخة في ١١/ ١٠/ ٥٨ بمناسبة ذكرى هذه المعركة وهذا المقال له أهمية عظمى، حيث إن صاحبه نشر عرض حال جلسة سرية عقدها الملك شارل مارتيل مع أركان حربه وخبرائه قبل هذه المعركة وقد افتتحها بقوله: (إن الكفار -يقصد المسلمين- أقوياء ونحن ضعفاء إلا أنني أريد المعركة وبإعانة الجميع، إن أراد الله، سأنتصر عليهم وستجر لي هزيمتهم شرفًا).

فأجابه الكنت أرنول Arnoul (مولاي لا قدر الله أنه سيلحقكم العار، ينبغي لنا أن نكون واقعيين، إننا في سنة ٧٣٢ ووصل فصل الخريف، أن محمدًا مات منذ مائة سنة على الأكثر، انظر ماذا فعل المسلمون في هذه السنين القليلة، أن حصون بيزنطة انهارت أمامهم الواحد بعد الآخر ولم تعطلهم أسوار البصرة ودمشق، أنهم احتلوا مصر وقبرص ورودس وبلاد البربر وكذلك قرطاجنة، واستمر السيل المنهمر في طريقه يجتاح ما يجده أمامه أن أبطالنا سقطوا عندما حاولوا الوقوف في وجوهم، إنهم احتلوا إسبانيا وأخضعوا الفزيقوطيين الأشاوس الأبطال، إن الجبال والبحار لم تعطلهم، إنهم اكتسحوا أراضي فرنسا سهولها وأوعارها، مدن ناربون تولوز نيم ، كاركاصون، بوردو وأننا نشاهد الآن النيران تلتهم الكنيسة سانت هيلان Sainte Hilaina ثم تكلم عالم الدولة ومفكرها راقنفريد Roganfred فقال إن: التاريخ له مجرى، ومجراه متجل بصفة واضحة أنه من الظاهر أن العالم سيخضع للقوة العربية فهذا مسجل على الأراضي التي احتلوها، وفي الانتصارات التي أحرزوا عليها، لا أحد يشك أيها

الملك بأنك غير قادر على تحقيق المعجزات، إلا أنك لا تقدر أن تغير مجرى التاريخ، فإنك إذا أمرتنا تخوض المعركة نجب أمرك ونطيعك، ولكن تحقق أنه لم يرجع منا أحد من هذه المعركة إذ لا يمكنه معاكسة القدر، إلخ.

لم يلتفت شارل مارتيل لأقوال خبرائه بدليل أنه خاضها واستغل انسحاب المسلمين وحينئذٍ أخذته النشوة وهمس في أذن المفكر Roganfred فقال له: (إنني من جهتي أعلمك شيئًا واحدًا، فكما أن الأشجار مهما طالت أغصانها لا تصل إلى السماء فالأشياء لا تتبع وجهة واحدة دائمة).

وهذا الحوار الذي لا يتهم أفراده بالإشادة بقوة المسلمين إذ ذاك ويؤيد نظرية المستشرق لدليل قاطع على أن سمعة الجيوش الإسلامية بلغت ما لم تبلغه إلا أقلية من دول العالم عبر التاريخ ولهذا لا ينبغي لخلفهم اليوم أن يبلغ بهم مركب النقص والتشاؤم إلى اليأس والاستسلام كما لا ينبغي لهم أن يضربوا صفحًا عن التأثير الزمني ولا زالت بعض الأسلحة التي أجمع المؤرخون بأنها أفادت المسلمين في فتوحاتهم ألا وهي الاتحاد والتضامن في إمكانياتهم وقد شكا القادة الفرنسيون في حروبهم مع المسلمين الجزائريين عند الاحتلال بأنهم لم يجدوا أمامهم الجيش التركي النظامي ولا الأتراك وإنما وجدوا سكان البلاد من عرب وبربر والرابطة الوحيدة التي تجمعهم هي رابطة الدين الإسلامي وهذا رأي الشاعر الحكيم، محمد إقبال، نختم به في هذه الراسة، قال: منذ خمسين سنة في رسالة كتبها إلى محمد على جناح، فقال: (هناك درس واحد وعيته من تاريخ المسلمين، ففي اللحظات الحرجة من تاريخهم كان الإسلام وهو الذي أنجى المسلمين، وليس العكس بالعكس، إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام واستلهمتم المبادئ الدائمة فيه، فأنتم لا تكونوا قد فعلتم أكثر من إعادة تجميع قواكم المبعثرة واستعادة كيانكم المفقود، الأمر الذي تنقذون به

أنفسكم من خراب شامل إعادة تكوين أي فرد.

والقرآن الكريم زاخر بالآيات الشريفة التي توضح لنا كيف أن ميلاد البشرية جمعاء وإعادة تكوينها يشبه ميلاد وإعادة تكوين أي فرد.

د/ أبو القاسم سعد الله

مدينة الجزائر

في كتاب إنجليزي قديم[1]

من الكتب القديمة عن الجزائر كتاب ضخم بالإنكليزية طبع في لندن سنة ١٧٣١م وعنوانه الكامل في تاريخ الجزائر تأليف السيد جوزيف مورقان، ويقع في أكثر من ٧٠٠ صفحة من الحجم الكبير، وهو في مجلدين: مجلد في تاريخ شمال إفريقية عامة (بربارية Barbary) من أقدم العصور إلى بداية القرن السادس عشر، والمجلد الثاني وهو في تاريخ الجزائر خاصة من بداية العهد العثماني حتى زمن طبع الكتاب (١٧٣١) ويحتوي على جزءين: الأول من قدوم العثمانيين حتى تولى الحاج باشا (١٥٤٥)، والثاني منه إلى بداية القرن الثامن عشر، وليس هذا أول كتاب بالإنكليزية عن الجزائر، ولكني لا أعرف أنه ترجم كاملًا أو ملخصًا إلى الفرنسية، فما بالك بالعربية.

ومؤلف هذا الكتاب عاش سنوات طويلة في الجزائر وتولي فيها بعض المهام في قنصلية بلاده عندنا في عهد القنصل البريطاني العام، السيد روبير كول R.cole الذي أقام في مدينة الجزائر أكثر من أربعين سنة، وكان على اطلاع بأحوال البلاد عامة في ذلك الحين، فقد كان يحسن، كما يظهر من الكتاب، اللغة العربية ويعرف التقاليد الإسلامية وكان كثير التجوال في مختلف أجزاء الجزائر يريد التعرف على أهلها وتقاليدهم، وقد ذكر أنه زار الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر عدة مرات كما زار قسنطينة وغيرها.

---

(١) عن مجلة (الأصالة) بالجزائر العدد ٨ السنة الثانية ربيع الثاني -جمادى الأولى ١٣٩٢هـ ماي -جوان ١٩٧٢م.

وكـان يتـصل بـالمرابطين ويـستمع إلى أقـوالهم ويتعـرف عـلى علاقـاتهم بالشعب، وله كتاب عن الإسلام: أشار إلى الجزء الثـاني منـه في الكتـاب الـذي نتناوله (ص٤٨٧) وسـماه (التعريـف بالإسـلام) Mohametisme Explained ، وانتقد دي تاسي الذي كتاب أيضًا عن الجزائر بأنه لا يعـرف عـادات المـسلمين (٢٣٩) وقد نشر عملًا آخر عن الجزائر في لندن سـنة ١٦٨٠، وكثـيرًا مـا كـان يصحح نطق وأخطـاء المـؤرخين الآخـرين عنـدما يتعـرض إلى أسـماء القبائـل والأشخاص المحليين، ورغم أننا عدنا إلى بعض المظان التي تحتوي على تـراجم الإنكليز فإننا لم نستطع أن نتعرف على حياته أكثر من هـذا القـدر، فلـم نعـرف مثلًا متى ولد أو توفي، وكل ما نستطيع الجزم به الآن هو أنه قد عاش في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي.

وهناك عـدة أسـباب دفعتـه إلى الكتابـة عـن الجزائـر، **أولها**: وجـود لـذة شخصية في كتابة تاريخ بلاد وشعب قـضى بيـنهم كثـيرًا مـن سـنوات حياتـه، ويتضح من هذا أنه كان يكتب عـن تجربـة ذاتيـة، وأنـه كـان يكتـب نوعًـا مـن الذكريات والانطباعات وسنرى أن هذا غير صحيح.

وثانيها: اقتناعه بأنه في استطاعته أن يكتب تاريخًا عن الجزائر أكثر وضـوحًا وأوسع دائرة من أي تاريخ آخر كتب عن نفس الموضوع، فهو يعرف البلاد عن كثب ويعرف حياة المسلمين عامة، ويريد أن تكون بلاده على علاقات طيبة مـع هذه الجزائر القوية ذات الأسـطول العظـيم والـسمعة الواسـعة والإمكانيـات الكبيرة، وهو رأي نجده في ثنايا الكتاب وسنتعرض إليه.

وثالثها: كثرة الأخطاء الفاحشة السائدة في بلاده عمن يسمونهم (بالبرابرة) وعن أهمية الجالية التركية في (بربارية) (شمال إفريقية)، وبالأخص عن قراصـنة

الجزائر وأسطولها وهو لذلك يريد أن يصحح الأخطاء وأن يساهم في إزالة العراقيل وسوء التفاهم القائم بين مواطنيه وسكان شمال إفريقية.

ومصادر مورقان كثيرة متنوعة، حقًّا إنه اعتمد كثيرًا على بعض المؤلفين الإسبانيين مثل: ف. ديقو هايدو، ولويس مرمول، ولكنه كان دائمًا يحتفظ لنفسه بالرأي النهائي، كذلك اعتمد على لوجي دي تاسي الذي كان ممثل ملك إنكلترا للشئون البحرية في هولاندة، وأخذ عن الكاتب الديني الإسباني الدكتور بيرنادور ألدريتي صاحب (إسبانيا وإفريقية في القديم) ولم يأخذ كثيرًا عن ليون الإفريقي (الحسن الوزاني)؛ لأن مرمول استعار منه كثيرًا، ولأن وجه بربارية قد تغير منذ عصره، وأخذ مرقان أيضًا عن مؤلفين آخرين أمثال ب. دان قرامي Gramay ودافيتي Davity ودابر Dapper ودابر وهكليت Haklyyt وكان ينقل أيضًا عن ابن الرقيق القيرواني وغيرهم من كتاب المغرب الوسيط، ولكنه كان يأخذ بطريقة غير مباشرة، وقد رجع أيضًا إلى بعض الموسوعات التاريخية واللغوية، ولم يدخل الكتاب من الاستفادة من كتب القدماء أمثال مؤلفات العهد الروماني (سالوست وسترابو...إلخ).

ولكن مورقان كان كثير النقد لمصادره، وكان يشعر أن الأوربيين الذين سبقوه بالتأليف كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني والأحكام المسبقة، لذلك انتقد يدو، رغم أنه يعترف له بالفضل وقد أسماه مرشده في عمله، فقال: إن كتابه يقوم على فكرة ثلاثية هي الأسر والشهداء والمرابطين (أسر المسيحيين من طرف الجزائريين وموتهم شهداء في أيدي المسلمين ودور رجال الدين المسلمين في الجهاد)، وهي فكرة حسب رأيه تافهة، واتهمته بضيق الأفق والمحاباة الدينية والكتابة لهدف موجه، وكذلك انتقد مرمول واتهمه بعدم التجرد من الهوى الديني وبكثرة الأخطاء ولا سيما عندما يتحدث عن السكان والبلاد.

وانتقد ليون الإفريقي بأنه رغم أن كتابه قد طُبع سنة ١٥٢٥ وترجم إلى عدة لغات (منها الإنكليزية سنة ١٦٠٠) فإنه قد تجاوزه الزمن، ومن جهة أخرى قال عنه: إن شهرته قد جعلت الناس يعتقدون خطأ أنه المصدر الأساسي الوحيد عن تاريخ بربارية، واتهم لوجي دي تاسي بأنه كان يجهل أحوال وعادات المسلمين.

وقال عن الجميع بأن لهم أفكارًا مسبقة خاطئة عن الأتراك والمسلمين، وأنهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين في ذلك بأقوال ودعايات الكهنة الإسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكي يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين.

وحاول مورقان أن يصحح هذه الصورة الخاطئة عن الجزائر، فقال: إنه كان في إمكانه أن يأخذ عن تلك المصادر ويكتب تأليفًا كالآخرين، ولكنه شعر أن له أشياء كثيرة خاصة يريد أن يقولها، ولذلك عزم على تأليف يحمل شخصيته وآراءه ويقدم تاريخ الجزائر شاملًا كاملًا إلى مواطنيه وإلى الأوربيين عامة، لكي يعرفوا الحقيقة، وقد استجاب لرغبة بعض أصدقائه فكتب قسمًا مدخليًّا للكتاب تناول فيه التاريخ العام لبربارية (شمال إفريقية) منذ القديم حتى بداية القرن السادس عشر.

وقد افتتح كتابه بمحاولة تصحيح الصورة التي رسمها رجال الدين في أوربا عن الجزائر، فقال في المقدمة أن الجزائر مشهورة بحكومتها القوية، وأنها قد وقفت أكثر من قرنين ضد هجومات كثيرة، وأنه ليس هناك اليوم ما يجعلها في خطر من تلك الهجومات، وقال: إنه من حق الجزائريين أن يكونوا شعبًا

بحريًا قويًا (أليس كل قادة أوربا ينشدون صداقتهم ويتوددون إليهم؟ فهم شعب يعقد السلام ويعلن الحرب مثل الأمم الأخرى، وهم دائمًا في وضع يفرض على غيرهم احترامهم وتقديرهم) (ص٤).

وعاب مورقان على من يقول: إن الجزائريين عبارة عن عصابة من القراصنة الجبناء تكفي ست سفن لتخريب مدينتهم عليهم، وقال: إن أمثال هؤلاء لا يعرفون أن أرمادة (أسطول) فيلب الثاني الإسباني ضد بريطانيا (سنة ١٥٨٨) لم تكن شيئًا يذكر بالمقارنة إلى أرمادة شارل الخامس التي تحطمت أمام مدينة الجزائر سنة ١٥٤١أو إلى الأساطيل الأخرى، الإسبانية والإنكليزية التي تحطمت أمام هذه المدينة التي لا تقهر.

وقد ضرب مثالًا على ذلك بتغلب الجزائريين على الإسبان في مستغانم حينما أسروا منهم ١٢.٠٠٠ من أصل ١٦.٠٠٠ من بينهم ابن حاكم وهران الإسباني، وحملوهم إلى مدينة الجزائر، وضرب مثلًا آخر على قوة الجزائريين بإخراجهم الإسبان من وهران سنة ١٧٠٨ بعد أن ظلوا بها قرنًا وبعد أن كانت محروسة بحوالي عشر قلاع، وبحامية قوية.

وقد قسَّم المدخل (أو المجلد الأول) إلى ستة أقسام نوجز عناوينها فيما يلي:

القسم الأول: عن أصل سكان البلاد (شمال إفريقية).

القسم الثاني: (عن قرطاجنة وإمبراطوريتها).

القسم الثالث: عن الأقاليم الرومانية في شمال إفريقية إلى الهجوم الوندالي.

القسم الرابع: تاريخ بربارية من الوندال إلى الفتح الإسلامي.

القسم الخامس: شهادات عن استبداد وظلم الرومان وشرور المسيحيين الإفريقيين التي أدت إلى سقوط تلك الأقاليم.

القسم السادس: تاريخ بربارية إلى القرن السادس عشر، عندما أصبحت الجزائر تحت النفوذ التركي.

ويحتوي هذا المدخل على ٢٠٧ صفحات، وتظهر فيه أيضًا شخصية المؤلف بنقده للمصادر ودراسته لتاريخ الإسلام ومعرفته لتقاليد السكان.

ويأتي بعد ذلك المجلد الثاني، وهو خاص بالجزائر، وعنوانه: (الكامل في تاريخ الجزائر والأقاليم التابعة لها منذ استيلاء الأتراك عليها) ويقع في جزءين كما سبق أن أشرنا، الجزء الأول يضم ستة فصول نوجزها فيما يلي:

الفصل الأول: الجزائر في القديم، أسماؤها والثورات التي وقعت فيها وأوضاعها العامة.

الفصل الثاني: معلومات عن القرصان الشهير عروج باربروسة قبل استيلائه على الجزائر.

الفصل الثالث: تاريخ عروج باربروسة إلى وفاته وكيف وقعت الجزائر في يد الأتراك؟

الفصل الرابع: خير الدين باشا، والي الجزائر الأول باسم السلطان العثماني.

الفصل الخامس: حسن أغا، خليفة خير الدين باشا.

الفصل السادس: عهد الحاج باشا (يدعى كذلك واسمه الحاج بشر -أو بشير- بن عطيلة- أو عطاء الله-).

وهو جزء صغير الحجم إذا قيس بالجزء اللاحق أو حتى المدخل، إذ تبلغ صفحاته حوالي ٥٩ (ص٢١١-٢٥٢): أما الجزء الثاني فضخم وفيه تفاصيل أكثر وهو يبتدئ بالفصل السابع.

الفصل السابع: حسن باشا بن خير الدين (العهد الأول).

الفصل الثامن: صالح رايس، أول عربي يحكم الجزائر.

الفصل التاسع: الباشوات: حسن قورصو وتاكارلي ويوسف، والقائد يحيى.

الفصل العاشر: الباشوات: حسن بن خير الدين (العهد الثاني) وحسن أغا، ومحمد خوجه، وأحمد والقائد يحيى (العهد الثاني).

الفصل الحادي عشر: حسن باشا بن خير الدين (العهد الثالث) الجزائريون وحصار مالطة.

الفصل الثاني عشر: محمد باشا بن صالح رايس، علي باشا الفرطاس.

الفصل الثالث عشر: عرب أحمد، ورمضان باشا.

الفصل الرابع عشر: حسن باشا (العهد الأول) وجعفر آغا.

الفصل الخامس عشر: حسن باشا (العهد الثاني) مامي باشا الأرناوطي.

الفصل السادس عشر: أحمد باشا، خضر باشا (العهد الأول).

الفصل السابع عشر: شعبان باشا ومصطفى باشا (العهد الأول) وخضر باشا (العهد الثاني).

الفصل الثامن عشر: عن القراصنة الجزائريين وقوتهم البحرية.

الفصل التاسع عشر: عن شئونهم البحرية إلى فشل حملة السير روبير مانسيل الإنكليزية.

الفصل العشرون: مقتطفات من يوميات الحملة الإنكليزية الفاشلة ضد الجزائر بقيادة السير روبير مانسيل.

وينتهي الكتاب بملحق طويل (١٢ صفحة) يضم معاهدة الصلح والتجارة التي أبرمت بين الجزائر وإنكلترا سنة ١٦٨٢ وجددت سنوات ١٦٨٦، ١٧٠٠، ١٧٠٣، ١٧١٦ وبملحق آخر في نفس الموضوع بين إنكلترا وتونس من جهة، وإنكلترا وطرابلس من جهة أخرى، ويحتوي هذا الجزء على حوالي ٣٤٠ صفحة، ولا يكتفي مورقان بذكر أسماء الباشوات ولكنه يتحدث عن أعمالهم خلال ولايتهم ومنشآتهم وعلاقاتهم الخارجية وصلاتهم بالسكان وبالوجق العثماني، وكما يتتبعهم في مختلف مراحل حياتهم حتى بعد أن يتركوا الحكم، ولا يهمل جانب السكان أثناء حديثه عن الولاة غير أن كتابه يظل كتابًا سياسيًّا بالدرجة الأولى.

وهناك حادثتان هامتان ذكرهما مورقان تتعلقان بالتاريخ البحري للجزائر:

أولاهما: حادثة غريبة تستحق الوقوف والدرس والبرهان وهي أن الجزائريين كانوا مزارعين في أمريكا لهم أملاك زراعية ضخمة ولهم خدم من الزنوج يعملون في مزارعهم (ص٥١٧) وهو يستغرب من ذلك، رغم أنه كثيرًا ما سمع عنه؛ لأن الجزائريين لم يكونوا يملكون عندئذٍ السفن القادرة على قطع المحيط.

والحادثة الثانية: أقل غرابة؛ لأنها ليست جديدة في حدِّ ذاتها ولكن المؤلف قد أعطاها كثيرًا من الاهتمام وتتبع صاحبها بتفصيل خاص، وهي دخول مراد رايس المحيط لأول مرة ووصوله إلى جزر الكناري سنة ١٥٨٥، ويتحدث

مورقان عن ذلك فيقول: إنه أول جزائري دخل المحيط وأغار على هذه الجزر وإن رحلته قد استغرقت أكثر من أربعة أشهر، وأنه غنم غنائم ضخمة وأسر فيها أكثر من ٣٠٠ إسباني بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وأن الجزائريين قد احتفلوا احتفالًا عظيمًا بعودة مراد رايس سالمًا غانمًا وأنهم كانوا يلقبونه (بالكبير) لأنه أول من دخل منهم المحيط هذا في القرن السادس عشر، أما اليوم، (زمن المؤلف) فإن دخول الجزائريين المحيط أصبح أمرًا عاديًا (ص٥٨٩) ولا نظن أن مورقان أول من أشار إلى هذه القصة فقد يكون ناقلًا لها عن هايدو، ولكنه يرويها بشيء من العطف والإعجاب ببطلها خلافًا للمؤلفين الآخرين الذين أعماهم التعصب الديني، كما يقول عن رؤية الحقيقة.

وتحتل الجزائر، كما يلاحظ المرء من الفصول جزءًا ضئيلًا من هذا الكتاب الضخم، ولكن المؤلف يتحدث عنها حديثًا جديرًا بالوقوف عنده، ويبدأ بذكر الأقوال الشائعة عنها عندئذ لدى مواطنيه الإنكليز خاصة والأوربيين عامة.

فهي عندهم مدينة الرعب، وملاذ قطاع الطرق وطلاب الغنام الذين لا يكتفون بإرهاب جيرانهم، بل هم الأعداء الألداء للمسيحيين وتجارتهم، إنها حسب رأي البعض (عش العفاريت) ولكن المؤلف، الذي أخذ على عاتقه تصحيح الأخطاء الشائعة عن الجزائريين بحكم تجربته الطويلة معهم، يجيب هؤلاء بأنه من حق الجزائر أن تدعى القدم والشرف معًا، ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم، أليست على أنقاض (قيصرية) الرومانية؟.

إن هناك عدة آراء حول أصل مدينة الجزائر، فبعضهم يدعي أنها مبنية على أنقاض قيصرية الرومانية، وبعضهم يدعي أن قيصرية هذه تقع في مكان آخر من الساحل غير مكان مدينة الجزائر الحالي.

بل إن آخرين يذهبون، جهلًا منهم حسب رأي المؤلف، إلى أن قيصرية مدينة داخلية، ناسين أنها كانت ساحلية غير أن الناظر المدقق في موقع وشكل مدينة الجزائر الحالية يذهب إلى ما ذهب إليه مورمول أن قيصرية القديمة تقع غرب مدينة الجزائر الآن وأن اسمها الإفريقي هو (تاكدامت)، وأنها هي كل ما بقي من تلك المدينة الشهيرة التي اختارها الملك يوبا الثاني لتكون عاصمته رغم اتساع أطراف مملكته، وأن الملك يوبا الثاني هو الذي أعاد بنائها ونبلها وأطلق عليها اسم ولي نعمته، يوليس قيصر.

أما ابن الرقيق فيؤكد أن اسمها القديم هو قيصرية (أو قيسرة) ولكن المؤلف الإنكليزي يقول: إنه لم يسمع بأن أحدًا غير ابن الرقيق قد أخذ بهذا الرأي، وعلي أية حال فإن آثار تلك المدينة (تاكدامت) تشهد على عظمتها، ويبلغ محيطها حوالي اثني عشر ميلًا.

ولكن ليس هناك ما يشير بالتأكيد إلى أن مدينة الجزائر الحديثة قائمة على أنقاض قيصرية العتيقة التي كانت ذات يوم مقرًا لملك عظيم، وعاصمة لأقاليمه الواسعة، والتي كانت خلال قرون مستعمرة رومانية تمثل رأس إقليم شاسع مزدهر والواقع أن في مدينة الجزائر الحالية (زمن المؤلف) بعض الآثار القديمة، ولكنها ليست بشيء هام إذا ما قورنت بآثار المدن القديمة الأخرى في العالم وإذا كانت مدينة قيصرية قائمة فيما هو الآن مدينة الجزائر، فكيف نفعل مع كاتب آخر، يعتبر عمدة في آرائه، وهو سترابو Strabo الذي يؤكد أن الملك يوبا الثاني قد أعاد بناء يول Yol وأطلق قيصرية جزيرة صغيرة، وقد لاحظ المؤلف أن مدينة الجزائر الحالية تقع أمامها هذه الجزيرة الصغيرة، بينما لا يوجد مثلها أمام تاكدامت أو أمام أي مكان آخر على الساحل تحدث عنه الجغرافيون.

ورغم شهرة مدينة الجزائر وعظمتها اليوم (القرن ١٨) عند الأوربيين، فإنه من الغريب حقًا أن لا يعثر فيها الباحث على أي رسوم خطية أو تمثال، أو حتى آثار باقية من قوس نصر، أو شيء يشبهه ذلك أن المؤلف كان كثير الاهتمام بهذا الموضوع والبحث عنه ولكنه لم يستطع خلال إقامته الطويلة بمدينة الجزائر أن يرى أو يسمع عن وجود آثار قديمة عثر عليها أثناء وضع أسس البنايات أو حفر الآبار، أو نحو ذلك من أعمال التنقيب، وقد استنتج من ذلك أن ما وقع لقيصرية القديمة لم يكن مجرد تخريب جزئي، ولكنه كان تخريبًا كاملًا مع حقد شديد!

ويبدو أن مدينة الجزائر القديمة قد عانت من ظلم الحكام الطغاة مما أدى إلى تخريبها وإفراغها من سكانها وسلبها من ماضيها العظيم.

ولكن مظهرها اليوم وهو مظهر حديث، لا يدل على أنها قد ظلت فارغة من السكان فترة طويلة، وعلى كل حال فإن اعترافنا بشرف وقيمة الآثار القديمة التي كانت تحتويها يجعل من الظلم والإجحاف أن ننازع مدينة الجزائر اليوم (القرن ١٨) هذه العظمة الموروثة ذلك أنني (المؤلف) أرى أن نحارب العدو بكرم، وأن نعمل على هدى المثل القائل (أعط الشيطان حقه!) وما دامت المصادر تثبت أن قيصرية قد بنيت على أنقاض يول القديمة، فإن ذلك يكفي دليلًا على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحالية.

أما اسم مدينة الجزائر في التواريخ الإفريقية (الإسلامية) فهو مزغنة، وهو الاسم الشائع اليوم لدى السكان، ولكنهم يستعملونه بشيء من المضض؛ لأنهم يعرفون أنهم ينطقون اسمًا أقل أهمية من اسمها القديم (قيصرية)، وكل من ليون الإفريقي ومرمول استعمل اسم مزغنة لمدينة الجزائر، ولكنهما لم يتفقا على شكل كتابته.

وقد قلدهم الكتاب الآخرون ويؤكد الإفريقيون المسلمون أن المدينة كانت أصلًا لبني مزغنة (يكتبها مورقان هكذا Mvzgunnd مزقنة -بضم الميم والقاف المعقوفة) وهم شعب ليبي قديم، ولا يعرف من أي قبيلة هم، وقد أنشئوا المدينة (لا يذكر تاريخ الإنشاء) وسكنوها قبل أن يأتي الرومان هناك بعهد طويل، وأطلق عليها العرب اسم جزيرة (هكذا بالمفرد) بني مزغنة.

أما اسمها الحالي فهو الجزيرة (بالمفرد أيضًا)، وهو اسم محرف حتى عند الذين يعطونها هذا الاسم، فالعرب (البدو) وأهل الحضر يسمونها (تزير)، والترك غيروا المفرد العربي إلى جمع، فهم يسمونها (الجزائر) ولكن الإفريقيين (أهل المغرب الأقصى) قلبوا الجيم الخفيفة (ج لـ إلى ج ثقيلةG) على عادتهم في ذلك فهم ينطقونها جزائر Gezier وللأوربيين أسماء مختلفة يطلقونها على مدينة الجزائر، فهي عندهم أجي Alger وأجيير Algieri وأرجيرArgier والإسبان خصيصًا يطلقون عليها اسم أرخيل Argel (وأحيانًا Ariel) ولكن الإنكليز والهولانديين فقط هم الذين يطلقون عليها اسم أجيرز Algiers.

ومن جهة أخرى يطلق الترك عبارة مغربلي (مغربي) على السكان الواقعين غرب الحدود المصرية، وعبارة جزايرلي (جزائري) على سكان الجزائر، بينما ينسب المغاربة إلى الجزائر هكذا: جزيري Gezeiri أم بقية الحضر والعرب الإفريقيين فيقولون تزيري Tzeiri أو زيري Zeiri وهو نفس الاسم الذي أطلق على أسرة بني زيري (الدولة الزيرية).

وقد أغامر -المؤلف- فأقول إنه يبدو لي أن اسم المدينة المحرف اليوم قد استعير من اسم هذه الأسرة، بدل أن يكون مأخوذًا من اسم الصخرة (الجزيرة) المواجهة لها بل من الممكن أن يكون الاسم الشائع اليوم (القرن ١٨)

محرفًا عن (قيصرية) أما الذين يزعمون أنها سميت (الجزائر)؛ لأنها تقع تقريبًا في مواجهة (جزر الباليار) فإنني -المؤلف- أرى أن رأيهم سخيفًا ولا أساس له على الإطلاق).

وبعد هذا الحديث الطويل عن أصل اسم مدينة الجزائر ومشتقاته يتحدث المؤلف عن بعض الثورات والاضطرابات التي شهدتها المدينة منذ القديم حتى القرن السادس عشر، فقد ذكر أن الثائر فيرموس، وهو من السكان الأصليين، قد خرب قيصرية (٢١٥).

واستعرض الأمراء والحكام الذين يسميهم طغاة والذين تداولوا على حكم الجزائر كالوندال والفاطميين والمرابطين والموحدين إلخ.

وتعجب سكيف يخربون المدن بعد أن أوقعها السيف تحت سيطرته، ولكن المؤلف أكد أنه لم يعثر على مصدر يقول بأن مدينة الجزائر، منذ قيصرية، قد خلت من سكانها فترة طويلة، غير أنه يرى أنها منذ العهد الروماني، لم تزدهر كعاصمة لأية مملكة أو حتى لإقليم كبير، وما غامر به من أن اسمها قد يكون مشتقًا من اسم الزيريين مؤسسي بجاية ومن أنها ربما كانت عاصمة لهم، وهو مجرد تخمين قائم على التشابه في الاسم وليس له مصادر على ذلك (ص١٧٢). وقد استنتج من ذلك أن مدينة الجزائر كانت مسرحًا لعدة ثورات واضطرابات منذ العهد الروماني حتى ثورة (هكذا يسميها) القرصان عروج باربروسة ١٥١٦ (ص٢١٦).

ثم صور مورقان الصراع الثلاثي على مدينة الجزائر في بداية القرن السادس عشر، فهؤلاء الجزائريون الذين يريدون الحفاظ على سيادتهم واستقلالهم في مدينتهم بعد أن استولى الإسبان على بجاية وطردوا ملكها الذي كانت له

السيادة على مدينة الجزائر ولم يتوانوا (الجزائريون) من أجل ذلك الهدف في دعوة الشيخ سليم بن التومي (هكذا يذكره) زعيم قبيلة التاتيج Tatije (هكذا أيضًا) في متيجة ليكون سيدًا عليهم، وعندما قبل، استقبلوه في فرح وغبطة وقرروا قطع الجزية التي فرضها عليهم الإسبان منذ ١٥٠٩.

ومن جهة أخرى هناك الإسبان الذين ذهب بهم الطموح كل مذهب وقادهم الحقد الديني إلى طرد المسلمين من بلادهم، ثم احتلوا المدن والمراكز الساحلية في بربارية، بما في ذلك بجاية ووهران والصخور (الجزر) التي كانت أمام مدينة الجزائر، وفرضوا على أهل هذه المدينة جزية ثقيلة وأقاموا أمامها حصنًا قويًّا يحميه مائتا جندي، فكانت في الحقيقة محاصرة لا يدخلها الداخل أو يخرج منها الخارج إلَّا برضى الإسبان، وأخيرًا هناك القراصنة الأتراك بقيادة الأخوين باربروسة يجوبون غرب البحر الأبيض، وقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في جزيرة جربة وفي مدينة جيجل وغيرها وأن يكسبوا عدة جولات ضد الإسبان.

وبذلك جعلوا أنفسهم قوة ثالثة يلتجئ إليها المغلوبون والضعفاء، ولم يتردد سليم بن التومي أن يستنجد باسم سكان مدينة الجزائر، بهؤلاء المسلمين الأتراك الذين جعلوا همهم ملاحقة الكفار الإسبان فأنجدوه وتعاون الطرفان ضد العدو المشترك، ولكن الأتراك جعلوا من مدينة الجزائر مركزًا لنشاطهم وعاصمة لأقاليمهم وتخلصوا من كل واقف ضد هذا التيار. واستمر الأمر كذلك إلى زمن المؤلف.

وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن المؤلف) هو بالتقريب شكلها في بداية القرن السادس عشر، فأسوارها ظلت كما كانت، ولكن أضيفت إليها

تحصينات جديدة، غير أن ضواحيها القديمة الكثيرة قد اختفت الآن، وكان ملوك تلمسان هم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر، لكي يقيم فيها ولاتهم وعندما أصبح سليم بن التومي زعيم المدينة جعل قصره في هذه القصبة، ولكنه لم يمتع طويلًا بزعامته، وتقع المدينة في خليج واسع وقد بني جزءًا منها على أرض منبسطة تنتهي بالبحر عند سفح الجبل.

أما الجزء الآخر فمبني على منحدر يبتدئ حيث ينتهي الأول ويمتد على ٢١ درجة و ٢٠ دقيقة طولًا، و ٣٦ درجة، و ٣٠ دقيقة عرضًا، وهذا طبقًا لآخر المعلومات؛ لأن بعض المؤرخين والجغرافيين يختلفون في درجة أو أكثر أو أقل (ص ٢٢٠).

ويسير مورقان على منهجه الذي رسمه لنفسه فيذكر لنا أهم الأعمال التي قام بها كل باشا في مدينة الجزائر، فهذا حسن باشا بن خير الدين بنى سنة ١٥٥٠ قلعة عظيمة في المكان الذي نصب فيه شارل الخامس (١٥٤١) خيمته، وبنى ما يشبه المستشفى لمداواة الجرحى والمرضى من الجيش كما بنى حمامًا عامًا فخمًا على غرار ما فعل والده في مدينة اصطنبول (ص٣٦٨) كما ترك في المدينة زوجته الجزائرية وابنها، وترك لهما عددًا كبيرًا من الأرقاء والثروات (ص ٤٧٥).

وهذا مثلًا عرب أحمد باشا الذي بنا برجًا وأصلح من شأن سور باب عزون، وأقام عينًا جارية تجتمع فيها العيون القريبة كما بنى برج الفنار على الجزيرة (الحصن) التي كانت خارج المدينة وأنشأ عينًا أخرى كبيرة أمام باب الواد.

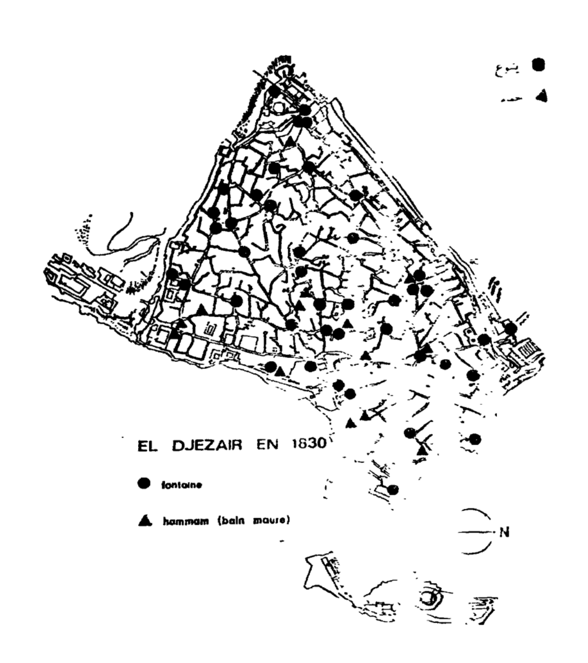
وكان يقف على هذه الأعمال بنفسه وهكذا إلى أن يأتي المؤلف على ذكر الباشوات الذين أشرنا إليهم في الفصول، وبذلك أصبحت مدينة الجزائر لا

تطاول ثروة وشهرة وعظمة، ويؤكد مورقان (نقلا عن هايدو) أنها قد أصبحت مطمح أنظار المشارقة الذين كانوا يقصدونها لثروتها وجمالها الطبيعي، كما كانت أمريكا بثروتها وجمالها تحمل الإسبان على قطع المحيطات (ص ٣٥٤).

ولعله من الواضح أن هذا الكتاب، بما فيه من معلومات سياسية واقتصادية، وبما يحتويه من آراء غير متعصبة نحو البلاد وسكانها، خلافًا لما جرت به العادة عندئذ جدير بالترجمة كاملًا رغم ضخامة حجمه وصعوبة لغته وعسى أن يوفقنا الله إلى ذلك، أما الآن فحسبنا هذه المعلومات عن محتواه العام وعن رأي المؤلف في مدينة الجزائر بالذات.

اكتفينا بعرض آراء المؤلف دون تعليق عليها؛ لأن التعليق عليها يجعلنا في الواقع نعيد كتابة تاريخ القارة كلها.

COMEDOR



مولاي بلحميسي

مدينة مليانة
عبر العصور

القسم الأول إلى نهاية القرن ١٨م

إن موقع هذه المدينة الشهيرة في قلب المغرب الأوسط وتأسيسها بين أهم عواصمه ووجودها من بين ثغور بعض الإمارات بمكان تبرعت فيه الطبيعة بكل ما يحلم به القاطن والزائر من مياه وزرع وضرع وفواكه وخضر... كل هذا جعل منذ فجر التاريخ، مليانة تلعب دورًا سياسيًا وعلميًا وتجاريًا رغب الكثير من الملوك والأمراء في امتلاكها، فلا يخلو عصر من عصور بلادنا إلَّا وتحدث فيه التاريخ عنها.

وننتهز فرصة الاحتفال السعيد بمرور ألف سنة على تأسيس هذه المدينة لنقدم لقراء (الأصالة)[1] مع كثير من الإيجاز أهم الحوادث والأخبار في مختلف العصور التي مرت على هذه البلدة.

١ - (مليانة) وحقيقة اسمها

اختلف المؤرخون والجغرافيون من مسلمين وغربيين في تسمية المدينة، فقد سماها المؤرخ الإسباني مارمول، فقد سماها المؤرخ الإسباني مارمول Marmo (مليان)[2]، Miliane وقال: إنها كانت تسمى قديمًا (منيانة) Magnana.

---

(١) مجلة (الأصالة) الجزائر العدد ٨ السنة ٢ ربيع الثاني جمادى الأولى ١٣٩٢هـ / ماي جوان ١٩٧٢م.
(٢) مارمول: وصف إفريقية جـ٢ ص٣٩٦-٣٩٧.

وأما الإنكليزي شاو Shaw فإنه يقول منيانة Maniana ومليانة Maliana وذلك بناءً على النطق المحلي[1] وجاء في معجم البلدان لياقوت ما يلي: (مليانة (بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون) هي مدينة في آخر إفريقية بينها وبين تنس (!) أربعة أيام)[2].

ويدعي بعض العارفين من سكان الناحية أن (مليانة) مشتقة من (ملآنة) لما في الناحية من خيرات...

ويقول ر. باسي R. Basset: إذا اعتبرنا أن أحد (القصور) بتوات يسمى بمدينة مثل فرقة المحلي فإننا لا نقبل الكلمة اللاتينية (مليانة Maliana) كتسمية أولى هذه المدينة.

وبما أن بلكين بن زيري مؤسس مدينة كان من صنهاجة فإنه من المحتمل أن قبيلة مدينة من بني هندل هي أيضا من صنهاجة استوطنت الونشريس أيام بلكين... مثلما استمدت مدينة المدية اسمها من قبيلة صنهاجة تعرف بلمدية[3].

الموقع الجغرافي

تقع مدينة عش العقاب في منطقة مرتفعة بين خطي طول درجة ٧ دقائق غربا، وعرض: ٣٦درجة ١٨دقيقة وعلى ارتفاع يتراوح بين ٧٢٦ و٧٤٩ م.

---

(١) الأسد الإفريقي وصف إفريقية جـ٢ ص٣٤٥، وشو: أسفار ص ٢٨٢-TRAVEL٢٨٤.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٧ ص٥٥.

(٣) ر. باسي R.Basset: étude sur la zenata de l'ouarsenis du maghreb centralparis 1895 p.2.

وتقع المدينة غرب الدائرة التي تسمى باسمها وهي دائرة مليانة، التي تبعد عن الأصنام ٩٩كلم، وعن العاصمة ١٢٠ كلم بحيث تقع في الجنوب الغربي منها، تبلغ مساحة المدينة ٢٣٧٧٣هكتارًا، ويحيط بها مجموعة من الجبال: كجبال زكار الشرقي والغربي اللذين يبلغ أعلى ارتفاع فيهما ١٥٧٩م ويطلان على المدينة، أما من الجنوب فيربطهما مضيق صغير.

وتطل من الشرق والجنوب على وادي شلف، لها جو معتدل وتجري فيها مياه كثيرة وعذبة تديم اخضرار الناحية وهي محاطة بالحدائق الغنَّاء، وتنبني أهميتها اليوم على موقعها الاقتصادي والفلاحي حيث إنها تحتوي على سوق كبير ومناجم وبها مزار الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف.

وقال الكُتاب القدماء أنها تقع على سوق كبير على بعد ميلٍ من مدينة سرجال (شرشال) في داخل البلاد وعلى بعد ١٤ ميل من الجزائر نحو الغرب، أما بتوليميPtclémće فقد وضعها في خطي طول ١٥ درجة ٥٠ دقيقة وعرض ٢٨ درجة ٥٠ دقيقة[١].

أما الرحالة شاو فيقول: إنها تقع على سفح هذه الجبال وعلى ارتفاع ٤٠٠تواز Loises فوق[٢] السهل وتبعد بميلين من ناحية الشرق والشمال الشرقي من مدينة الأربعاء.

---

(١) مارمول: نفس المرجع.
(٢) تواز مقياس يساوي ستة أقدام مقياس الطول للإنسان.

مليانة عبر العصور

ما قبل الإسلام

أجمع معظم المؤرخين على أن المدينة قديمة أولية[1] (رومية فيها آبار وأنهار تطحن عليها الرحى)[2] وفيها آثار وذكر كورتوا Courtois أنها من أكبر مدن موريطانية القيصرية على هضبة تطل على وادي شلف وتحتل أخصب أراضي الناحية يسقيها واد بوتان Butane ويضيفون أنها شيدت على أنقاض المدينة الرومية المعروفة بزوكابار Zuchabar التي ظلت آثارها واقفة حتى عصر البكري، وشاهد الرحالة الإنكليزي شاو كثيرًا من أطلالها في القرني ١٧ و١٨ ميلادي.

(يوجد حاليًا بمليانة بقايا من المعمار الروماني وشاهدت على بعض أسوارها الحديثة نصبًا تذكاريًا عليه كتابات تلقي أضواء جديدة ترجح أن حفيد هذا القائد العظيم بومبي Pompée وابن حفيده مد فونان في مليانة (وهذا ما جاء على اللوحة):

Q. pompeio

C. N.F. quirit clementi la...

Duur ex testamento

Q. pompeo F. quia rogeti fatris sui

(1) Mabra posuit

pompeio q.p

---

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض جـ١ ص٩٠.

(٢) ياقوت: نفس المرجع - البكري: المغرب.

العهد الإسلامي

وإن كانت مليانة مدينة قديمة، فإن أهميتها الحقيقية قد برزت في العهد الإسلامي عند ما اختطها بلكين بن زيري بن مناد[١] وفي ذلك قال ابن خلدون: (واختط زيري: مدينة أشير للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطري لهذا العهد حيث مواطن حصين وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب، واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية، وحين نازل أبا إسماعيل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر، وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح، وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية (وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير، وعقد له على تاهرت وأعمالها.

ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة، وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط[٢].

ولعل ابن خلدون يقصد التوسيع والتعديل والتجديد بحيث أصبحت المدينة من أمصار المغرب. قال أبو عبيد البكري (جددها زيري بن مناد

---

(١) بلكين بن زيري بن مناد من أشهر أمراء صنهاجة في خدمة الفاطميين قضى حياته كلها في محاربة زناتة بالمغرب الأوسط حتى أقصاهم عن البلاد واستولى على المسيلة والزاب، وكما استولى على فاس وسجلماسة وهزم برغواته حتى وافاه الأجل وهو في طريق العودة ٣٧٣- ٩٨٤.

(٢) ابن خلدون: كتاب العبر جـ٦ ص٣١٣ طبعة بيروت.

واسكنها ابنه بلكين وهي عامرة، ومنها إلى مدينة الخضراء. وهي أولية شريفة... وهي مشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنوا واريفن[1] وهي عامرة آهلة على نهر ولها آبار عذبة وسوق جامعة ومنها إلى مدينة أشير...)[2].

وعرفت مليانة في العهد الزيري خاصة ازدهارًا مرموقًا في الزراعة والتجارة مما جعل الشريف الإدريسي يقول: (وهي مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة وكروم وبها من السفرجل كل بديع ولها سوق وحمام وسوقها يجمع إليه أهل الناحية)[3].

وتواصل ازدهارها وكثرت الثروة وتردد عليها الرحالون فأجمعوا على محاسن الموقع وكثرة المياه ورخاء العيش (ومن بين أخبارها في ذلك العهد ما قاله صاحب كتاب الاستبصار وهي مدينة حصينة في سفح جبل يسمى زكار وشعار هذا لجبل كله ريحان وينبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها مياه سائحة وأنهر وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعارًا، ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور)[4].

---

(١) في ملتقى وادي الفضة ونهر شلف شرقي الأصنام.

(٢) البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة دوسلان ص٦١-٦٩- مضيفًا أن اليعقوبي وفورنال أن مليانة ومدكري أو متغري Medkara ou metghara شيء واحد.

(٣) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

(٤) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص٥٨.

الصراع بين الموحدين وبني غانية في القرن ١٢م

عندما سقطت دولة المرابطين قام علي بن إسحاق بن علي صاحب الجزر الشرقية لمناهضة الموحدين ونقل المعارك إلى المغرب الأوسط ضد الدولة الجديدة مستعينًا ببني هلال وببعض القبائل البربرية وبعد ما استولى على بجاية في شعبان ٥٨٠هـ/ نوفمبر ١١٨٤م زحف نحو وادي الساحل متجهًا نحو الغرب فدخل مدينة الجزائر وعين على رأسها يحيى بن أخيه طلحة، ثم واصل الزحف نحو الغرب إلى أن استولى على موزاية ومليانة.

ثم توقف لأحد السببين من قبل لعدم انضمام قبائل مليانة في صفوفه، وقيل: لأن السلطان أبا يوسف يعقوب غادر الأندلس والتحق بالمغرب لمحاربة بني غانية وترك علي بن إسحاق بمليانة واليًا يسمى: يدر ابن عائشة من قبله، ثم رجع إلى النواحي الشرقية[1].

وأرسل الخليفة أبو يوسف يعقوب، جيشًا عرمرما لمطاردة بقايا المرابطين فثار أهل مليانة، وحرصوا على طاعة ابن غانية وبايعوا من جديد الموحدين ولم يستطع ابن غانية مواجهتهم فغادر مليانة فارًا بين جبال الناحية إلى أنهم ألقوا عليه القبض وقتلوه وبقيت مليانة تحت أمر بني منديل.

---

(١) تابع عبد المؤمن فتوحاته بالجزائر بعد ما أسلك منها جميع أعمالها الغربية فتقدم إلى الشرق وغزا نواحي ولشريس واحتل مليانة سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م (وانتهى حكم المرابطين بالمغرب الأوسط).

عهد دول المغرب

كانت مليانة طيلة قرنين كاملين موضوع نزاع وسبب حروب بين الحفصيين الزيانيين وبني مرين وكانت الضغائن بين مرين وبني عبد الواد قديمة ناشئة عن الجوار في المواطن، ثم الملك، وعن المنافسة في الاستقلال برياسة زناتة.

فلما احتضر يغمراسن أوصى خلفه بمسالمة مرين... ولكن مرين لا يرضيها مقاسمة بني عبد الواد رئاسة زناتة فكانت تتجنى عليهم وكانت أيام السلم بينهما هي أيام اشتغالها بفتن داخلية.

ففي القرن الثالث عشر تولى أبو محمد عبد الله الحفصي قيادة الناحية الشرقية. مستقر في تونس ومنها واصل الحرب ضد يحيى بن غانية في منتصف سنة [illegible]هـ/ ١٢٢٧م، ثم انتقل إلى مليانة مقر ابن غانية وطرده منها فاضطر يحيى [illegible] الفرار بعيدًا إلى أن وصل إلى سجلماسة غير أنه عاد إلى مليانة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٧م فتوفي في ضواحيها.

ولما استوثق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زياد واستفحل سلطانه بها طمع في التغلب على أمصار المغرب الأوسط فزاحم بني توجين وبنى منديل فاستغاثوا ببني حفص.

فنهض أبو زكرياء الحفصي وغزا تلمسان وتوقف بمليانة فعقد للعباس بن منديل على مغراوة، فعقد العباس السلم مع يغمراسن ولما توفي العباس قام بالأمر بعده أخوة محمد بن منديل فصلحت الحال بينه وبين صاحب تلمسان ونفر معه بمغراوة إلى غزو المغرب سنة (كلدمان) وهي سنة سبع وأربعين

وستمائة ٦٤٧ وهزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعاودوا شأنهم في العداوة.

وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية وكان من خبر هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملياني[1] كان كبير وقته علمًا ودينًا ورواية، وكان عالي السند في الحديث، فرحل إليه الأعلام وأخذ عنه الأئمة، وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة فانتهت إليه رئاسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه، ونشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية، وكان جموحًا للرياسة طامحًا إلى الاستبداد، وهو مع ذلك خلو من المغارم، فلما هلك أبوه جرى في شاو رئاسته طلقًا، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الوادي من الفتنة وحدثته نفسه بالاستبداد ببلده فجمع لها جراميزه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر الحفصي سنة تسع خمسين، وبلغ الخبر إلى تونس، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين في جملته (ذون الريك بن هراندة) من آل اذ فونش ملوك الجلالقة، وكان نازعًا إليه عن أبيه في طائفة من قومه، فنازلوا مليانة أيامًا وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي الملياني، فسرب إليهم جندًا بالليل، واقتحموها من بعض المداخل، وفر أبو علي الملياني تحت الليل، وخرج من بعض قنوات البلد فلحق بأحياء العرب ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف من بطون زغبة، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة تونس وعقدوا لمحمد بن منديل على مليانة، فأقام فيها الدعوة الحفصية على سنن قومه، ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين لخمس عشرة من ولايته، قتله أخواه ثابت وعايد بمنزل ظوا عنهم بالخميس من بسيط بلادهم، وقتل معه عطية بن

(١) انظر: فيما بعد ترجمة هذه الشخصية البارزة.

أخيه منيف، وشاركه ثابت في الأمر واجتمع إليه قومه، وتقطع بين أولاد منديل، وخشنت صدورهم، واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم، وداخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنه من مليانة ويشد عضده على رياسة قومه، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين، ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الأمر فتم لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة، واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه، ثم تناغى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر فاتفق ثابت وعايد أولاد منديل على أن يحكماه في تنس، فأمكناه منها سنة اثنتين وسبعين على اثنى عشر ألفًا من الذهب.

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين، فاستقبل ثابت بن منديل برياسة مغراوة، وأجاز عايد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبيه زيان بن عبد القوي، وعبد الملك بن يغراسن فحول زناتة، واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يغمراسن ونبذ إليه العهد، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة إحدى وثمانين بين يدي مهلكه ولما هلك يغمراسن وقام بالأمر ابنه عثمان، انتقضت عليه تنس، ثم ردد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرًا على ما بأيديهم وملك المدية بمداخلة... بني المدية أهلها سنة سبع وثمانين.

ولم يزل عثمان مراغمًا إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين، فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها وألجأهم إلى الجبال ودخل ثابت بن منديل إلى برشك مما نعادونها فزحف إلى عثمان وحاصره بها، حتى استيقن أنه المحيط به ركب البحر إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريخًا سنة أربع وتسعين فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه، وأقام بفاس.

وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمدًا للأمر في قومه وولاه عليهم لعهده واستبد بملك مغراوة دونه ولما انصرف أبوه للمغرب أقام هو بإمارته على مغراوة، ثم مات بعد مدة من وفاة أبيه، فخلفه شقيقه علي فقام عليه أخواه وحاربوه.

وعندما نهض يوسف بن يعقوب إلى تلمسان سنة ٦٩٨هـ وحاصرها، عقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويغرن بن منديل، وبعث معه جيشًا فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة ٦٩٩هـ- ١٢٩٩- ١٣٠٠م ووجد راشد في نفسه إذ لم يوليه على قومه، وكان يرى أنه لا حق بنسبه وصهره فنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة، ودس إلى أوليائه في مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة فأخذ السير ولحق بهم فافترق أمر مغراوة وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويغرن بازمور من ضواحي بلادهم فقتله واجتمع عليه قومه وجرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر.

ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م وانعقدت السلم بين حفيده أبي ثابت وبين أبي زيان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم، وبعثوا في حاميتهم وعمالهم وأسلموها لعمال أبي زيان، وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده، وزحف إلى مليانة فأحاط بها، فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان وصارت مليانة وتنس له، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد.

ثم كان مهلك أبي زيان قريبًا، وولي أخوه أبو موسى بن عثمان، فاستولى على المغرب الأوسط فملك تافر كينت سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٨م وملك بعدها مليانة والمدية، ثم ملك تنس وعقد عليها لمسامح مولاه.

مليانة في العهد التركي

في بداية القرن السادس عشر قدم إلى الجزائر إخوان وهما عروج وخير الدين، وبعد ما استوليا على مدينة الجزائر نهض عروج لبسط نفوذه نحو الجهات الغربية من البلاد.

فاحتل ما بين ١٥١٦و ١٥١٧ مليانة وتنس رغم مقاومة صاحب الإمارة: حميد العبد، وكانت مليانة في هذا العهد التركي تابعة لبايلك العرب وعاصمته مازونة ثم عندما أعيد تنظيم الإيالة إداريًّا أصبحت مليانة تابعة لدار السلطان وتحت حكم الباشا مباشرة.

وأدرك الأتراك أهمية مليانة استراتيجيًّا بما أنها تشرف على الطريق الواصل بين الجزائر ومدن بايلك الغرب مثل: تلمسان ومستغانم، ووهران فأسكنوا بضواحيها قبائل المخزن وجعلوا منها (قناق) أي: نهاية مرحلة[١] غير أن سكان الناحية وهم ريغة كثيرًا ما خرجوا على الحكم الجديد من أشهر هذه الثورات، ثورة (بو طريق) سنة ١٥٤٤ قتل فيها حاكم الترك بمليانة فخرج إليهم صاحب الجزائر وهو الحاج بشير فهزمهم وبدد جموعهم.

وفي النصف من القرن السادس عشر مرَّ بمليانة الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بالأسد الإفريقي فقال في شأنها: (مليانة تقع على قمة جبل وهو على أربعين ميلًا (٦٤كلم) من البحر أي: من شرشال، والجبل الذي بنيت فيه المدينة تتفجر منه عيون كثيرة وتكسوه غابات من شجر الجوز بحيث إن سكان الناحية لا يشترون هذه الفاكهة بل ولا يقطفونها.

---

(١) أرنيست ميرسي: تاريخ إفريقية الشمالية جـ٣ ص١٣٧.

وتحيط بالمدينة أسوار عتيقة، من جهة صخرة تطل على [illegible] عميق ومن جهة أخرى يوجد منحدر ينطلق من الهضبة إلى وادي [illegible] يذكرنا بمدينة نارني بقرب روما[1].

وحذا مارمول حذو الأسد الإفريقي في وصفه لمليانة وزاد:

إن ديار المدينة جميلة ونظيفة ولها كثير من العيون ويتعاطى كثير من سكانها إلى النساجة وصنع السروج العربية والأكواب الخشبية الرائجة في كل أنحاء البلاد.

وتحيط بالمدينة بساتين واسعة حيث يوجد أحسن ليمون في المغرب كله، وكذلك البرتقال الذي ينقل إلى تنس وإلى مدن أخرى...[2].

تراجم مليانة في القرن الثالث عشر

كانت مليانة في ذلك العصر مركز إشعاع ثقافي وإنتاج أدبي شهد بذلك أصحاب التراجم والرحلات من علمائها الذين كانت لهم المنزلة الأولى:

١- علي بن عمران بن موسى المليـاني (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) (أبو الحسن عرف بابن أساطير: فقيه أصولي كان له معرفة بأصول الدين والتصوف وعلوم الحكمة، من أهل مليانة، سكن بجاية وبها كانت وفاته سنة السبعين وستمائة (٦٧٠). ذكره الغبريني وقال: كان له علم بالوثيقة وكان من عدول بجاية وخيارها).

---

(١) الأسد الإفريقي.

(٢) مارمول: وصف إفريقية جـ٢ ص٣٩٦-٣٩٧.

٢- أحمد بن عثمان ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م بن عبد الجبار المتوسي الملياني أبو العباس فقيه، مجتهد من أهل مليانة أخذ عن شيوخ بلده، ثم رحل إلى المشرق ولقي جماعة من الأعلام، وعاد وسكن بجاية وقرأ بها توفي بمليانة، له (تقييدات) على كتاب التلقين للإمام محمد بن علي بن عمر المازري المتوفى سنة ٥٦٣هـ.

شهدت مليانة في القرن الرابع عشر عدة غارات تجعلها تارة تحت حكم الزيانيين وأحيانًا تحت سلطة غيرهم، وقد نهض إليها أبو سعيد عثمان سنة ١٣٤٨م وأسس من جديد إمارة تابعة للزيانيين منها مليانة التي كانت خاضعة للمرينيين طيلة اثنى عشر سنة.

وفي سنة ١٣٧٥م طرد أبو حمو الثعالبي من الجزائر وبسط نفوذه عليها غير أن بهذا الأخير تغلب عليه أبو العباس المريني فطرده بدوره، واضطر إلى الالتجاء إلى جمال بني بوسعيد فانجده ابنه أبو تشفين واحتل مليانة والتيطري سنة ١٣٨٧م.

وفي أواخر هذا القرن سنة ١٣٩٤م حدث بين أبو تاشفين الثاني وصاحب فاس نزاع فنشبت اضطرابات بين تلمسان وفاس وتصل المريني إلى احتلال تلمسان ومنها واصل الزحف إلى أن استولى على مليانة ودلس والجزائر.

وفي القرن الخامس عشر ١٥ أصبحت فيه مليانة والمدية وتنس تكون إمارة مستقلة منفصلة عن تلمسان وبجاية لكن لمدة قصيرة إذ قام أبو عبد الله محمد بن المتوكل صاحب تنس فجمع سنة ١٤٦١م جيشًا عظيمًا وانطلق من مدينة مليانة فاستولى على بني راشد ومستغانم ومزغريان إلى أن دخل تلمسان.

غير أن أهل مليانة احتفظوا بشبه استقلالهم لبعدهم عن تلمسان وبقوا على هذه الحالة إلى أن احتل عروج الناحية وذلك سنة ١٥١٧.

ترجمة أحمد بن علي الملياني (المتوفى ٧١٥هـ/ ١٣١٥م)

أحمد بن علي الملياني، أبو العباس: شاعر، كاتب من أهل مليانة، ثار عمه أبو علي بن أحمد الملياني -وكان من أعيان مليانة- على الحفصيين في أواخر المائة السابعة، ثم فرد إلى المغرب والتجأ إلى السلطان يعقوب المريني فأقطعه السلطان بلدة أغمات إكرامًا له، وكان أحمد ممن رحل مع عمه إلى المغرب بعد فراره، فأكمل دراسته بمراكش وأغمات وبعد وفاة السلطان يعقوب بويع لابنه يوسف، فاستعمل أبا علي على جباية الأموال، ثم نكبه وقتله واتخذ ابن أخيه أبا العباس أحمد صاحب علامته، فسعى أحمد إلى الأخذ بثأر عمه ودبر مؤامرة ضد الواشين به حتى قتلهم، ثم فر إلى تلمسان والسلطان يوسف المريني محاصرًا لها.

وفي نحو السنة ٧٠٣هـ غادر تلمسان ولحق بمدينة غرناطة بالأندلس واستقر بها إلى حين وفاته سنة ٧١٥هـ، وذكره لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة وقال (صاحب العلامة) بالمغرب، الكاتب الشهير البعيد الشأن في اقتضاء الثرة، المثل المضروب في العفة، وقوة الصريمة، ونفاذ العزيمة، كان نبيه البيت، شهير الأصالة رفيع المكانة على سجية غريبة كانت فيه من الوقار والانقباض والصمت، أخذ بحظ من الطب، وحسن الخط مليح الكتابة قارضًا للشعر يذهب نفسه فيه كل مذهب فتك فتكة شنيعة أساءت الظن بحملة الأقلام على مر الدهر وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة، فلم يعدم برًّا ورعيًا مستمرًا حتى أتاه حمامه وانصرمت أيامه. (وعن لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة)

ترجمة أحمد بن يوسف الملياني

قال في (سلوة الأنفاس)[1] هو الشيخ الوالي الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم المحصل السالك الناسك المقرئ بالقراءات السبعة المحقق الحجة أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نسبًا ودارًا الملياني.

كان رحمه الله من أعيان مشائخ المغرب وعظماء العارفين أحد أوتاد المغرب وأركان هذا الشأن جمع الله له بين علم الحقيقة والشريعة وانتهت إليه رياسة السالكين وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره واجتمع عند جماعة من كبار المشايخ من العلماء والصالحين من تلامذته واشتهر ذكره في الآفاق شرقًا وغربًا.

وأوقع الله له القبول العظيم والعطف الجسيم في قلوب الخلق وقصده الزوار من كل حدب وتتابعت كرامته عليهم وظهرت أنواره لديهم وكان متواضعًا ورعًا زاهدًا يحبب الخلق في الطاعة ويحرضهم على الذكر ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، حتى تاب على يده خلق كثير وهداهم الله تعالى بسببه وهو من تلاميذ الشيخ زروق.

ولما حج شيخ شيخه المذكور وهو الشيخ الأوحد العلّامة الصالح أبو عبد الله الزيتوني نزل بموضع قريب من قلعته فأتى إليه فقبل الزيتوني رجليه، وقال له: قد أعطاك الله من قاف إلى قاف، فقال له الملياني: هذا قليل بل أعطاني أكثر.

وحكي أن بعض أصحابه قال له: إن سيدي عبد الرحمن الثعالبي قال: من رأى من رآني لا تأكله النار إلى سبعة، فقال الملياني: كذلك من رأى من رآني إلى

(١) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس - لمحمد بن جعفر الكتاني.

عشرة وحلق له مرة حلاق رأسه فقال له: لو لا خفت عليك من الناس لقلت جميع من يجلس في حجرتك لا تعدو عليه النار، وقال رضي الله عنه: دعوت الله في ثلاث فأعطانيها في ليلة واحدة: طلبته أن يرزقني العلم بلا مشقة فأعطاني علم الظاهر والباطن وطلبته أن يبلغني مبلغ الرجال فبلغني فوقهم وطلبته أن يريني المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فرأيته في اليقظة، وفتح الله عليَّ في علوم ببركته لم يطلع عليها غيري يعني من أهل عصره.

وعنه أيضًا قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين بابًا من العلم لم يعلم ذلك لأحد غيري أي: في عصري، وقال أيضًا: جميع من أكل معي أو شرب أو جالسني أو نظر فيَّ لا أسلم فيه غدًا يوم القيامة وسُئل رضي الله عنه عن السبحة هل يجوز أخذها باليمين فقال: نعم يجوز ذلك وهو كالمهماز للفرس ومن كلامه رضي الله عنه والله وثم والله من عرفني حتى يندم ومن لم يعرفني حتى يندم، وقال أيضًا: إنما ألمح بعض أصحابي لمحة فيبلغ بها مقام الأولياء.

وكلامه رضي الله عنه وأخباره ومناقبه كثيرة جدًا وقد استوفى بعضها الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ القلعي[1] النسب في تأليف له جمعه فيه بالخصوص سماه (بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار) وقد أكرمني الله تعالى بالوقوف عليه وهو في مجلد ضخم غاية[2] من أصحاب أبو حفص سيدي عمر الشريف الحسيني بالتصغير الشريف الجليل الوالي الصالح الحفيل وسيدي أحمد بن يوسف توفي سنة ٩٢٧[3] فيكون سيدي

---

(١) ولد بقلعة بني راشد سنة ١٥١٧ وتولى القضاء بها.

(٢) طبع بالجزائر سنة ١٣٤٥هـ.

(٣) يقول بوراس الناصري توفي أحمد بن يوسف سنة ٩٣١هـ -عجائب الأسفار.

عمر الشريف من أهل القرن العاشر وفي (نشر المثاني)[1] لسيدي عمر من صالحي فاس وروضته بها في ربوة عدوة فاس الأندلس متصلة بروضة لسيدي غالب يفصل بينهما المحجة.

وفي (كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) تأليف الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي ما نصه: قال في (الدوحة): كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغولا في محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم إلى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له: ابن عبد الله فإنه تزندق وذهب مذهبًا باطلًا على ما حكى عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب، وأهل الأهواء من الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة، وسمعت بعض الفضلاء يقول:

إنه قد ظهر في حياة الشيخ أبي العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة.

قال صاحب (الدوحة): ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم، وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أخوال الشيخ في شيء، وإنما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم وإنما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط والشيخ الشبطي وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافلالت وأنظارهم كلهم من أهل الفضل والدين الأئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اهـ

---

(١) محمد القادري-١٢هـ: ١٨م -نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.

وقال في (المرآة) ما نصه: والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشائخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية.

وكان كثير التلقين فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء فقال له: قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقدمنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبي: فوجدته أوسع مني دائرة.

قال صاحب المرآة[1]: وانتسبت إليه طائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم فما كان إلا إمام سنة وهدي مقتدى به في العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه وقد أظهروا شيئًا من ذلك في حياته فتبرأ منهم وقاتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم.

قال وحدثني شيخنا أبو عبد الله النيجي أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث الياصوتي لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم إليه وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له: إن الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه فقال: أنا تائب إلى الله كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة (٩٢٧) لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مرَّ والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ص: (٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠).

(١) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، لابن حميد محمد العربي الفاسي.

مليانة في رحلة العبدري[١]

وزارها في تلك المدة الرحالة المغربي العبدري فقال: (مليانة: وقد ألقي جمل الإعياء جرانه وغنى بلبل الغناء ألوانه إلى البلدة الخصيبة مليانة، وهي مدينة مجموعة مختصرة وليست مع ذلك عن أمهات المدن مقصرة أشرفت من كثب على وادي الشلف، واستشرقت نسيم طرفنا من شرف روضة جمة الأزهار والطرف، برعت في سفح جبل حما حماها أن يرام، وشرعت في أصل شهر يشفي إليهم من الهيام، شاق منظرًا وراق مخبرًا وشفي الظماء موردًا ومصدرًا يشتهي الناظر إليه وهو ريان الشروع، ويقول: لو رش به لأفاق المصروع كان حصاءه جمان والماء من رقته دموع، وبها جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوضه من حلي عطلا وأدي له من حكمته خطلا...

وفي مليانة قد ذبت شوقًا	بلين العطف والقلب القسي
كذا مليانة أبدت عويلًا	لأهل ضمهم جرف الأتي[٢]

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان، وجمع كلمة زناتة وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين وضم إلى مملكته مليانة وتنس ونواحيها.

وانتقضت العمالات والأطراف، وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى توثب علي بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف، وتملكها وتغلب على

---

(١) العبدري -محمد بن محمد بن علي- : الرحلة المغربية من المغرب الأقصى إلى المشرق، بداها سنة ٦٨٨هـ -١٢٨٩م.

(٢) البيت الأول للحسن بن لفكون القسنطيني والثاني منها للعبدري.

أمصارها: مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية، وأرهفوا خدهم لمن طالبهم من القبائل.

وكانت مليانة في ذلك العصر حدًّا فاصلًا بين مملكة الزيانيين غربًا وبين مملكة الحفصيين شرقًا ومن أشهر قبائل الناحية.

وقال عنها الرحالة الإنكليزي شاو Shaw: (من يرى المدينة من بعيد يظن أن بها منازل ضخمة وجميلة وآثارًا قديمة عديدة حتى إذا طلع إليها الزائر خاب ظنه... فهي قرية لا مدينة وديارها مغطاة بالقرمد خلافًا للعادة الجارية في البلاد والتي تفضل السطوح... وأحسن شيء هناك -زيادة على المياه المتدفقة- هو المنظر الرائع المطل على أراضي جندل ومطماطة وغيرها من القبائل إلى المدينة... وفي فصل الربيع يقدم إليها من الجزائر والبليدة والنواحي جموع من الناس يزورون ويتبركون بوليها سيدي أحمد بن يوسف....)[1].

وهكذا احتفظت مليانة بمكانتها طيلة العهد التركي في الجزائر ينزل بها المسافر عابر البلاد من المشرق إلى المغرب أو العكس طلبًا للراحة أو متشوقًا للاطلاع.

قال الشيخ ابن مسايب[2] التلمساني في رحلته إلى مكة:

اقطع المشرع وتهدف ... وبات من ثمة لا تلهف
زور سيدي أحمد بن يوسف ... وبات مليانة داخلها
قوم قبل طلوع الغرار ... وأوعد المدفون في زكار
زورو وادخل عنده للدار ... وعدته لا بد تعطيها

---

(١) شاو Shaw نفس المرجع ص٢٨٢-٢٨٤.

(٢) من شعراء الملحون في القرن الثامن عشر.

ويعطينا فانتوردي بارادي Venturedeparadis بعض المعلومات تتعلق بإدارة السلطان في ذلك العهد (كان على رأس كل مدينة هامة مثل المدية والبليدة وبوفاريك ومليانة وبني جياب قائد تركي يعين فيدفع -في مقابل التسمية- مبالغ من المال وكميات من المنتوجات والهدايا للداي)[١].

ويتحدث هذا الفرنسي عن فلاحة الأرز في الجزائر فيقول: (يتعاطى ناحية مليانة إلى فلاحة الأرز وكذلك ناحية مينا (دائرة غيليزان) غير أن أرز مليانة أجود من الآخر).

وتنتج الناحيتان سنويًّا ما بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ قنطار تكفي المستهلكين وأصبح الناس لا يستوردون الأرز من مصر)[٢].

وفي أواخر الثامن عشر حررت وهران (١٧٩٢) من الاحتلال الإسباني فقام الباي محمد الكبير ببناء ما انهدم من الديار وبإعادة السكان إلى ديارهم وتنشط التجارة والصناعة فاستقدم من يقوم بذلك من تلمسان ومليانة خاصة.

---

(١) المجلة الإفريقية سنة ١٨٩٥.

(٢) نفس المرجع.

المراجع العربية

١- ابن حوقل (أبو القاسم محمد) كتاب صور الأرض جـ١.
٢- البكري (أبو عبيد الله) القرن ١١م / ٥هـ السالك والممالك.
٣- الإدريسي (أبو عبد الله محمد المعروف بالشريف) ١٠٩٩-١١٨٠ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
٤- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار.
٥- العبدري (محمد بن محمد بن علي) ٧-١٣ الرحلة المغربية ٦٨٨-١٢٨٩.
٦- ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر.
٧-ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٧ ص١٥٥.
٨- محمد عبد الجليل التنسي (نظم الدر والعفيان في دولة آل زيان).
٩- عادل نويهض: معجم أعلام الجزئر.
١٠- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف.
١١- محمد عبد القادر: تحفة الزائر.

II. Biblographie occidentale

G. yver Miliana : Encyclopédie de i`lslam - III. 565 G. yver.

Léon l`Africain : description l`Afrique- II éd. Epaulard.

Shaw : Travels oxford 1738.

L. Gelvin : Le Magreb central Á L`époque des zirides. (paris 1957).

Trumelet : L`algérie légendaire.

Ge azam : Abdelkader.

A.Bel : les banou ghania. Paris 1903.

E. mercier : histoire de l`afriqua septentionnale 3.v.

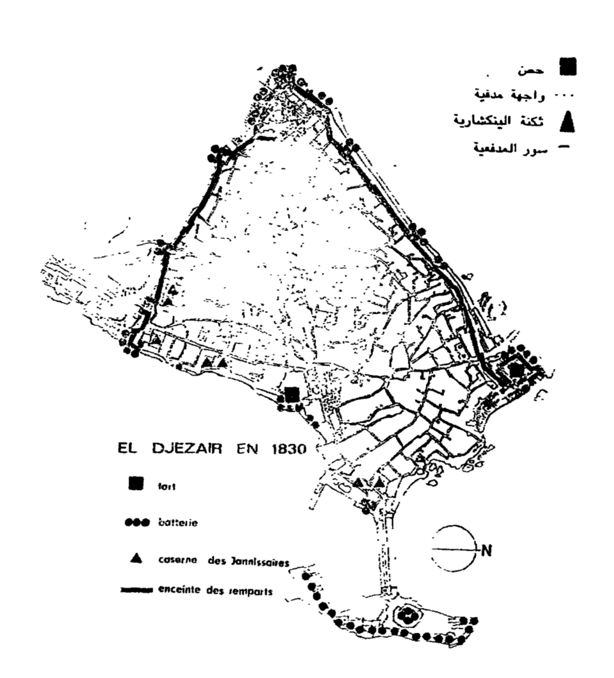
Ch. A. julien : Histoire de l`agérie contemporaine 1.v.

Histoire de l`agérie du nord 2.v.

Articles de revues

- Les righa de la subdivision de miliana- julienne. Ra 1856.
- Miliana- led brun- ra.1864.

COMEDOR


حصن
واجهة مدفية
ثكنة الينكشارية
سور المدفعية
EL DJEZAIR EN 1830
fort
batterie
caserne des Jannissaires
enceinte des remparts
N

مولاي بلحميسي

مدينة المدية

عبر العصور(1)

١ - اسمها الحقيقي ومعناه

اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة، وتعددت الروايات في صيغة الاسم وفي نسبه وتاريخه، فهل المدينة من Lambdia القرية الرومانية التي سبقت في نفس المكان (مدينة المدية)؟

وهل هي كلمة بربرية كما زعم بعضهم وقال: إن معناها العلو، والأرض المرتفعة؟

وهل رواية ابن خلدون (كتاب العبر جـ٧) هي الصحيحة وقد قال في حديثه عن عثمان بن يغمراسن الزياني ٦٨١-٧٠٣هـ.

(نهض عثمان بن يغمراسن إلى المدينة وبها أولاد عزيز من توجين (وهم بربر من زناتة) فنازلها وقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بالمدية وإليهم تنسب.

وفي موضع آخر يقول ابن خلدون: لمدية... هو اسم بطن من بطون صنهاجة وقد استولى محمد بن عبد القوي (أيام بني عبد الوادي) على حصن هذا البطن المسمى بأهله ونطق بعضهم بلمدونة والنسبة إليها لمداني.

---

(1) عن مجلة الأصالة: العدد ٢ ربيع الأول ١٣٩١ ماي ١٩٧١.

٢- تأسيس المدينة

متى كان؟ ومن المؤسس الحقيقي لها؟

لا نعرف شيئًا عن ذلك بالضبط.

وأما رواية من قال: إن بلكين بن زيري هو الذي أسسها حوالي ٢٥٠هـ- فغير صحيحة، فقد وجدت المدينة قبل العهد الزيري بكثير.

فعندما قال الشيخ سيد أحمد بن يوسف (ولد بقلعة بني راشد بين ١٤٦٨ و١٤٧٥) توفي سنة ٩٣١هـ - ١٥٢٤م ودفن بمليانة): المدية، والمهدية (يدخلها الشر ويخرج منها العشية، لو كانت امرأة ما نأخذ إلا هي... زعم بعضهم أن المهدية معناه أن البلدة قديمة عتيقة وأنها بنيت في مكان آخر، ثم نقلتها الملائكة إلى مكانها هذا.

وقد أسس الرومان في عهد لا يذكرونه مدنًا كثيرة بها كان يسمى Meurarnia càsarienne مثل (الجزائر المدينة) Rusguniae وتبازا Upassa وتنس Cartenae كما أسسوا مدنًا أخرى بنومديا شرق القطر ووسطه مثل Auzia سور الغزلان) Tamarammaa قرب البرواقيا و Lambdia لمدية.

وقال أبو عبيد البكري الأندلسي (من رجال القرن (٥هـ/ ١١م) في كتاب المسالك والمالك (لمدية... بلد جليل قديم) وقال الحسن بن محمد الوزاني الفاسي الأسد الغرناطي Léon l´africain: إن الأفارقة القدماء بنوا هذه المدينة في حدود ما كان يعرف بنومديا Numidiaوقال: Marmol مرمول (مؤرخ أسباني من القرن ١٦ عاش مدة في المغرب الأوسط في جيوش النصارى) إن المدينة عتيقة قديمة أسست في سهل خصب جميل، فيؤكد كل ما ذكرناه- أن المدية سبقت بني زيري وأنها أقدم من أشير.

٣- المدية في القرون الوسطى إلى بني زيان

أجمع الكتاب على أن زيري بن مناد (في أيام الخليفة الفاطمي الثاني أبو القاسم القائم ٣٢٢-٣٢٤هـ- ٩٣٤-٩٣٦م) أسس أشير، قرب حصن عرف فيما بعد بمنزه بنت السلطان على جبل تيطري (ولعله الكاف الأخضر اليوم).

وكان تأسيس أشير حوالي ٣٢٤هـ -٦- ٩٣٥م

وبنوا زيري من صنهاجة ومن أعوان الفاطميين على الخوارج وامتدت دولتهم في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) من تيارت غربًا إلى الزاب شرقًا وضعت مراكز مثل الجزائر ومليانة والمدية، وفضلهم الفاطميون على غيرهم؛ أقدر الناس على محاربة بدو الزناتة جيرانهم في الناحية الغربية ولما تسلم زيري بن مناد سنة ٣٤٩هـ -٩٦٠م حكم تيارت من يد الفاطميين، أذن لابنه بولوغين بتأسيس ثلاثة مراكز (الجزائر- مليانة- المدية ما بين ٣٥٠هـ و ٣٦٠هـ).

وفي الواقع فإن بولوغين لم يؤسس هذه المدن التي كانت موجودة من قبل، بل أدخل عليها تعديلات وإصلاحات وبنى بها وشيد.

يقول ابن خلدون في حديثه عن المدية في ذلك العهد وكان المختط لها بولوغين بن زيري (كتاب العبر جـ٧).

حتى إذا كان القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي احتل الثعالبة (وهم بطن من المعقل) الناحية بين تيطري والمدية كما حكم أبو الفتوح بن حنوش أمير سنجاس نواحي المدية في نفس القرن.

٤- المدية في عهد بني زيان أصحاب تلمسان

قال ابن خلدون في الخبر عن أبي يحيى يغمراسن بن زيان (مؤسس هذه الدولة بتلمسان) مع مغراوة وبني توجين (وهم زناتة منتقلون دفعهم التيار نحو المغرب وأصبحوا في القرن السابع الهجري أي: الثالث عشر الميلادي ما بين الونشريس والسرسو والمدية ولهم قلعة بني سلامة التي أوت ابن خلدون وعندما انتشر عهد الخلافة (خلافة الموحدين بمراكش حوالي ٦٤٦-١٢٤٨م). وكثر الثوار والخوارج بالجهات... تغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي (صا) وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلدة المدية إلى جبل الونشريس...)

وبادر ملوك تلمسان بالاستيلاء على المدية بما لها من أهمية استراتيجية -إذ هي في طريق الجنوب وفي طريق الشرق الجزائري، متغلب بنو عبد الواد على عامة أوطان بني توجين وكانت حالتهم مع هؤلاء تختلف بين الحرب والسلم ولما استولى محمد بن عبد القوي على المدية وعلى ضواحيه أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه وجعلها لهم موطنًا وولاية.

وجاء في خبر أبي سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ-١٢٨٢-١٣٠٣م) مع مغراوة وبني توجين ما يلي:

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق المريني صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد بني توجين ومغراوة (من زناتة) فصارت بلاد بني توجين كلها من عمله... ثم نهض بعدها إلى المدية (سنة ٦٨٨) وبها أولاد عزيز (من توجين) فنازلها وقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بلمدية وإليهم تنسب فهؤلاء المدية غدروا- حسب قول ابن خلدون بأولاد عزيز ومكنوا

السلطان الزياني من البلدة (فقام يحيى بن عطية كبير بني تغرين ومال إلى السلطان المريني المناهظ لبني زيان وبايع يوسف بن عبد الحق ورغبه في ملك الونشريس ثم عاد إلى بلاد بني توجين فشردهم عنها وانتهى إلى المدية فافتتحها واختط قصبتها وبعد مدة بعث أهل المدية بطاعتهم للسلطان عثمان بن يغمراسن فقبلها منهم وأوعز ببناء قصبتها ....) ابن خلدون.

ولما توفي أبو سعيد هذا خلفه ابنه أبو زيان ٧٠٣-١٣٠٤م.

فتغلب على المدية... وانتهى إلى جبل حصين بن زغبة في جبل التطري... ثم أجلبوا على المدية... وملكها أبو زيان... وعاد حصين وامتلك نواحيها وامتنع عليهم مصرها... ولما هلك أبو زيان ١٣٠٨/ ٨-٧٠٧هـ قام أخوه أبو حمو وأراد أن يقسم أعماله بين أولاده فعين المنتصر على مليانة ونواحيه وأبا زيان على المدية وما إليها من بلاد حصين وعندما رجع السلطان المريني أبو الحسن من تونس ونزل بالجزائر وأراد أن يحارب بني زيان، أنظمت إليه قبائل من المغرب الأوسط مثل الثعالبة وصاحب الونشريس (وهو نصر بن عمر بن عثمان) وسويد وزناتة وانضم لأبي ثابت الزياني مغراوة.

فأخذ أبو ثابت على منداس وخرج على السوسو ولحق به مدد السلطان أبي عنان المريني (الخارج على أبيه) فشرد الزياني وأثار الأعراب ولحق أحياء حصين بجبل التيطري ثم عطف على المدية ففتحها وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولي وخلع السلطان المريني أبي عنان (أباه أبا الحسن وزحف إلى تلمسان وحاصرها سنة ٧٣٢-١٣٣٢ فهزم ملكها وأباد بني عبد الواد ونزل المدية، ثم أطل على بجاية. (ابن خلدون).

ودب الضعف في دولة تلمسان وأصبح ملوكها في أواخر القرن ١٥م لا يستطيعون قمع الفتن ولا منع الأعراب من غزو أعمالهم. فانفصلت المدية عنهم ومالت إلى أمور تنس في مطلع ١٦هـ وأمير تنس من الزيانيين استقر بعيدًا عن تلمسان.

وكان أمير تنس أقدر من ملوك تلمسان على حماية المدية؛ لأنه أقرب إليها وبيده ما ليس بيد ابن عمه هناك.

وفي هذه المدة مطلع السادس عشر- زار المدية الرحالة الشهير الحسن بن محمد الوزاني الفاسي والمعروف عند الغربيين Léon l´africain فقد أعجب بالمدية وبموقعها وبأهلها فالمدية مبنية في سهل جميل خصب تسقيه أنهار كثيرة وأهلها أغنياء يسكنون دورًا جميلة وقد استقبلوني بحفاوة وإكرام كأنني أمير المدينة... وإذا زارهم أجنبي ذو علم ومعرفة فإنهم يعظمونه ويبجلونه ويبقونه عندهم لفصل ما بينهم من القضايا ويعملون بقوله ويصوبون رأيه... وأقمت عندهم شهرين...

٥- المدية في العهد التركي (١٥١٦ إلى ١٨٣٠)

ما هو سبب دخول الأتراك إلى المغرب الأوسط؟

في القرن السادس عشر عندما عمت الفوضى في المغرب ودب الضعف في الدول القائمة -بنو حفص في تونس وبنو عبد الواد في تلمسان وبنو مرين في فاس- عزم الإسبان على ضرب الإسلام في دياره بعد إخراجه من آخر مَصر من الأندلس سنة ١٤٩٢ بسقوط غرناطة، فاحتل النصارى المرسى الكبير ١٥٠٥ ووهران ١٥٠٩ وبجاية ١٥١٠ واحتلوا كذلك الصخرة الوسطى Le

penon d´argel ١٥١٠ فضاقت حالة المسلمين لا سيما بمدينة الجزائر فاستدعى شيخها سالم التومي وأعيانها الأخوين عروج وخير الدين لإعانتهم على الإسبان وقد اشتهر الأخوين في تونس بالحزم والإقدام والجرأة في البحر وإنقاذ المسلمين.

فجاء عروج إلى الجزائر وانتصب ملكًا على المدينة وانطلق في بسط نفوذه داخل البلاد، واحتل عروج المدية بعد انهزام أمير تنس حماد بن عبيد بالمتيجة حوالي ١٥١٧، ثم ترك بالمدية حامية مؤلفة من الأتراك وبعض الأندلسيين وعاد إلى الجزائر.

وخلفه أخوه ١٥١٨ وألحق الإيالة بالمملكة العثمانية فزوده السلطان العثماني بالمدد فعزز خير الدين المراكز الهامة في البلاد بتأسيس قواعد عسكرية تسمى (التوبة) وبعد ذلك فكر الأتراك في إدارة هذه البلاد فقسموها إلى بايلكات.

(١) دار السلطان (تقريب عمالة الجزائر اليوم ودلس) يحكمها الداي المقيم بالجزائر.

(٢) بايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم المعسكر ثم وهران.

(٣) بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة.

(٤) بايلك الجنوب وعاصمته المدية.

وكان هذا أصغر الثلاثة وقد أدخلت عليه تنظيمات عديدة ما بين ١٥١٨ و ١٧٧٥.

وقد نظمه للمرة الأولى حسن بن خير الدين (الذي عين على رأس الإيالة مرارًا بين ١٥٢٦ و١٥٦٧) وأصبح هذا البايلك يسمى ببايلك التطري متى؟ فإننا لا نعرف التاريخ بالضبط.

ولكن بين مرسوم في سنة ١٥٤٨م / ٩٥٥هـ بمقتضاه يعفى الباي رجب الشرفاء من دفع الغرامة والضرائب وكان باي التطري- في أول الأمر يقيم تارة بالمدية وتارة ببرج سباوو حيث توجد للقادة الأتراك مزارع وبساتين بوادي أيسير Isser وكانت قبائل وادي سيباوو إلى ١٧٧٥ تابعة لبايلك التطري.

وعين على رأس هذا البايلك – بين ١٥١٦ و ١٧٧٥ حوالي ١٨ بايًا نذكر منهم:

رجب	١٥٤٨
شعبان	١٦٣٣
فرحات	١٦٦٣
عصمان	١٧٦٣
سفطة	١٧٧٥

ولم يتركوا في ميدان من الميادين ما يذكرون به واشتهر من بين هؤلاء الباي عصمان الثاني والباي سفطة.

فأما عصمان فإنه عُين على التطري سنة ١٧٦٣ واشترى مزارع عرفت فيما بعد ببلاد سيدون عند أولاد حسن بن علي كما عرفت بحوش عصمان وبنى مخازن ومستودعات واصطبلات، ومنه كانت تنطلق الغارات على النواحي الجنوبية.

وكان عصمان يغزو القبائل حتى وقع يومًا في قبضة أولاد سيد أحمد (وهم فرع من أولاد نايل) فقتلوه بجنوب زاغر توجد إلى يومنا كدية تعرف بكدية الباي.

وامتنع من خلفه من غزو قبائل الجنوب إلى أن عين الباي سفطة فحاول تجديد الغارات على أولاد نايل فلقي حتفه أثناء معركة، وحدث في سنة ١٧٧٥ تعديل على إدارة بايلك التطري فبعد ٢٢٧ سنة من الحكم التركي بقيت مشاكل هامة بدون حل.

(١) خروج قبائل سيباو عن الطاعة بصفة مستمرة.

(٢) ثورات قبائل الجنوب غير المنقطعة.

(٣) فشل الغارات على الجنوب.

(٤) انسحاب عدد من القبائل أعلنت استقلالها.

فأعاد الأتراك النظر في نظام البايلك الإداري وكونت بلاد القبائل بين أيسر وخشنة قيادة Caidat) يحكمها أغا الجزائر –بعد أعوام جرد بايلك التطري من ناحية طابلات والبويرة– وأصبح مقر باي التطري واحدًا في المدية كما أصبح للبايلك حدود معينة:

(١) في الشمال قبيلة مزايا وبني صالح فوق البليدة وبني مسعود.

(٢) وفي الشرق قبيلة بني سليمان وعريب.

(٣) وفي الغرب قبيلة جندل وأولاد خليفة.

وقسم البايلك إلى أوطان (لحل القبيلة... يحكم بعضها أغا المغرب مثل مزليبيا وعريب وبعضها الآخر خوجة الجبل وبنو حضو في الديوان ومسئول مالي (مثل زناخة وعبادلية) وأولاد سيدي عمر وأولاد سيدي موسى وتسمى هذه القبائل العزل تدفع جميع أنواع الضرائب وتقوم بجميع الخدمات لقائده الباي أو الداي.

وكان على المدية حاكم تركي يعينه داي الجزائر وكان هذا الأخير يخشى سلطة باي التطري والمدية قريبة من الجزائر). وتمتد سلطة هذا الحاكم إلى ضواحي المدينة وما بقي قسم إلى تل أعلى وتل أسفل أو تل جنوبي وكان الأول يضم قبائل بني حسن:

حسن بن علي -يعقوب- وزرة- عوامري ريغة- هوارة.

وهذه القبائل مستقرة تتعاطى الفلاحة.

والثاني: يضم قبائل الجنوب المتنقلة في بعض الفصول الخاضعة لشيوخها المحليين.

دواير-تطري- أولاد حمزة.

أما قايدة ديرة فهي منطقة خاصة بشرقي البايلك مركزها سور الغزلان حيث كانت توجد حامية تركية ويضم قايدة ديرة:

أولاد عبد الله -أولاد بركة- أولاد دريس وأخيرًا كان جنوب البايلك يضم قبائل من الرحالة:

زيانة- عبادلية- أولاد نايل- أولاد سيدي عيسى.

وأسس الأتراك قايدة أولاد المختار في الجنوب حتى يكون حاجزًا بينهم وبين البدو ويمنع هؤلاء من غزو الشمال وعين الدو مصطفى بن سليمان أوزناجي (من ١٧٧٥ إلى ١٧٩٤) ومطماطة وجندل وبعض قبائل شلف.

وتقدمت نحو المدية لطرد الأتراك منها. فتصدى لهم الباي بقومه وشرد جمعهم وجئ بزعمائهم فقتلوا وعلقت رءوسهم على أسوار المدينة.

وبعد درقاوة تزعم التيجانية حركة محاربة الحكم التركي وحاول الباي حسن (١٨٠١) الاستيلاء على عين ماضي، ولم يستطع وكرر الحملة على التيجانية سنة ١٨١٨. وانتصرت دعاية التيجانية وكان آخر باي التطري هو مصطفى بومزراق ١٨١٩-١٨٣٠ وكان قبل تعيينه خليفة للباي فغزا أولاد المختار بالجنوب وأولاد أفرج وأولاد شعيب.

ويقال: إنه بنى جامع مزاري.

وكان ضابطًا ماهرًا وقد شارك في وقعة أسطاوالي Staoueli وبعد الهزيمة عاد إلى المدينة إلَّا أنه وجد الوضع قد تغير والأهالي قد ثاروا فنهبت البرواقية وبادرت وزرة بالاستيلاء على خيل الباي وبغاله الموجودة بجنان الباي فانسحب بومزراق من المدية مدة ثم عاد إليها، ثم غادرها والتحق بالإسكندرية وبها توفي.

(٦) المدية بعد ١٨٣٠

كانت المدن الجزائرية منذ القرن ١٨م في انحطاط مستمر فقدت نشاطها وحضارتها وخلت من عدد كبير من سكانها، فالجزائر مثلًا كانت من أعظم الأمصار في القرن ١٧ (١٠٠.٠٠٠) نسمة ولم يبق فيها إلّا ٣٠.٠٠٠حوالي ١٨٣٠م.

وافتقرت وهران وأقفرت من أهلها وأصبح هؤلاء ٩٠٠.

وكذلك شأن تلمسان منذ استيلاء الأتراك عليها (١٥٥٥). أما المدية فإنها مع قلة عدد سكانها (يتراوحون بين ٤٠٠ و٥٠٠ قد حافظت على أهميتها وعلى دورها السياسي والاقتصادي فهي عاصمة بايلك التطري -وهي قاعدة عدد كبير من الأتراك و الكلغلان- وهي في طريق تجاري بين الجنوب والشمال).

الحملة الفرنسية الأولى على المدية

من نتائج ثورة جوليت ١٨٣٠في فرنسا أن جيشها هنا أصبح يشعر بعدم مبالاة القادة والساسة بشئونه وأصبح الجزائريون بعد سقوط شارل العاشر (Charles x) يتوقعون انسحاب الفرنسيين من أرضهم وتساءل الجنود ما فائدة احتلال الجزائر العاصمة وحدها.

وعين كلوزيل Clauzel في سبتمبر ١٨٣٠ (إلى فيفريي ١٨٣١).

فكانت سياسته ترمي إلى أهداف ثلاثة:

(١) بقاء الفرنسيين في الجزائر العاصمة.

(٢) إنشاء إدارة فرنسية للأماكن المحتلة.

(٣) التوغل داخل البلاد حتى يكون للمعمرين قواعد ثابتة لا ينازعهم فيها أحد، لا سيما وأن الرأي العام الجزائري بدأ يميل إلى المقاومة مثلًا.

استمال بومزراق الأتراك

وهاجم ابنه القوافل الفرنسية عدة مرات.

وها هو بن مزمون قائد فليسة يعلن عن عدم خضوعه للفرنسيين.

فقرر (Clauzel) كلوزيل حملة على المدية (التي هي في نفس الوقت حملة استطلاع) لماذا؟

ليتخلى المسلمون عن كل أمل في انسحاب فرنسا من الجزائر ولرفع معنوية الجيوش ولمعاقبة باي المدية الذي كان في نظرهم رمز المقاومة.

وأخيرًا لأن المدية تحكم مع البرواقية طريق الجنوب فخرج الفرنسيس من الجزائر في ١٧/ ١١/ ١٨٣٠ في ١٠٠٠٠ جندي ودخلوا البليدة ونهبوها نهبًا، وكانت المقاومة شديدة ثم استولوا على ثنية مزايا (Mouzai) ثم دخلوا المدية في ٢٢/ ١١/ ١٨٣٠ فعزلوا بومزراق وعينوا بايًا آخر هو مصطفى ابن الحاج عمر ثم عادوا إلى الجزائر.

وكان سلطان المغرب -مولاي عبد الرحمن قد احتل تلمسان وجعل على رأسها مولاي علي- إلَّا أن الأهالي ثاروا على السلطان وطردوا ممثله فبعث مولاي عبد الرحمن قائدين للداوئر كانا معتقلين بفاس فجمعا جيوشًا ونصبا ممثلين للسلطان العلوي، أحدهما في مليانة، والآخر في المدية ولم يطل نفوذ

السلطان هنا وعاد برتوزين (Berthezene) إلى المدية ودخلها في ٢٩ جوان ١٨٣١م.

عهد الأمير عبد القادر

كان الأمير بعد تأهبه للمعركة -بعد ١٨٣٤- يفكر في ضرورة توسيع دولته من الناحية الشرقية يضم التطري والمدية وبالاستيلاء على مليانة حتى يتمكن من محاربة الأجانب.

ففي ١٨٣٥ دخل مليانة ونصب أخاه الحاج محي الدين الصغير على رأسها، ثم فكر في المدية وكان عالمًا بأهميتها الجغرافية والاستراتيجية -هي في طريق الجزائر والجنوب وهي قاعدة ستنطلق منها غارات على النواحي الشرقية- وهي حصن يحمي الناحية الغربية. وكانت نواحي المدية خاضعة لنفوذ ولي من أولياء درقاوة هو:

الحاج موسى الدرقاوي الذي أعلن الجهاد على النصارى فقدم إلى المدية في أفريل ١٨٣٥م، وطلب من سكانها أن يسلموا له يهود المدينة وأباضيبها فامتنع السكان، ثم صالحوا هذا الشيخ وسمحوا له بدخول المدية، ومنها انطلق نحو الجزائر على حماره لقتال الفرنسيس (فسمي بوحمار...) ولم يرض الأمير بغيره ليتزعم الجهاد، ونزل عبد القادر على مليانة في ٢٠ أفريل ١٨٣٥م واصطدم بالحاج موسى في حوش عمورة على ١٢ كيلو مترًا من ربعة بني جندل وانهزم الحاج موسى فمكنه هذا النصر من فتح المدية وعين خليفة له بها محمد بن عيسى البركاني وأعدم أنصار الحاج موسى، ثم عاد إلى معسكر، وقبل مغادرته المدية استقبل الأمير مبعوثًا فرنسيًا وهو القبطان Capitaine st Hippolyte الذي جاء ليهنئه ويسلمه بعض الهدايا.

وتعكر الجو بينه وبين الفرنسيس فكان الأمير يغزو القبائل المبايعة لفرنسا وكان كلوزيل (Clauzel) يغزو القبائل المناصرة لعبد القادر وهكذا عاد (كلوزيل) مرةً أخرى إلى المدية في مارس ١٨٣٦م ليفرض على السكان الباي محمد بن حسين الذي عينته السلطة الفرنسية وكان رد فعل الأمير سريعًا فهاجم أنصاره المدية واستولوا علي المدينة وبعثوا الباي إلى وجدة حيث قُتِلَ لكن في ٧ أفريل ١٨٣٦م دخل ديمشال Desmichelas المدية من جديد.

وتطور الوضع شيئًا فشيئًا وعاد الأمير إلى وادي شلف سنة ١٨٣٧م، ثم إلى المدية وألقى القبض على ٨٠ من الكرغلان وبعث بهم إلى مليانة، وفي أثناء إقامته بالمدية استقبل الأمير أعيان البليدة ثم نصب بعد ذلك أخاه الحاج مصطفى خليفة له على المدية.

ثم زحف أول ديسمبر ١٨٣٧م إلى أولاد المختار جنوب المدية، وكان يوجد بينهم رجل يدعى الحاج عبد الله أتى من المغرب الأقصى وتنبأ وادعى أنه المهدي فوقع هذا في قبضة الأمير فبعثه إلى سلطان المغرب الذي كان في طلبه وكان خصوم الأمير مثل الدواير والعبيد وناخة وأولاد نايل وأولاد المختار لا زالوا يتربصون الفرص واضطر الأمير إلى غزو زناجة جنوب بوغار مدة ثلاثة أيام حتى النصر، وفي المدية توجه الأمير لمحاربة الزواتنة وهم كرغلان نزلوا وادي الزيتون غرب يسر ثم عاد إلى المدية وبهذا استقبل مبعوث الوالي فالي (Valèe) لمباحثة مشروع معاهدة التافنة كما استقبل بها الحاج عيسى الأغواطي فعينه خليفة على الأغواط وكان كلاهما ضد زاوية التيجانية عين ماض، قبل نهوضه لمحاربة الشيخ التيجاني بعث الأمير كلغلان المدية إلى ناقدمت وكان يتوقع فيهم الميل إلى فرنسا، وفي طريقه إلى عين ماضي اختط حصن تازا (في الجنوب للمدية).

وعندما دخلت حكومة الأمير في عصرها الذهبي وبلغت سلطته أقصى ما عرفه قرر أن تكون المدية مع تلمسان ومعسكر ومليانة عبارة عن جبهة تساير الساحل وتقف في وجه العدو وفي نوفمبر ١٨٣٩م رجع عبد القادر إلى المدية ليستأنف الحرب فكانت المدية عاصمة دولته فتوجه إليها الأعيان والأنصار ونشبت الحرب ولعب خليفة مليانة (وهو بن علال ولد سيدي علي مبارك وخليفة المدية وهو البركاني دورًا هامًّا مثل تعطيل مواصلات العدو وقطع الماء على معسكر البليدة).

الاحتلال الفرنسي للمدية

قرر الوالي العام فالي احتلال المدية ومليانة فدخل عاصمة التطري في ١٧ ماي ١٩٤٠م فوجدها خالية من أهلها الذين كانوا قد غادروها فعززها وحصنها وترك بها حامية بقيادة الجنرال دوفيفي (Duvivier) إلى أن قدم إليها بوجو Bugeaud في ١ أفريل ١٨٤١م ففر البركاني إلى الجنوب بعد ما خانه أعوانه وفارقه جنوده (إلى ضواحي شرشال) وفي ١٨٤٢م الدائرة العسكرية بالمدية التي كلفت بالقبض على سمالة الأمير تلك العاصمة المتنقلة في الجنوب.

ثم كان دخول المعمرين إلى المدية وضواحيها (في ١٨٤٧م بلغ عددهم ٢٣٢٢).

وأصبحت المدية بعد ١٨٥٠ تحت الحكم المدني فكان يتصرف في شئونها مندوب مدني وبدأت الجاليات الزراعية تنزل بضواحي المدية كلودي Lodi ودمياط Damiette في جانفي ١٨٥٣م وبسطت السلطات الفرنسية نفوذها شيئًا فشيئًا وهكذا قررت في جوان ١٨٥٤م أن تكون المدية بلدية على رأسها شيخ منتخب كما قررت أحداث نيابة العمالة في سنة ١٨٥٨م واستمر عهد الاحتلال.

هذا هو تاريخ المدية إلى منتصف القرن التاسع عشر تـاريخ ثغـر ممتـاز مـن ثغور المغرب؛ لأنه في قلب المغرب الأوسط وفي الطريق بين الـشمال والجنـوب وفي الحدود بين أهل الحضر وأهل الوبر وفي ناحية خصبة فـلا عجـب إذا كـان الصراع من أجل ضمها عنيفًا وتاريخها كله من أجل هذه الغاية...

مصادر ومراجع

(١) العربية:

عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر جـ٧
يحيى بن خلدون بغية الرواد.
أبو عبد الله البكري: كتاب المسالك.

Leon L´africain: Description de L´afrique… tome III.

Marmol: L´afrique tome II page 411.

Fournel: la conquéte de L´afrique par les arabes tome II.

Revue africaine: notice sur L´histoire et L´administration du beylik du titterl (par fedrman et au capitaine) 1865 et 1867.

Le bey mohamed ad- dabbh 1873.

P. boyer: Evolution de L´algérie mé-diane de 1830 á 1956. (1960).

Ismail urbain: notice sur L´ancienne province du titterie (tableah de la situation en algérie- année 1834-1844).

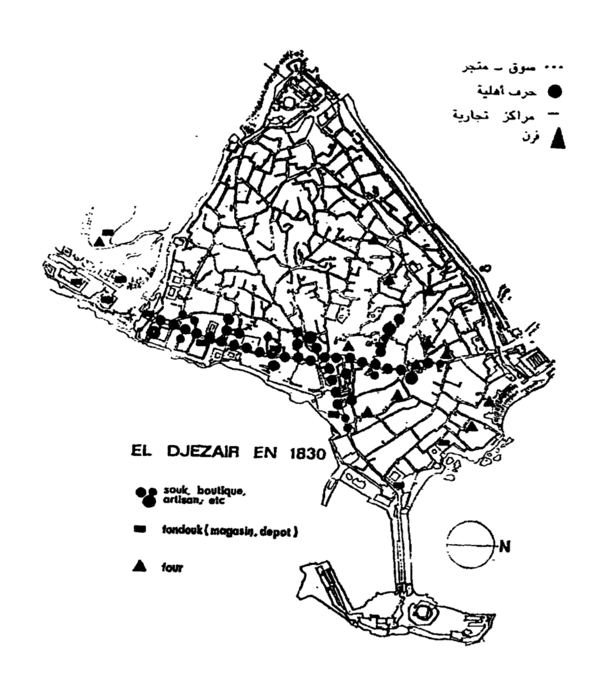
Journale asiatioue: XIII série pp: 111-112.

E.i.art. médéa (G. yver) tome III page 449-500.

H. Guyon: le departement du titterie son passé son histoire.

L. Cortàs monographie de la commune de médéa alger 1909 (brocbue) L´éon L´africeia.

COMEDOR


سوق ـ متجر
حرف أهلية
مراكز تجارية
فرن
EL DJEZAIR EN 1830
souk, boutique, artisan, etc
fondouk (magasin, depot)
four
N

محمد المختار إسكندر

المدية عبر العصور

أو

المدية في عيدها الألفي[1]

حول هذه المراحل:

١- عهد الرومان.

٢- عهد بولوكين بن زيري والدول المتعاقبة على المدية.

٣- عهد الأتراك.

٤- عهد الاحتلال الفرنسي البغيض.

٥- عهد الأمير عبد القادر.

٦- عهد التحرير.

٧- عهد الاستقلال.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على

(١) المحاضرة التي ألقاها الأستاذ محمد المختار إسكندر في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بقصر الصنوبر بالعاصمة من ١٣ جمادى الثانية إلى رجب ١٣٩٢هـ/ ٢٤ يوليو إلى ١٠ أغسطس ١٩٧٢م.

رسول الله، المنزل عليه قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]

وبعد...

سيدي الوزير، حضرات السادة والسيدات، آبائي أساتذتي الأجلاء، أبنائي الطلبة، يطيب لي أن أشكر بهذه المناسبة السعيدة، سيدي الوزير للتعليم الأصلي والشئون الدينية، حيث أتاح لي هذه الفرصة الثمينة للمشاركة في هذا الحفل الجليل ولا يسعني للتعبير عن هذا الموقف إلَّا أن أستعين وأستنجد بأستاذي وشيخي شاعر الجزائر الفذ ورائد النهضة الشعرية الحديثة الشيخ محمد العيد آل خليفة، حفظه الله وكأنه كان ينظر إلى هذا الحفل الكبير البهيج من قصيدة رائعة صور فيها مثل هذه المناسبات بكل دقة وبراعة، وصدق عواطف وإحساس فياض، حيث قال:

استوح شعورك من حنايا الأضلع	وأستجل في القسمات حسن المطلع
وصع التحية نظرة رفاقة	كالورد وارفعها لهذا المجمع
من باحث متفنن أو واعظ	متسنن أو قارئي متخشع
ما ينتهي منهم بلغي مصقع	إلَّا يحيل على بليغ مصقع
والقوم كالأسد الروابض الجثم	من حولهم أو كالنسور الوقع
والمهتدي فيها يجنب المهتدي	واللوذعي فيها يجنب اللوذع
دعت البلاد شبابها فأجابها	عجلًا وحسبك بالشباب إذا دعي

وقال كذلك في مثل هذه المناسبة السعيدة وهو تأسيس جمعية العلماء سنة ١٩٣١م:

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب — فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب
طلعتم علينا كالكواكب في الدجى — وسرتم إلينا كالسحائب في الجدب
حاجحة عرب الفرائح واللغى — فأهلًا وسهلًا بالجحاجحة العرب
بساطنا لكم منا قلوبًا وأعينا — فدوسوا عليها لا تدسوا على التراب
وقد حل هذا العيد باليمن جامعًا — لشملكم فاستأصل البعد بالقرب
فيالك من عيد تجلى كأنه — عروس تجلت في مطارفها القشب
على صدرها عقد تألق مثلها — تألق هذا الحفل بالسادة النجب

وهي كلها عيون وغرر درر وأشكر مرة أخرى حضرة وزيرنا وحكومتنا الثورية بإقامة وتنظيم هذا الملتقى السادس للتعريف بالفكر الإسلامي، وإحياءً لتراثنا، وبعث أمجادنا الذي كادت أن تطمسه قوي الشر، فخرج شعبنا كالمارد يتحدى الطغيان، وها هو يبرهن عن مقوماته السخية والمحافظة على كيانه، وها نحن نقيم الدليل على وجودنا وأصالتنا وعروبتنا وإسلامنا ولعمري هذه كلها هي أركان مقوماتنا التي نادت بها شخصيتنا الوطنية في الماضي العصيب والرهيب وهي:

الإسلام ديننا، العربية لغتنا، والجزائر وطننا، وقد صاغها رائد النهضة الحديثة إمامنا الشيخ عبد الحميد بن باديس نشيدًا للشعب:

شعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب
أو رام أدماجًا له — رام المحال من الطلب
يا نشأ أنت رجاؤنا — وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها — وخض الخطوب ولا تهب

هـــذا نظـــام حياتنـــا بـــالنور خـــط وباللهـــب
فـــإذا هلكـــت فـــصيحتي تحيـــا الجزائـــر والعـــرب

ومن ضمن هذا التراث والأصالة تحيي الجزائر ذكرى ثلاث مدن جزائرية في عيدها الألفي... الجزائر -مليانة- والمدية، أما المدية فقد عاشت في عيدها الألفي أوقاتًا مشرقة حيث زارها وزيرنا للتعليم الأصلي الأخ مولود قاسم بمناسبة عيد الاستقلال، والعيد الألفي للمدية ودشن بها ساحة بولوكين إحياءً لذكرى مؤسسها... وبهذه المناسبة نحيي ذكراها فله كل تشكراتنا، فلبست المدية حلة قشيبة فسجل هذه الخواطر شاعر المدية زميلنا وصديقنا الشيخ محمد الدراجي قصيدة في عيدها الألفي نقتبس منها هذين البيتين:

ألا حـــي المديـــة بالتهـــاني فعـام الألـف مـن عمـره دعـاني
فقد برزت للحفل ترفل في حلاها كتائهـة الجـمال عـلى الغـواني

ونظم شاعرنا الشعبي للشعر الملحون الصديق مصطفى بلجردي بهذه المناسبة:

مـــا أســـعد بلـــدة المديـــة بـــذكرى ســـيد الألفيـــة
فـــرحتين في احتفـــال الألفيـــة والاســـتقلال

فبعد هذه المقدمة البسيطة أنتقل بكم في رحلة عبر التاريخ إلى المدية وأتمنى أن تكون رحلة مريحة ميمونة، فلنسر على بركة الله وحسن توفيقه وعونه، نستعرض عبر هذه الرحلة عصور المدية، وأطوارها، وما لعبته من أدوار رئيسية، لما تمتاز به من موقع استراتيجي هام.

موقف مع التاريخ

إن التاريخ هو منطق للزمن ينتقل من الآباء إلى الأبناء ليكون منطلقًا للأجيال ورافدًا للرعيل الوافد، ليعرف من أين وإلى أين؟... وللمدية زمن لا يستهان به، فهي وليدة ألف عام أو يزيد، وهذا الزمن يصعب على الباحث أن يسلسل منطقه فهو زمن لدنيا بادت، ثم عاشت، إلَّا أن حقائق التاريخ إذا أهملها الزمن وقتًا، فلا بدَّ أن تنشرها الأيام المتولدة من غابر الأزمان، فهذه البلدة التي تربعت على عرش الطبيعة لتتحدى الطبيعة، وتخلق من أحفادها من يسخرون الطبيعة وقد كان أن هذه البلدة التي بلغت من العمر ألف عام قد يقول منطق الأجناس أنها هرمت وشاخت، ولكنها ورافة الظل شابة الطبيعة، وكلما امتدت الأيام بها زادتها جمالًا على جمالها.

إن هذه البلدة التي صادقت التاريخ فكانت تاريخًا، ونسجت من طبيعتها وحدة متجانسة في الأشكال والطباع أبت الضيم وحطمت الأغلال ورفضت الذل والهوان، يتجلى ذلك في مقاومتها المستمرة طوال أيام ممتدة، لكل معتد أثيم وإذا كانت الأيام لم تنصفها والكتب التاريخية أهملتها إلَّا في مصادر قليلة متفرقة، وبصفة وجيزة فقد فرضت نفسها على التاريخ وكانت تطل من وقت لآخر في مواقف شريفة، ومعارك عنيفة تخوضها وتنتصر، ولعل التاريخ أجمل الكلام عنها لتركتها الطويلة، المثقلة بالحوادث والأحداث التي تتغلب على عقل المؤرخ وقلم الكاتب.

إن هذه البلدة التي كانت منطق إعجاب التاريخ فعزاها يومًا إلى عصر الرومان تحت حكم (سبتم سفار) ٢١٠ بعد الميلاد وكانت تسمى (مدياس) كلمة لاتينية أو كلمة (أمدياس) وهذا مع اختلاف الروايات في ذلك العهد أو

من كلمة عربية (لمدية) وتقول روايات أخرى أنها سميت باسم ملكة رومانية تدعى لبدية أو لمدية ولعل ما يؤكد هذه النظرية ما هو موجود في كتاب لمؤلف فرنسي أندري جوليان في كتابه (تاريخ إفريقية الشمالية).

وينسب للطبيب مارشان، فيذكر المدية في مواضيع مختلفة، ويذكرها كذلك في نفس المصدر على لسان طبيب آخر (مفير) سنة ١٣٥٩م حيث يقول يوجد نفق للماء في مسافة ألفي متر تحت المدينة وهو موجود لحد الآن يقلل له (الماجن) قال، والذي يثبت هذا هو مادة البناء التي كانت تستعمل خاصة في عهد الرومان وهو خلط الحجر الرقيق بالجبس، وقال أيضًا حينما كانوا يحفرون الأساس للمستشفى العسكري عثروا على رفات بالية وتحف وزهرية مصورة عليها صورة امرأة وفخار ونقود من البرونز وفانوسة لونها رمادي إلى آخره...

وما نستنتجه من خلال هذه البحوث أن البلدة قديمة موجودة منذ عهد الرومان، ولعل الصورة في الزهرية هي رمز الملكة التي تسمى البلدة باسمها أو تنسب إليها وإذا كانت ملكة الرومان قد خلعت اسمها تاجًا على هذه البلد فهذا ولاء العارف بجمالها الطبيعي الجذاب، ونطوي التاريخ من عهد الرومان الطويل وغيرهم من النومديين، ولعل الاسم تحرف عبر عصور التاريخ من المدية إلى نومدية أو قبيلة أو (بطن من بطونها المتعاقبة، كما حملت اسمًا بربريًا من بطون صنهاجة تسمى (المدية) وإليها ينسب من منتسب إليها (لمدي) أو لمداني).

اختلاف المؤرخين في تسميتها والانتساب إليها

وهذا ابن خلدون يصرح في كتابه العبر (المجلد السابع صفحة ١٩٢): نهض عثمان بن يغمراسن إلى المدية وبها أولاد عزيز من بني توجين وقام

بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وهي تنسب إليهم والذي يدعم أصل ما نكتب أو نقول إن ابن خلدون يصرح في موضع آخر أن المدية بطن من بطون صنهاجة المسمى بأهله ونطق بعضهم بلمدية والنسبة إليها لمداني أو لمدي كما قلنا من قبل، ولا زالت لحد الآن عائلات تحمل هذا الاسم في سجلات البلدية ومما يقال وينسب أن أهل المدية كانوا يصنعون فيها المدي، وهي السكاكين فنسبت إلى الصنعة التي تصنع فيها ونطق الكلمة باللغة الفرنسية (مديا) يوحي بأن النسبة مأخوذة من الصنعة.

مولد المدية

أراد بعض المؤرخين أن يجعل مولد المدية في عهد حماد بن زيري سنة ٣٥٠هـ ولكن صدق التاريخ يعطي أن المدية كانت ضاربة في القدم وأن تاريخها بألف عام يعتبر منطلقًا لتاريخ حديث تناولته الأقلام كثيرًا ونطقت به الألسنة وذلك يعتبر تدعيمًا لمجد هذا البلد وتقوية لأصالتها كما قال ابن عبيد البكري حيث قال: المدية بلد جليل قديم ودعم هذا الرأي الوزاني الفاسي، حيث قال: إن الأفارقة القدماء هم الذين خططوا المدية بما يعرف بنو (مدية)، ويقف مع هذه الآراء المؤرخ الإسباني مرمور عندما قال: إن المدينة عتيقة قديمة وإن المدية سبقت بني زيري، وإنها أقدم من أشير.

وأشير هي مدينة بالجنوب الشرقي من البرواقية قرب ثلاثاء الدوائر أنشأها زيري بن مناد رئيس صنهاجة وأميرها سنة ٣٢٤هـ وجعلها مركزًا حربيًا لمحاربة قبائل زناتة الخارجة عن طاعة العبيدين وجلب لها الصناع والعمال من مسيلة وطبنة فأحكموا وضعها وأشادوا بنائها فكثر عمرانها وشيدت بها القصور والمنازل والحمامات وقصدها العلماء والتجار والأدباء من كل مكان،

وكانت بها سوق تباع فيه كل لطيفة وظريفة وضرب بها العبديون عملتهم وكانت حرمًا آمنًا حتى سنة ٤٤٠هـ حيث خربها يوسف بن حماد الصنهاجي حينما أنشئت العاصمة الجديدة لمدية.

وكانت أشير في سهل قرب الجبل الأخضر هدفًا للعدوان وعارية عن التحصينات الطبيعية مما جعلها بمعزل عن الأمن وعرضة للطامعين ولذلك فكَّر الأقدمون أن يلوذوا بتحصين طبيعي فكان هذا المكان هو المدية، وفي هذا العهد انطلق بنو زيري من صنهاجة ومن أعوان الفاطميين على الخارجين، وتطاولت دولتهم في القرن الرابع الهجري من تيارت غربًا إلى الزاب شرقًا، ونظر الفاطميون إليهم بإعجاب فأنزلوهم أحسن المنازل؛ لأنهم أقدر الناس على محاربة بدو زناتة.

ولما تسلم زيري بن مناد سنة ٣٤٩هـ ٩٦٠م حكم تيارت من الفاطميين أذن لابنه بولوكين بتأسيس ثلاث مدن المدية (٣٥٥هـ) مليانة (٣٦٠هـ) والجزائر (٣٦٢) وفي هذا الصدد يذكرنا ابن خلدون في حديثه عن المدية بما نصه، وكان المختط لها بولكين بن زيري (كتاب العبر) الجزء ٧ وذكر البكري في كتابه المسالك والممالك قام بتخطيطها وذكر مصدر آخر كلمة التشييد، وانطلاقًا من هذه النصوص نفهم بأن المدية كانت أنقاضًا وخرابًا بعد بنائها من عهد الرومان، وذلك لطول العصور التي مرت عليها، إذن فالتأسيس والتخطيط والتشييد يكون من العدم أو شبه العدم وإنما اختيار الموضوع الاستراتيجي الهام هو الذي تنبه له هذا العبقري في ذلك الزمن الغابر.

وكان لنا به فضل الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس هذه البلدة الطيبة، وكان اللقاء بالفاطميين على هذه الأرض يجعل منها ربطًا بين المشرق

والمغرب، حيث إن الفاطميين كان لهم تأثير كبير أثناء وجودهم في هذه الديار، فكان التأثير، والتأثرضي الله عنه بينهما واضحًا في كثير من الأوجه، وبعد انتقالهم إلى المشرق وفتحهم لمصر وتأسيسهم للأزهر الشريف لعنايتهم بالعلم وحفاظهم على الإسلام وإذا كانت المدية قد حظيت بالفاطميين قبلًا ممثلًا في مدينة أشير فإنهم قد أخذوا عنهم هذه الظاهرة وقد تربوا على حبهم للعلم واحترام العلماء وتقديس المبادئ الإسلامية فكلما تطاول بها الزمن زادتها الأيام تمسكًا بالدين، فينبغي أن ننمي هذه الملكة ونرعاها، ولنعيد مجد الإسلام، فالقرآن فيها محفوظ، والدين في أهلها ملحوظ.

التقارب التاريخي بين تلمسان والمدية

لقد كانت الحضارة والتقارب بين تلمسان والمدية عبر عصور التاريخ متداولًا بينهما وكثيرًا ما كانت الأحداث تجمع بينهما وتقربهما إلى بعضهما فهذا ابن خلدون يذكرهما في كتاب العبر إذ يقول عن ابن يحيى بن زيان، مؤسس دولة الزيانيين بتلمسان مع مغراوة وبنو توجين وهم زناتة متنقلون دفعهم تيار الهلاليين نحو الغرب وأصبحوا في القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي ما بين الونشريس والسرسو والمدية.

وفي عهد خلافة الموحدين سنة ٦٤٦هـ ١٢٤٨م، حيث عمت الثورة هذه الجهات فدخل بنو عبد الواد، وأغاروا على نواحي تلمسان، كما تغلب بنو توجين على منطقة الصحراء والمدية، إلى جبل الونشريس، وبادر ملوك تلمسان بالاستيلاء على المدية لموقعها الإستراتيجي الهام، إذا هي تقع في طريق الجنوب وطريق الشرق الجزائري، وقد تم الاستقلال لبني عبد الواد على عامة أوطان بني توجين، وكان موقفهم مع هؤلاء يتداول ما بين السلم والحرب، وهكذا

نجد المدية دائمًا بين مد وجزر وحرب وسلم، فهي مهد الثورات وملجأ كل ثائر أو لاجئ.

نقل الحضارة إلى المدية

إذا كانت تلمسان قد حظيت بالحضارة والفتح أولًا ونالت شهرتها بسبب اعتناء الحكام والأمراء المتعاقبين عليها فإن المدية قد نالت نصيبًا من هذا الاعتناء، وذلك عندما استولى عليها محمد بن عبد القوي على المدية وضواحيها وأنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب وجعلها لهم موطنًا وأعلن ولايتها المستقلة فقد جاء في خبر أبي سعيد عثمان ٦٨١ إلى ٧٠٣هـ مع مغراوة وبني توجين ما يلي:

(لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق المريني ولى وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلد مغراوة الزناتيين، وأصبحت بنو توجين كلها تابعة له ثم تابع السير إلى المدية سنة ٦٨٨هـ فقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بالمدية كما ذكرنا في صدر الحديث).

وقد أشار ابن خلدون أن اللمدانيين غدروا بأولاد عزيز ومكنوا الزيانيين من البلد، فقام رجل يدعى عطية بن توغرين ومال إلى السلطان المريني المحارب لبني زيان، ثم تابع يوسف بن عبد الحق ورغب في ملك الونشريس، ثم عاد إلى بني توجين وحاربهم وانتهى إلى المدية ففتحها، وعادت المدينة إلى طاعة السلطان عثمان فتقبلها منهم، وبدأ بتخطيط قصبتها القديمة، عن ابن خلدون بتصرف.

محاولة المرينيين مرة أخرى

يتبين لنا من مراجع التاريخ وأحداثه، أن المدية كانت مسرحًا بين الوافدين يتلقفها فريق ثم يأخذه آخر فترات تقصر وتطول حسب استعداد الوافد وتفاعل أهل انبلاد معه، فحينما نجد أن الزيانيين قد ملكوا ثم حوربوا من قبل بني مرين نجد محاولة أخرى لبني مرين لاسترجاع ولاية التيطري فعندما رجع السلطان المريني أبو الحسن من تونس ونزل بالجزائر عزم أن يحارب بني زيان بمساعدة الثعالبة، ونصر بن عمر بن عثمان وسويد وزناتة، وانضم أبو ثابت الزياني لمغراوة، وفشلت كل المحاولات أمام الزيانيين، فحينما دب الضعف في دولة تلمسان وأصبح ملوكها لا يستطيعون دفع مهاجمة الأعراب أعلنت المدية الاستقلال التام عنها.

كما أن المدية عرفت نوعًا من الاستقلال قبل ذلك عند ما كانت تحت قيادة إمارة الثعالبة وكانت تشتمل على مقاطعة التيطري ومتيجة سنة ٥٤٨هـ ١١٥٢م.

شخصيات تاريخية شرفت منطقة المدية

في عهد الدولة الموحدية نبغ في هذه الناحية شخصية لها وزنها وقيمتها في الحقل الثقافي، والعلمي، وكان لها شأو عظيم بين كبار العلماء وهو أبو محمد عبد الله الأشيري نسبة إلى بلدة (أشير) بالجنوب الشرقي من مدينة البرواقية في سفح جبل تيطري والتي كانت عاصمة قبل تأسيس المدية.

كان رحمه الله إمام أهل عصره في الفقه والحديث والأدب انتقل إلى الشام وسكن حلب الشهباء ففاق بها جميع علمائها.

كما قال ياقوت: كان إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة وبالشام عامة، يتسابق الناس إلى الأخذ عنه والتشرف بالانتساب إليه، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وآرائه.

استدعاء الوزير أبو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد إلى بغداد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي لإقراء الحديث وتدريس علومه بدار السلام (بغداد) فسيره الملك إليه محفوفًا بالإجلال والإكرام.

فأقرا هناك كتاب (الإفصاح عن شرح معاني الصحاح) بمحضر الوزير مؤلف الكتاب نفسه، وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتابًا شرح بها الوزير أحاديث الصحيحين.

وقد جرت للشيخ مع الوزير منافرة فتقاطعا، ثم ندم الوزير على موقفه هذا اتجاه الشيخ فاعتذر إليه وأغدق عليه بره وإحسانه، ثم سار الشيخ من بغداد إلى مكة ثم عاد إلى الشام فمات رحمه الله ببقاع بعلبك سنة ٥٦١هـ ١١٦٥م.

وهناك انطفأ السراج الوهاج وخبأ ذلك النجم الذي طلع من المغرب العربي وخاصة من بلدة أشير ليأخذ عنه المشرق العربي سراجه ونجمه ونوره ولا غرابة في ذلك فليس للعلم والمعرفة حدود بين المشرق والمغرب.

وهناك شخصية أخرى كان لها مجالها في ميدان العلم والثقافة، وكان لها وزنها في بلاد الأندلس حيث مثلت عاصمة المدية أشير في تلك الربوع وهذه الشخصية هي الراوية الإمام الحافظ موسى بن الحجاج بن أبي بكر الأشيري، وقد ولد في أشير، وسكن مدينة تدلس (دلس) من أعمال الجزائر ومنها خرج في

طلب العلم إلى الأندلس فدخل إشبيلية سنة ٥٣٥هـ ١١٤٠م فلقي بها الإمام ابن العربي وأبا الحسن شريح بن محمد وأبا بكر بن أبي طاهر، ودخل قرطبة، فأخذ بها عن أبي عبد الله بن أصبغ وأبي مروان بن مسيرة... وسمع مشكل بن قتيبة عن أبي عبد الله بن وضاح بالمرية سنة ٥٣٧هـ ١١٤٢م وأخذ عن أبي محمد بن عبد الحق بن عطية ولازم ابن أبي الخصال وأبا محمد النفزي المرسى، وأبا الحجاج بن يمشد العكيسي، وأبا الوليد بن الدباغ، وأبا الحجاج بن يسعون وبعد أن استكمل معلوماته هناك عاد إلى وطنه، فنزل مدينة الجزائر وأصبح إمامًا واعظًا وخطيبًا، ونشر بها علمه الغزير وأحدث دويًّا في وقته ثم انتقل من العاصمة إلى مدينة دلس حيث الراحة والسكون حتى وافاه الأجل في صفر سنة ٥٨٩هـ ١١٩٣م.

زائر في المدية

وهنا نقف قليلًا لنستريح من وعثاء السفر، وطول السير في دروب التاريخ، ويقال: إن أهل المدية يكرمون الضيف ويقدرون أهل العلم و... وهذه المزية لا زالت فيهم لحد الآن.

ولندع المجال لسائح ورحالة مشهور وهو الحسن بن محمد الوزاني الفاسي المعروف عند الغربيين بالأسد الإفريقي فوصف المدية أحسن وصف، حيث قال: فالمدية مبنية على سهل جميل، خصب تسقيه أنهار كثيرة، وأهلها أغنياء، يسكنون دورًا جملية، وقد استقبلوني بحفاوة وإكرام كأني أمير المدية، ومن هذه الإشارة لمؤرخ مشهور ومعروف لدى الغربيين يتبين لنا ما يلي:

١ - الموقع الجغرافي الممتاز.

٢- انتعاش الحياة الاقتصادية.

٣- رقي العمارة على ممر العصور، وحتى للزمن الحاضر وكان أصحاب المدية من البنائين يختصون ويشتهرون بفن البناء وخاصة في الناحيتين الروحية والاجتماعية.

أما الروحية فبناء المساجد، والاجتماعية بناء الحمامات وكفى بمسجد النور مفخرة وجلالًا وجمالًا.

٤- إكرام الضيف والحفاوة به مما جعل الضيف صاحب الدار، وصاحب الدار هو الضيف، وهذا وهو منتهى الكرم.

المدية تقدر العلم، وتحترم العلماء

إن الروح الدينية التي ورثتها هذه البلدة منذ الفتح الإسلامي المبين، جعلهم يحترمون كل ذي قيمة علمية، وخصوصًا إذا كان تلبس لباس الإسلام، وتدين بالكتاب والسُّنَّة، وقد صرح بذلك الرحالة المشهور الحسن بن محمد الوزاني الفاسي، فقال: وإذا زارهم أجنبي ذو علم ومعرفة، فإنهم يعظمونه ويبجلونه ويبقونه عندهم ليفصل في قضاياهم، ويعملون بقوله، ويصوبون رأيه، ومن هذه الملاحظة الوجيزة أن احترامهم للأجنبي ليس احترامًا لذات الأجنبي، ولكن احترامًا للعمل في ذاته وللصواب في منطقه وللحق في عدله. لذلك نجدهم يولونه منصب القضاء وإن كان ضيفًا والحق ليس ضيفًا في أرض الله، فقد خلق الله السموات والأرض بالحق، فهذا التعظيم للحق في ذاته وهذا المنطق مشاهد على مسرح الحياة حتى يومنا هذا وإلى ساعتنا هذه.

المدية في كتابة عالم ألماني هـ. ومال سان ترجمة

د/ أبو العيد دودو تحت عنوان: (أضواء على مدينة المدية)

حيث وصفها بقوله:

تقع المدية، وهي مدينة جبلية، على بعد ٤٥ كلم من البليدة، ويبلغ ارتفاعها ٣٣٠٠ قدم أي ٩٢٠، وكانت في السابق عاصمة تيطري، ولها نفس المكانة والأهمية السياسية التي كانت لمدينة وهران، قسنطينة.

أما الطريق الذي يؤدي إليها من البليدة، فهو من المناظر الخلابة التي يقدمها الريف الجزائري لعشاق المناطق الطبيعية الساحرة.

المدية، المدينة المقدسة في نظر الأجانب، ومع مقارنتها لبلدة مقدسة في إيطاليا، حيث يقول: والمدية تعتبر عند المسلمين مدينة مقدسة ويمكن أن نطلق عليها من هذه الناحية (لوريتو) الإسلام فهي تشبه البيت المقدس، في ذلك الحج الإيطالي الشهير.

المدية بلاد الأساطير، والعجائب والمعجزات، حيث يقول: نفس المصدر: إن المدية وهي الأخرى قد حملتها الملائكة كما تقول الأسطورة من البلاد القديمة عبر الفضاء، ووضعتها على سفح الأطلس.

المدية في شعر الوالي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دفين مليانة، تأكيدًا لهذا المعنى من قصيدة في الشعر الملحون:

أيتها المدية

يا من حملتك الملائكة

لو كنت امرأة
لما تزوجت سواك
حين يحل الشر بأبوابك
تطردينه قبل أن يحل المساء

المدية في مرآة الجزائر

محمد بن عثمان خوجة سنة ١٨٣٣

حيث وصفها بقوله:

وسكان المدية، حلفاء شجاعة، ورهناء العناد، وليس لديهم ميول للصناعة وحالة طقسهم معتدلة صيفًا وباردةً كل يوم تقريبًا في فصل الشتاء، ومناخ بلدهم صحي جيدًا.

فهذه نظرة عن مناخ وعادات وتقاليد المدية.

المدية في عهد الأتراك

لدخول الأتراك إلى القطر الجزائري فهناك نظريتان فالبعض يقول: إنهم مستغلون، جاءوا ليتمتعوا بخيرات الجزائر، والبعض يقول: إنهم حماة الإسلام من غزو الإسبان المتكالب علي الشطوط الجزائرية.

وبعد الدخول نظموا القطر الجزائري إلى أربع ولايات:

١ - دار السلطان وتشمل عمالة الجزائر اليوم.
٢ - بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة.
٣- بايلك الغرب وعاصمته مازونة ومعسكر ووهران.

٤- بايلك الجنوب وعاصمته المدية.

وكان تأسيس بايلك تيطري سنة ١١٥٨م في عهد الباي حسن ونصب رجب بايًا عليها وكانت الحدود لولاية تيطري هي الحدود الحالية لولاية تيطري.

وما كانت تقدمه المدية في عهد الأتراك بواسطة الباي زكاة الغنم لبيت المال، ويوزع شيء على أرباب الدولة، وكذا في عيد الأضحى، أما في عاشوراء فلا يبعث؛ لأن عمالته أغلبها صحراء والسكان العرب أصحاب غنم ولا حرث لهم والذي يقبضه من الرعية شيء قليل يكفيه وهو محلته، أما عشور بلدة المدية فيجعله (عولة) كسكسي محمصة برغل، وله وكيل عولة يقدمها إلى دار الإمارة، في كل شهر، وهذا ما يسمى الآن عند الدول والحكومات بالتمرين الاحتياطي.

أما الضريبة التي يدفعها باي تيطري تتقدر بـ ٧٦٠٠٠ في كل ثلاث سنوات.

ومن أشهر البايات الذي اشتهر وكان صالحًا ورعًا، هو عثمان الكردي، وهو والد محمد باي الكبير باي وهران وعدد البايات في العهد التركي، يقدر بـ ١٨ بايًا، ما بين ١٥١٦- أما القوة العسكرية التي كان يملكها باي تيطري فكانت تتمثل:

١- في خمسين صبايحي، و ١٥ مكاحلي، يتركب منهم حرسه الخاص.
٢- نواب المدية التي تتركب من خمسة صفارة ومائة وعشرون جنديًا.
٣- قوة احتياطية، من مائتين زبنطوط، أو كسيرجية في البرواقية.

٤- حامية سور الغزلان، التي تتركب من ٣٠ جنديًا و ٦٠ احتياطي. وكانت القوات مقسمة إلى أربع قيادات:

١- قيادة التل الصحراوية.
٢- قيادة التل القبلية.
٣- قيادة سور الغزلان.
٤- قيادة الجنوب، وتشتمل على القبائل الرحل، وأتباع أولاد مختار.

أما الناحية الثقافية والاجتماعية، فقد أجمع المؤرخون أنه كان عصرًا مزدهرًا بالثقافة والتعليم، فقد كان يقدر عدد المكاتب القرآنية في القطر الجزائري ثلاثة آلاف كتاب قرآني أو مسيد في اللهجة الجزائرية، وكان عدد المتعلمين، وقلة الأميين أكثر من فرنسا، وهذا بشهادة بعضهم، وأما بالنسبة للمدية، فقد أسسوا أربعة مساجد، مسجد مراد للمذهب الحنفي والجامع الأحمر، وبقيت صومعته لحد الآن في ساحة بولوكين، التي دشن تسميتها الأخ الوزير أثناء الاحتفال، بالعيد الألفي للمدية والذكرى العاشرة للاستقلال.

ومسجد في الثكنة العسكرية، ومسجد سيدي سليمان وتهدم وبقيت الزاوية لقراءة القرآن لحد الآن، وترميم وتجديد المسجد المالكي في عهد مصطفى باي وهذه الوثيقة المسجلة في رخامة مع ذكر الباني والتاريخ، والرجاء من الله المثوبة وهي هذه بنصها التركي: ططري بكم مصطفى بك حقه أيد باستثناء أثر قويدي بومسجدي قبلدي بنا (ق.ت.ك) هزاز خير موفق أيلسون باري خدا أنكيجون (أنتشو) هكذا ينطق بكلمة (أنكيجون) سافر أولدي جنت ايجره بربنا ١٢٢٧-١٢٣٧.

وهذه ترجمة ما هو مكتوب على الرخامة:

(امتثالًا لأوامر الحق، بني مصطفى بك باي تيطري هذا المسجد وتركه أثرًا، وفقه الله العلي لآلاف الخير وأكرمه ببناء في الجنان...).

وهو الذي بنى الدار الجميلة بقرب هذا المسجد، والتي سكن بها الأمير فيما بعد وبنى حوشًا خارج المدينة للصيف، ولا زال يعرف لحد الآن بحوش الباي وبنى قبة على ضريح الولي الصالح الشيخ البركاني ولا زالت لحد الآن عائلات تحمل اسم الباي (حسن باي، عباس التركي وبن تركية إلخ).

وكانت مكتبة عامة للمطالعة في نهج الإخوة بن غربية، وكان القيم عليها الحاج بن رقية، كهذا قال أحد أنجاله وكانت المدينة في عهد الأتراك محاطة بالأسوار ولها خمسة أبواب، وهي على التوالي، باب الجزائر، وباب القرط، وباب الأقواس، وباب سيدي الصحراوي، وباب البركاني،و طال العهد التركي مدة ثلاث قرون وزيادة ولا بد لهذا العهد الطويل من حسنات وسيئات، غير أن الاستعمار وأعوانه يودون أن يظهر العهد التركي بالعجز والتأخر والاضطراب والفوضى حتى يظهر العهد الاستعماري على أحسن ما يرام في زعمهم.

ولذا قال ردًا عليهم أمير شعرائنا في تقريظ كتاب عثمان باشا في العهد التركي في الجزائر للأستاذ توفيق المدني فقال:

نصبر ما استكبر أعدائنا	في الأرض والعقبى لمن يصبر
فمجدنا أعظم من مجدهم	والله من أكبرهم أكبر

عهد الاحتلال الفرنسي البغيض

فلا بد لنا من وقفة قصيرة، حتى تكون على خبرة ودراية بسبب احتلال فرنسا للجزائر، وتحليلًا للظروف السياسية والاجتماعية، الاقتصادية والأخلاقية في غاية الخطورة، في فرنسا، وفوضى شاملة، وانكسار وهزيمة في حرب وكساد وبطالة في المجتمع، فتجاه ذلك كله أرادوا أن يرفعوا من معنويات جيشهم المخذول، فكانت الضحية الجزائر المنكوبة وجاء اليوم المشئوم وهو ٥ جوليت ١٨٣٠ ونزل الجيش واحتلت الجزائر في ظروفها المعروفة وبدأ الشر ينتشر في أنحاء القطر، وكان نصيب المدية منه، من يوم الاحتلال إلى يوم الاستقلال، نصيبًا لا بأس به، من الرزايا والضحايا، والبطولة والاستشهاد، فالمدية ما بين ١٨٣٠ إلى ١٨٤٠ تعرضت أربع مرات للاحتلال وفي كل مرة يكبدون العدو الخسائر الفادحة ويقاوم رجالها مقاومة عنيفة حيث قال الأستاذ سعد الله في كتابه التاريخ الحديث ص٨٢ قال: وفي ٢٧ نوفمبر. وصل كلوزيل إلى البليدة قادمًا من حملته الفاشلة على مدينة المدية عاصمة تيطري، ونحن نذكر باختصار من محاولات كلوزيل إلى برتوزين مارس ٣٦ بقيادة كلوزيل و ٧ إبريل ٣٦ بقيادة دي ميشال إلى المدية؛ لأنهم اكتشفوا أنها في موقع استراتيجي هام ورابطة بين الشرق والغرب والجنوب وقبل احتلالها الأخير كان الأمير قد سبقهم واعتصم بها سنة ٣٥ لأنه تنبه إلى موقعها وأهميته بالنسبة للمعركة الجديدة بمجرد ما بايعته الأمة على القيادة وتنظيم شئون الدولة حتى احتل مليانة والمدية ونصب أخاه محيي الدين على مليانة ونصب على المدية خليفة عنه وهو الثائر المجاهد محمد بن غيسى البركاني بن صاحب الضريح المشهور؛ لأنه أدرى بأمور المدينة ونظامها الداخلي، وكان يتصرف في القوات التالية:

١ - رجالة منظمون ٦٠٠ رجل.

٢- فرسان منظمون ٢٠٠رجل.

٣- رجال المدفعية ٣٠ رجلًا.

٤- فرسان غير منظمين ٤٠٠٠ رجل.

٥- رجالة غير منظمين ٢٠٠٠.

المجموع ٦٨٣٠ رجلًا.





وتقول بعض المصادر إن رئيس المدفعية هو محمد أغا المعروف بابن كسكسة الكورغلي، ولا زالت هذه العائلة في المدية لحد الآن.

وابتنى الأمير معامل حربية لصنع السلاح وإنتاج البارود والرصاص في كل من المدن الثلاث أولها المدية ومليانة ومعسكر، وقبل مغادرته المدية في مرة من المرات، استقبل مبعوث فرنسا، ليجس النبض ويعرف قوة الأمير ويختبر ميزان الحرارة والاستعداد، وهكذا كان دأبهم، حينما تشتد المعارك، ويشعرون بالهزيمة، يطلبون الهدنة، وجن جنون فرنسا كدأبها دائمًا أن يتغلب ويتفوق عليها هذا الناشئ في ميادين مختلفة فجهزت أكبر قوة وكبار الضباط، أمثال الطاغية بيجو فجددت الكرة على المدية ودارت معارك عنيفة سنة ١٨٤٠ عند أسوار المدينة.

وهنا سقطت المدية، في يد المستعمر الغاشم، وسلط عليها نظام خاص منذ ذلك العهد، وبعد سقوط المدية رفع راية الكفاح والجهاد، مع بقية جنوده الشيخ البركاني، وانضم إلى جيش الأمير بقواته التي كانت تحت قيادته، حتى سنة ٤٧ وهكذا بعد سبعة عشر عامًا من الجهاد والكفاح المرير انتهت المقاومة النظامية وانطوت صفحة من أروع صفحات البطولة غير أن المقاومة الشعبية لم تنته، وقد حمل لواءها المناضل الشيخ البركاني، وظل يقاوم ويكبد القوات الفرنسية بحرب الكمائن وقطع الطرقات في كثير من الجهات، وخاصة بين جبال شنوة وموزايا، وجبال المدية.

وتقول بعض المصادر، بقي يكافح حتى انظم إلى قوات المقراني في جبال جرجرة الشامخة، والاستعانة بها وأما المدية بعد الاحتلال الأخير، فكان نصيبها من هذا الشر، مثل بقية المدن الجزائرية وأقبح أنواع الشر، ما كان يمس المقدسات والمعتقدات ولله در شاعرنا العربي حيث قال:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

ومن هذه النكاية البشعة تم تحويل مسجد مراد للمذهب الحنفي إلى الكنيسة؛ لأنهم شعروا بالعاطفة الدينية متأصلة في الشعب، ولم تستطع يد العدوان أن تطمس عروبتنا وأصالتنا مهما سلطوا علينا من أنواع المسخ ولله در شاعرنا الفذ الشيخ محمد العيد حيث عبَّر عن هذا الشعور ويخاطب القطر الجزائري:

ها أنت في وسط الزعازع ثابت باق على الإسلام لم تتزعزع

بوركت من وطن تسامى فالتقى بالمنتهى في مستواه الأرفع

إفريقيا أخت الحجاز ديانة وربيبة البيت الحرام الأمنع

-ولن يضيع حقًّا وراءه مطالب-

وذلك حينما بنوا الكنيسة التي حولت إلى مسجد النور في العهد الجديد طالب جدنا مع جماعة من أعيان المدية إرجاعه إلى الأصل وتأدية الشعائر الدينية، ورجع فيه تلاوة القرآن وصوت المأذن يدوي في السماء، ويملأ الفضاء، الله أكبر، الله أكبر.

واستمر الحال من طرف المستعمرين باتخاذ كل الوسائل للقضاء على الشخصية الجزائرية والأمة تقاوم بمختلف الطرق والتنظيمات الاجتماعية والسياسية لنشر الوعي والاستعداد ليوم خوض المعركة الفاصلة، ودام الحال طيلة مائة وخمسة وعشرين سنة أو ١٢٢ سنة.

عهد التحرير

دقت ساعة الحق، وانطلق الشعب يدك ويحطم كل قيد ولو كان من ذهب، وتجاه هذا التحدي جن جنون فرنسا وجندت كل طاقاتها للقضاء على هذه الثورة العارمة، المحكمة الحلقات والتنظيم، وراء حركة منظمة واحدة، ألا وهي جبهة التحرير الوطني، وهنا فتح الشعب الجزائري صفحات جديدة ليكتب عليها بدمه القاني أروع صفحات سجلت في العصر الحديث، والمدية كانت في طليعة من لبى النداء والتحق أبناؤها وشبابها بركب حركة التحرير، واعتصموا بالجبال الحصينة المنيعة وكبَّدوا العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

وكانت المدية مركز اتصال بين الغرب والجنوب والعاصمة، ولعب موقعها الاستراتيجي دورًا هامًّا في معركة التحرير، وقدمت على قلة عدد سكانها بالنسبة لغيرها من المدن الكبرى ألفًا وخمسمائة شهيدًا، وما من عائلة في المدية إلَّا واستشهد منها عدد من الأفراد يكثرون ويقلون، حسب العائلة وبعض العائلات استشهد منها ثلاثة عشر من خمسة عشر؛ ولذا يجد السائح كل طرقاتها وأنهجها بأسماء الأبناء والإخوة وأقسم الجميع أن لا يتشحوا بالسواد ولا يظهرون الحزن والجزع، وإذا سمعت عائلة بأن ابنها استشهد تملأ الفضاء بالزراغيد، وهنا تيقن الخصم بأن الموت أصبح لا يرهب من أصبح الموت لا يرهبه فالحياة تصافحه والنصر يلاحقه.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]
صدق الله العظيم

وأصبحت المدية داخل أسوار شائكة وستار حديدي، والحراسة مشددة،

وبالرغم من كل ذلك يدخل الفدائي، وينفذ العملية، وكثيرًا ما يخرج ناجحًا منتصرًا، وتنجد الشعب بجميع طبقاته والتلاميذ مع صغر سنهم، التحقوا مع إخوانهم في الكفاح ومن ثانوية واحدة استشهد منها ما يزيد على الثمانين.

وبدأت سياسة فرنسا بعد أن حمي وطيس الحرب واشتدت المعركة، فبدأت في سياسة الخداع والمكر، وظنت أن الشعب يريد الخبز ويريد العمل، فخططت برامج للبناء لتصد الشعب عن المبدأ المقدس وطلب العزة والكرامة والحرية والسيادة.

فأنفقت أموالًا طائلة، ولكن هيهات، ولتستمع إلى معجزة القرآن حيث يصور مآلهم وخيبتهم، حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦] صدق الله العظيم.

استمرت المعركة قاسية، مدة سبع سنين ونصف، وما أسهل هذه العبارة في اللسان، وما أثقلها في الواقع المرن وما قاسى الشعب فيها من أهوال، وتعذيب، وقتل وتشريد، ودم ودموع، وفي كل شبر لنا قصة، حتى جاء النصر والفتح المبين، واندهش المستعمرون وقلوبهم منكسرة، ودموعهم منهمرة، في حين أنهم ظنوا أن الشعب قد استسلم إلى الأبد، وأصبح مقاطعة فرنسية؟ وصدق الله العظيم، حيث يقول وهذه من معجزة القرآن يخيل إليك كأنه أنزل الآن ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ

وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

عهد الاستقلال

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾

صدق الله العظيم.

وانطلق الشعب كالسيل الجارف معلنًا عن فرحته وانتصاره ومقدرًا جهود أبنائه، ومترحمًا على شهدائه، ويأسف على عدم حضورهم لهذا الفوز وهذا النصر حيث يعلم أن ما عند الله خير وأبقى، ولا شك أنهم يتنعمون في فراديس الجنان والحور العين، تغني لهم بأعذب لحن في جنات الخلود.

ويسجل عهد الاستقلال أكبر مفخرة لأهل المدية وهو بناء مسجد النور كدليل على انتصار الشعب وتعاون الأمة وتظافر جهود أبنائها للبناء والتشييد للأجيال الآتية ما هو مكتوب على رخامة المسجد للبقاء والخلود للشيخ الفضيل إسكندر هذه الأبيات حيث قال:

الله أكبر جاء الحق وانهزمت	معالم الكفر وانجلت عنا المحن
حيث النواقيس والصلبان قد	وحل موضعها القرآن والسنن
يا مسجد النور أنت رمز عزتنا	إذا رأيناك زال الهم والحزن
بك المدية نالت كل مفخرة	وزاده بهجة رونقك الحسن

هذه هي المدية عبر عصورها. وأتمنى أن تكونوا قد تمتعتم خلال هذه الرحلة الطويلة. حلالا نفع عام.

ولا بدَّ من الرجوع لمناسبة عيد الألفي بهذين البيتين للشاعر اللمداني الزميل الدراجي:

وتهنئتي بهذا العيد نجوى	إلى شعب المدية كالمثاني
فعيشي في الحياة سجل فخر	وتيهي بالخلود على الزمان

ودمتم وطبتم والسلام عليكم.

فهرس

الموضـــــوع	صفحة

إنجاز دار الأمة

2007

ص.ب 109 برج الكيفان 120 16 الجزائر

هاتف/فاكس: 04 22 20 021


Bibliotheca Alexandrina
0547985